

أحمد بهاء الدين

شرعية السلطة

في العالم العربي

المسلمون متخلفون عن الإصطفاء
معنى القاذورات
مركبة حقوق الإنسان
إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلام
أصنام كلغة من الوحدة العربية
المثقفون والسلطة

دار الشروق

شريعة السلطة

في العالم العربي

احمد بهاء الدين

شريعة السلطنة فى العالم العربى

دار الشروق

مقدمة

عندما تفضلت «دار الشروق» بجمع المقالات التي كتبتها طوال خمس سنوات، باقتراح نشرها في كتاب، وجدت أن المهمة بالغة الصعوبة.

فالبلاذ العربية دون استثناء مرت بتحويلات وتطورات عنيفة، وامتحانات بالغة القسوة.. حضاريا وسياسيا واجتماعيا وفكريا.

واحترت أى الكلام بقى له معنى، وأى الكلام أجدر به أن يطوى في غمار النسيان، بعد أن تجاوزته الحوادث...

هذا فضلا عن أن هذه المقالات تكون حجما ضخما، واهتماماتها متشعبة في الزمان والمكان والموضوع.

وقد حاولت جهدى، أن أختار من الموضوعات، لكى تكون بين دفتى هذا الكتاب، تلك التى تتصل بقضايا مازالت تعيش معنا، ولعلها ستعيش معنا طويلا، لأنها متعلقة بالأفكار والمبادئ والملاحم الأساسية، والتى لم يتوصل المجتمع العربى فيها إلى صيغة مرضية للمواطن العربى إلى الآن. والتى ستبقى محل جدل حتى يجتاز عالمنا «مرحلة الانتقال» التى يمر بها.. وحتى نجد الصيغة التى اصطلح على تسميتها «الأصالة والتجديد». والتى بدأ النقاش فيها منذ أكثر من قرن، مع بزوغ حركة التنوير العربية في مصر، ثم في باقى البلاد العربية على التوالى...

ولعل ما بقى من معالجات، وهو كثير، يجد خيطا يربطه في كتاب آخر...

أحمد بهاء الدين

يناير ١٩٨٤

نحن.. والحاضر شرعية السلطة في العالم العربي

سألوني، عن التحديات التي تواجهها القومية العربية..

وكان ذلك في ندوة عامة، في مقر رابطة الأدباء، في عمان، بالأردن.

وقلت لهم: إن التحديات التي تواجه القومية العربية كثيرة، منها مثلاً الوصول بها إلى نوع من أنواع الوحدة العربية. ومنها حل مشكلة التخلف الاجتماعي والاقتصادي. ومنها تحدى المحافظة على الاستقلال القومي بين تيارات وعواصف القوى الكبرى. ومنها تحدى الحفاظ على الثروة البترولية الاستراتيجية وحسن استثمارها.. إلى آخره.

ولكنني، قلت لهم، أفضل أن لا أتحدث عن «التحديات الخارجية» المعروفة، وأن أركز على ما يمكن تسميته «تحديات داخلية»، أي تحديات فينا وفي نفوسنا ومجتمعاتنا. ذلك أتنى أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماماً بالنسبة لكل شيء. وحتى التحديات الخارجية سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

وقد اخترت من هذه التحديات، ثلاثة..

ثلاثة أمور تحتاج إليها المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة. وقد تبدو للبعض نوعاً من الترف الشكلي، لأنها «صفات» و«قيم» وليست «أشياء» مادية.. ولكن الواقع أن الحاجة إليها صارت ماسة بل ومتفاقمة.

فالقوة المادية لا يمكن أن تأتي إلا في أعقاب قوة معنوية.

وكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضته وتقدمه المادى إلا بعد أن استتبّت لديه «قيم» و«مؤسسات» و«نظم» تسمح بقيام هذا التقدم المادى واستقراره على أساس متين.

إن من الشعارات البراقة الرائجة هذه الأيام، في المؤتمرات وعلى أقلام الباحثين وألسنة الزعماء والحكام.. عبارة «نقل التكنولوجيا»، التي نستخدمها في إطار البحث عن سبل تطوير وتقوية مجتمعاتنا العربية..

ولكن التكنولوجيا لا يشتريها المال. ولا ينقلها عشرات أو مئات من الخبراء الذين يتعلمونها في الخارج. هذه وسائل مساعدة. ولكن التكنولوجيا لا تنتقل حقا وتصبح لها جذور إلا في تربة صالحة ومهيأة لذلك. والتربة لا تكون صالحة إلا إذا توافرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة..

وحتى لا يظن القارئ أنني أشغله بقضية هامشية أسرد قصة صغيرة سردها قبلا في مجال آخر، تدل أى إنسان مدرك للمسئولية، إن البلاد لا تتقدم بالصناعة والزراعة واصلاح التليفونات وحدها!

منذ أكثر من عشرين عاما، وأنا في مطلع حياتى الصحفية، تعرفت بحكم المهنة على الملحق الصحفى الشاب في سفارة اليابان بالقاهرة (وقد لقيته بعد ذلك سفيراً لليابان في دولة الكويت ثم مديراً لأحد أكبر بنوك اليابان). وعرفت منه بالمصادفة يوما أنه يواظب على حضور حصص اللغة العربية في مدرسة المنيرة الثانوية في شارع المبتديان، ودهشت. وقلت له إن هناك وسائل أخرى أسهل لتعلم العربية بالنسبة له. وقتها قال لى: إنه حقا مبعوث ليعمل ملحقا صحفيا لليابان في مصر.

ولكن مطلوب منه شيئاً آخر، هو دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة عميقة تمكنه من أداء غاية معينة بعد سنوات وهي: ترجمة كتاب «مقدمة ابن خلدون» إلى اللغة اليابانية.

هذه الواقعة الحية، لا تبرح ذهني أبداً. فكتاب مقدمة ابن خلدون من أهم كتب التراث العربى القديم. وهو من أهم مراجع علم الاجتماع في العالم كله. ولذلك لم تكتف اليابان بأن يطلع عليه المتخصصون في لغات أخرى – إنجليزية وفرنسية – ولا إلى إشارات المؤلفين العالميين إليه. ولكنها كلفت أحد أبنائها بالقيام بهذا الجهد سنوات طويلة، حتى يوجد هذا الكتاب كاملاً، في لغة اليابان، متاحاً لكل شهاب أو دارس يابانى، في علم الاجتماع!

وقتها، كانت اليابان خارجة من كبوتها وهزيمتها في الحرب العالمية الثانية. لم تكن قد هجمت على العالم كله بعد بسياراتها وترنيزستوراتها وتلفزيوناتها وكل صناعاتها التى تذهل العالم وتزعزع أغنى الدول الصناعية الأخرى.

والبعض يظن – في سطحية – أن اليابان عكفت على اتقان هذه الصناعات وحدها!

كلا! فنفس الجهد الذى كانت تبذله اليابان في مجال البحث العلمى والانتاج الصناعى كانت تبذله – بالتوازى – في مجالات البحث الأخرى كالعلوم الانسانية.. وترجم مقدمة ابن خلدون من العربية رأساً إلى اليابانية.

عرفت اليابان قيمة الكلمة والورقة كما عرفت قيمة الجهاز الالكترونى الصغير!

وبغير هذا ما كانت اليابان لتحرز ما أحرزته من تقدم مذهل!

ففى حياة كل الأمم، لم يحدث أبدا أن تم التقدم فى مجال واحد دون مجال. المجتمع أو الشعب إما أن يتقدم فى كافة المجالات، لأنها تكمل بعضها، وإما أن لا يتقدم!

والتقدم غير القوة المادية العابرة!



وقد اخترت ثلاثة تحديات داخلية، أو ثلاثة أشياء علينا أن نحققها فى بلادنا أولا، ونقيم عليها حياتنا، ونجاهد فيها أنفسنا..

أولا: الديمقراطية وحرية الرأى، وأمرهما واضح.

ثانيا: العقلانية، وليس ذلك معناه إلغاء العاطفة. فالعاطفة فى حياة الشعوب أمر أساسى. حب الوطن عاطفة. وحب العدل عاطفة. إنما علينا أن نقرن التأثير بالعاطفة مع درجة كافية من العقلانية، فيكون فكرنا وتصرفاتنا وسياساتنا كلها قائمة على العقل والقلب معا.

ثالثا: الشرعية..

وقد تكون «الشرعية» هى أكثر «الشروط» حاجة إلى الإيضاح والتفسير. ذلك أنها تختلط، من الوهلة الأولى، «بالقانونية»، أى بالجانب القانونى، والشكلى، للشرعية.. فى حين أنها فى مجال فلسفة السياسة والحكم أوسع من ذلك وأعمق فى معناها ومغزاها..

المفكر السياسى «ماكس ويبر» يقول: «بدون الشرعية، فإن أى حكم، أو نظام، يصعب عليه أن يملك القدرة الضرورية على «إدارة الصراع» بالدرجة اللازمة لأى حكم مستقر لفترة طويلة».

وهذا صحيح. فالحكم في محاولته امتلاك عنان الأمور، والقدرة على مواجهة المشاكل والتحديات، تختلف قدرته وكفأته اختلافا كبيرا.. بين حالة يكون فيها الناس معه، وحالة يكون فيها الناس ضده. أو ليسوا معه. سواء كانوا ضده بالاعتراض والرفض والمقاومة. أو بالسلبية، والاهمال وعدم التفاعل معه.

وأى حكم، قد يتمكن من تحقيق «استمرار وضع ما» عن طريق القوة، أو العادة.. ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل قلقة، مصدر ضعف للسلطة وللوطن معا «إلى أن يقتنع المحكوم بجدارة الحاكم، وأحقية في أن يحكم ويدير له أموره عنه».

فاقتناع الشعب «بأحقية السلطة وجدارتها»، هذا الاقتناع هو جوهر الشرعية ومغزاها. لا تغنى عنه كل أشكال السطوة والرغبة والنفوذ. حتى ولو أحاطت نفسها بعشرات الدساتير والقوانين!

ويقول دافيد ايترن في هذا المعنى ذاته «.. قد يقبل المواطن بسلطة الحكم عليه لألف سبب وسبب. ولكن الشرعية هي أن يجد المحكوم أن من المقبول عنده، والمناسب له، أن يطيع متطلبات النظام السياسى القائم، إذ يجد أنها تتسق مع قيمه ومبادئه وأخلاقياته وأمانيه. ذلك ليس لمنفعة شخصية مباشرة له، ولكن بمعنى المنفعة العامة وعلى المدى الطويل».

والشرعية بهذا المعنى أوسع من التأييد أو المعارضة. فقد يكون هناك من يعارض السلطة. وقد يتذمر الناس من بعض قراراتها وسياساتها. ولكن هذه أمور طبيعية بل وحتمية. لا تنفى الشرعية، طالما شعر المواطنون أن السلطة في توجهها العام، سلطة وطنية، منطقية مع

التاريخ الوطنى، ومخلصة فى المجموع لارادة الشعب، وللقيم العامة التى تربط أبناء الوطن الواحد بعضهم ببعض.

ولتوضيح هذا المعنى نعطى نموذجاً من بلد عربى يصعب فيه قيام الشرعية إلى حد بعيد، كصورة «متطرفة» نفهم منها «روح الشرعية». وهذا النموذج هو لبنان.

فى لبنان، يصعب الحديث عن «قيم واحدة وإرادة وطنية عامة.. الخ» تجمع بين كل أبناء شعب لبنان. فلبنان قام على توازن طائفى. وتكرس هذا التوازن الطائفى فى مصالح اقتصادية وانتماءات سياسية شتى. وزادت هذه الأوضاع تعمقا بعد الاستقلال بدلا من أن تزول. فالمارونى والسنى والشيعى والدرزى، لا يمكن الكلام عن «تصور عام واحد لمصلحة الوطن» الذى يضمهم جميعا. ولا يمكن الكلام عن «مستقبل واحد» يتصورونه ويطمحون إليه كلهم على السواء. وتعمق ذلك بأن التعليم الوطنى لم يوجد بل وجد أكثر من تعليم. كل تعليم يعلم أبناءه صورة مختلفة عن الوطن. والمؤسسات الوطنية كالجيش والبوليس والقضاء لم يتم الاحساس بأنها للوطن كله، إنما يحسبها كل فريق له أو ضده حسب وضعه وانتمائه.

كانت الشرعية الوحيدة فى لبنان قائمة على أساس ضعيف وهو: إتفاق الأطراف على نصيب كل طرف من «الكيان الواحد». فظل الكيان كيانا ولم يتحول إلى وطن. وحين اختلف الأطراف على الأنصبة فى هذا الكيان، وحين وقعت فى المنطقة أحداث وضعت هذه الأطراف أمام اختيارات حاسمة بالنسبة لهويتها وانتمائها، فاختلفت هذه الاختيارات.. حين وقع هذا إنهارت «الشرعية» وقامت الحرب الأهلية..

لبنان صورة متطرفة، ولكن قيمتها أنها تشرح لنا فكرة الشرعية الأساسية..

الصورة الأخرى الواضحة التي تبين لنا أن «السلطة الشرعية» غير مجرد الوجود في الحكم هي صورة الاحتلال الأجنبي.

قد تحتل دولة من الدول دولة أخرى. وقد يستمر الاحتلال مائة أو مئات من السنين. ولكن مجرد الوجود في السلطة هذا الزمن لا يجعلها شرعية، لأنه لا يتصور أن يكون هناك احتلال ما يتفق مع رغبة الناس، ويعبر عن إرادتهم ويترجم أمانيهم ولو بأضعف المعانى.

إنه وجود بحكم القوة لا بحكم الرضا. إنه «استمرار» لا «استقرار». إنه اغتصاب للسلطة وليس تفويضا بها.

وإذا كانت صورة الاحتلال الأجنبي أيضا صورة متطرفة، إلا أنها كذلك تشرح لنا جانبا آخر من جوانب فكرة الشرعية.

وحتى الثورة، إذا كانت ثورة حقا. فإن هدفها النهائى يفترض أن يكون «إقامة شرعية جديدة». بل إن ما يفرق بين الثورة وبين الانقلاب هو هذا المعيار الهام. الثورة والانقلاب كلاهما يغتصب السلطة. ولكن الثورة تغير المجتمع وتقيم شرعية جديدة يعيش بها مرحلة استقرار جديدة، أما الانقلاب فهو يغتصب السلطة فحسب. وإذا بقى فيبقى باغتصاب السلطة المستمر، وليس بمنطق شرعى جديد مستقر.

وقد يحيط مغتصب السلطة نفسه بكل «أشكال» الشرعية. فأى حكم قد يتمكن عن طريق القوة من إقامة برلمان مثلا وإجراء انتخابات، وإصدار قوانين وتشريعات. ولكنها تبقى كلها ستائر تخفى عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية. فالقانون ليس أى ورقة عليها توقيع الحاكم.

القوانين أحكام خارجة من ضمير الناس معبرة عنهم في الأساس. وما عدا ذلك فهو قوانين لا تساوى في ميزان الشرعية أكثر من ثمن الحبر الذى كتبت به.

وترى الناس في مثل هذا الوضع تتلقى هذه القوانين بالاذعان. وقد تنفذها عن خوف. أو قد لا تقاومها عن سلبية وعدم اقتناع. ولكنها ليست بالنسبة لهم «مشروعة». وليست لها في ضمائرهم أية مرتكزات.

وكما قلنا إن الشرعية غير «القانونية الشكلية». وغير مجرد القدرة على البقاء في السلطة. وإنما تختلف عن التأييد والمعارضة لقرارات السلطة. كذلك فإن الشرعية غير الوصف السياسى لنظام الحكم: ملكيا أو جمهوريا. موروثا أو جديدا، فالملكية والجمهورية وغيرهما من نظم الحكم، لا ترتبط بالضرورة بالشرعية. لأن الشرعية كما هو واضح مما سبق ذكره هى معيار مستمد من «نظرة الرعية إلى السلطة» وليست مستمدة من طريقة وجود السلطة أو الأسلوب الذى سلكته للوصول إلى الحكم. إنما هذه أشكال للسلطة وليست هى التى تحدد ما إذا كان موقع السلطة من الناس هو موقع «القوة» أو موقع «النفوذ». والسلطة، فى كل زمان ومكان، تحتاج إلى القوة لضبط حياة المجتمع. ولكنها لا تكون شرعية إذا كانت تعتمد على «القوة» فقط. إنما تكون «شرعية» إذا كان لدى الناس «قوة النفوذ» لا «نفوذ القوة». فمن غير هذه الرابطة المعنوية بين السلطة والرعية.. لا تكون هناك شرعية!



وإذا كنا نسوق هذه الأحاديث النظرية كلها، فإن الغاية ليست الفرق . فى النظريات..

إنما الغاية إن نقول أولاً إن «الشرعية» بهذا المعنى عنصر حاسم في قوة الشعوب والدول أو ضعفها. وأن نقول ثانياً إن الشرعية بهذا المعنى غائبة أو ضعيفة في كثير من أقطارنا العربية. وأن نقول ثالثاً إن الأحداث إذا كانت قد علمتنا أهمية الديمقراطية والعقلانية فقد أن لنا أن ندرك الأهمية الكبرى للشرعية.. لأن الشرعية في النهاية هي الانسجام بين الحاكم والمحكوم. وبغير هذا الانسجام الداخلي لن ترقى لنا حياة في داخل بلادنا، ولن يقوى لنا عود في خارج بلادنا، ولن يكون في سياساتنا وممارساتنا أي انسجام.

ولكن السؤال الذي لا بد أن يطرحه القارئ هو: إذن، كيف نتعرف على وجود هذه الشرعية من عدم وجودها.. وقد قلنا إنها غير «القانونية». وغير «السطوة» وغير الأشكال الدستورية؟

وهو سؤال وجيه..

وقد تكون الإجابة عنه غاية في السهولة والبساطة.. وقد تكون غاية في الصعوبة والتعقيد!

يمكن أن تكون الإجابة غاية في السهولة، إذا قلنا: لنترك كل هذه الحذلقات جانباً. ولنلجأ فقط إلى حس الناس البسيط وفطرتهم السليمة. ما هو شعورهم العام لدى الحكم القائم لديهم؟.. هل يشعرون أنه يمثلهم، يناسبهم، ينتمي إليهم؟ إذن فالحكم شرعي (مرة أخرى، بصرف النظر عن الموافقة أو المعارضة لبعض قرارات السلطة، فهذا أمر عادي) وهل يشعرون بغربة مع نظام حكمهم، بعزلة عنه، بانقطاع الصلة بينهم وبينه؟ إذن فهو حكم لا شرعية له!

وهذه حالة لا تخفى على أي مراقب عادي.

أما إذا حاولنا بعض الاجابات الصعبة، فإننا نحاولها أساسا لكي نتعرف على المزيد من ملامح الشرعية أو عدم الشرعية، ومن الصفات السلبية التي يشعر بها الحاكم والمحكوم معا..

فنحن نلاحظ أننا لو أخذنا مثلا سياسة أى بلد متقدم، له نظم سياسية مستقرة، فرنسا مثلا أو إيطاليا أو أى بلد من هذا النوع، سنجد أن البلد قد تتغير أحزابه الحاكمة، وقد تتبدل وزاراته ولكن سياساته العامة ثابتة. عناصرها واضحة. توجهاتها معروفة مقدما. ردود فعله يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير.

لكننا أحيانا ما نجد بلادا عربية سياساتها عرضة للتقلبات الحادة حتى دون تغير الوجوه والأشخاص. أهدافها مغلفة بالغموض، دوافعها إما الخوف من المجهول وإما أن هذه الدوافع لا توجد معلومات كافية عنها لدى المواطنين. والاعتبارات الشخصية لها قدر كبير في توجيه هذه السياسات.. بسبب المزاجية، واعتبارات المجاملة، والعلاقات الفردية بين الحكام، والنزعات العاطفية. وبالتالي فإننا نجد رد فعل الرأى العام إزاء هذا هو إما المقاومة، والحالة هنا تكون واضحة، وإما السلبية المطلقة، وعدم توافق «المصداقية» وعدم القدرة لدى الناس بالتنبؤ عن اتجاهات السلطة، وعدم استبعاد أن تتقلب هذه الاتجاهات فجأة بين يوم وليلة. وعدم توافق المبررات والأسباب والمعلومات الكافية لدى المواطن.

ونحن نجد أن معظم النظم العربية، باختلاف ظروفها التاريخية وأوصافها الدستورية والبيئات التي أفرزتها، تعد المواطن بنفس الأشياء تقريبا. وتتحدث بلهجة تكاد تكون واحدة في أمور كثيرة. ولكن هذا يتعارض مع الواقع المؤلم. فهناك مسافة واسعة بين المبادئ التي يبشر

بها وبين حقائق الممارسات السياسية والادارية. وتكون النتيجة احباطا عاما لدى المحكومين وعزوفهم عن الاهتمام الجدى أو المشاركة الفعلية أو مجرد التصديق. وأحيانا يكون هذا الاحباط عند الحكام أنفسهم إذا كانوا حسنى النية ولا يدركون العلة. وذلك بسبب إحساسهم - لعدم توافر المصادقية هذه - بعدم القدرة على تحقيق طموحاتهم، أو على العثور على صيغة لتنفيذ سياساتهم، واصطدامهم بعقبات كالسلبية أو الفساد، وإنتشار روح الانتفاخ أو عدم تفهم الناس لأهداف السلطة أو ربما عزوفهم عن مجرد محاولة تفهمها!

والمثل الذى يضره «مايكل هدرسون»، الأستاذ الأمريكى صاحب كتاب «البحث عن الشرعية فى العالم العربى»، هو حكاية محاولة القيام بإحصاء علمى لعدد السكان. فالتناس أحيانا يكذبون فى الأرقام التى يقدمونها حتى عن هذا الشئ البسيط. أحيانا لتخلفهم. وأحيانا لخوف موروث من كل ما هو أت من «السلطة» وشكهم فى نواياها ودوافعها.

ويعتقد نفس المؤلف «مايكل هدرسون» أن أكبر عقبة فى طريق الشرعية، هو عدم توافر المساواة بدرجة كافية. وهو لا يقضى بالمساواة كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة. فكما أننا نقصد الشرعية بمعناها الواسع الرحب فكذلك يرى أن الناقص هو توافر المساواة بمعنى واسع ورحب. فالتناس فى العصر الحديث ترى فى الاحساس بالمساواة شرطا أساسيا لتقبلها الاختيارى لوضع ما. والمساواة معناها العدالة، ومعناها روح الانصاف، ومعناها الجدية فى القوانين المنسجمة فى نظر المواطن مع المنطق وصدق الرغبة فى تنفيذ هذه القوانين، ومعناها المعقولية فى التصرفات، وعدم التحيز لمذهب أو عقيدة أو فئة.

وقد تكون صعوبة تحقيق «الشرعية» كامنة في الشعوب نفسها، قبل حكوماتها. هذا بوجه عام حال معظم الشعوب النامية. خصوصا تلك التي لم يتحقق لها من قبل «انسجام وطني» بدرجة كافية. فهناك شعوب تسهل مهمة إقامة «الشرعية» فيها، مثل مصر، حيث جعلتها ظروفها التاريخية شعبا مندمجا متكاملا له بوجه عام نفس القيم والمعايير والانتماءات.

فمصر ليست مقسمة إلى طوائف. لا يقال فيها إن هذا سني وذاك شيعي مثلا. وحتى الأقلية القبطية الكبيرة فيها مستوعبة في إطار الأغلبية، حيث لا يوجد مثلا إقليم يتركز فيه الأقباط إنما هم في كل قرية ومدينة جنبا إلى جنب مع المسلمين. وليس فيها تعصب لاقليم دون إقليم. فإذا تشكلت وزارة لا يسأل أحد إذا كان هذا الوزير من طنطا أو من أسيوط. يعكس الصورة المتطرفة الأخرى في لبنان حيث يراعى تمثيل الطوائف. وداخل الدين الواحد يراعى تمثيل السنة والشيعية، وتمثيل الموارنة والأرثوذكس مثلا. وداخل المذهب الواحد في الدين الواحد يراعى تمثيل سنة بيروت وسنة طرابلس. وشيعة الجنوب وشيعة بعلبك والهرمل، وهكذا.

وحين قاد هوارى يومدين مثلا حركة التعريب في الجزائر وألزم الكل باستخدام اللغة العربية بعد تاريخ معين، كان يقضى على أحد أسباب التفرقة ويضع أحد أسس إمكانية قيام الشرعية (بعكس لبنان كما ذكرنا حيث لم يوحد التعليم بعد الاستقلال).

وفي مرحلة الانتقال من الوطنية إلى القومية العربية، تعارضت — وما تزال — الولاءات. فالولاء للوطن المحلي أم للأمة؟ ويجب أن نعترف بهذه الحقيقة ونحن نتحدث عن القومية العربية. فتلك إحدى أهم

قضاياها التي يجب حلها، بتحقيق الانسجام بين الأهداف الوطنية والأهداف القومية وليس بترك الساحة لنمو التنافر بينهما.

ثم إننا عندما نتأمل أهم عنصر يؤثر في حياة الأمة العربية ويربط بينها، نجد أن هذا العنصر هو الاسلام بغير جدال..

ولكن لأننا شعوب نامية، ولأن نسبة الأمية في بلادنا فوق السبعين في المائة، ولأننا في مرحلة تحول وتطور سياسي واجتماعي وحضاري، نجد أننا حتى في نظرتنا إلى هذا العنصر الموحد لنا، مختلفون.. بعكس الغرب مثلاً حيث نجد أن نظرتهم إلى المسيحية واحدة. (بصرف النظر عن المذاهب والخلافات، وحتى ما بين المؤمن والملاحد من تباعد). أما نحن فإننا على العكس: فريق يركز في نظرتهم إلى الاسلام على السلطة والطاعة وعلى العقاب بوجه عام.

وفريق يركز في نظرتهم على العدالة والمساواة والشورى والتسامح..

ولا بد لنا من نظرة شاملة تضع كل عناصر الاسلام في إطار واحد متوازن ومتكامل. ونظرة شاملة إلى التراث والانتقاء منه والتمييز بين ما كان سبباً في تطور المجتمع الاسلامي وبين ما علق به في فترات اضمحلاله وتخلفه..

والشرعية حديث آخر طويل، وتشعبات أخرى كثيرة، تشمل أمور الحاكم وأمور المحكوم معا..

«معنى القانون» وحديث الذكريات.. والسنهوري.. وكلية الحقوق

احتفلت كلية الحقوق في جامعة القاهرة بمرور مائة سنة على انشائها.. فهي أقدم كلية من نوعها في العالم العربي والشرق الاوسط.

ولعل خريجها، من كل أبناء العالم العربي، وخريجى حقوق «الاستانة» أو القسطنطينية، أيام كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية المسيطرة على العالم العربى كله ماعدا مصر، هم الذين قادوا وشكلوا السياسة في كل العالم العربى خلال حقبة طويلة من الزمن.. ربما سادت حتى هزيمة حرب فلسطين الاولى سنة ١٩٤٨، إذ بدأ حكم «الحقوقيين» يتزعزع ويتراجع. بعد أن طغى السيف على القانون. وربما كانت هزيمة ١٩٤٨ ذاتها هى التى اقنعت العرب زمنا طويلا بعدم جدوى القانون أمام السيف مهما كانت القضية عادلة.

وأن «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة» كلمة جميلة أطلقها أشهر حاملى شهادات القانون، سعد زغلول، اهتزت بها أعواد المنابر زمنا.. ولم يهتز بها شيء آخر بعد!

وكم كنت حزينا، لأننى كنت بعيدا عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوى لها. ذلك أننى أحد خريجي تلك الكلية العتيقة، التى طبعت موجات الاثير على جدرانها عددا من أعظم الأصوات التى عرفتها مصر والعروبة. وإذا كنت لم اشتغل بالقانون إلا قليلا، إلا أن الاثر الذى تتركه كلية الحقوق فى نفس تلميذها لا ينمحي، إذا كان قد

دخلها عن حب وشغف، لا عن طريق تقليعة «مكاتب التنسيق» ثم إننى إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد حوالى خمس سنوات فقط، إلا إننى كثيراً ما اكتشف فجأة أننى مازلت اشتغل بالقانون من ناحية، ربما تركت ما نسميه «بالقانون الخاص» وهى القوانين المدنية والجنائية وغيرها، إلا إننى بقيت - ككاتب - على صلة دائمة بما نسميه «القانون العام»: أى الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولى والقانون الدستورى والقانون الإدارى.. أى القوانين التى تنظم حياة المجتمعات والشعوب والدول، وليس الحياة الخاصة للأفراد... كما هو الحال فى كل ما نسميه «القانون الخاص»...

ولكن الأهم من ذلك، إننى فعلاً اكتشف عادة إننى مازلت أشتغل بالقانون، لأننى دائماً أجد نفسى متلبساً بالتفكير فى أى موضوع بطريقة «قانونية». أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانونى إلى حد بعيد.

ذلك أن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة فى التفكير. تزود صاحبها بما يشبه «الترموستات» أو منظم درجة الحرارة، يقرأ الإنسان فى الآداب، ويطلق وراء الفنون، ويجوب آفاق الفلسفة.. وهذه أشياء ربما كانت هى جوهر الفكر، ولكن من درس القانون - فيما يخيل لى - يجب هذا كله وقد ربطه التفكير القانونى إلى أرض واقعية معينة. فهو ينظم تفكيره، ويضع فى صدره ميزاناً دائماً يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور. ويخلصه من تيارات «الفن للفن» و «الفكر للفكر» فى حين يربطه بأن الفن للحياة. والفكر للحياة. والسياسة للحياة. وكل شئ بدوّه ومنتهاه الحياة. والناس. وأن الرؤية المتأثرة بالقانون هى الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق. أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة. ولست هنا أفاضل بين شيئين. فحياتنا بلا أحلام لا تساوى شيئاً.

ويغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم على الأحلام هي بالونات ملونة تطير في الهواء وتضيع. ليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه.

ثم...

هل هناك قضية دارت حولها حياة المجتمعات الانسانية منذ نشأت، ولا تزال، أكثر من قضية «الحق والواجب؟» وهي قضية القانون. أليس القانون هو الوسيلة البشرية لتنظيم الحياة.. ابتداء من تنظيم حركة المرور في الشوارع إلى علاقات الدول ببعضها البعض في البر والبحر والفضاء؟

كل إنسان يتفتح وعيه لأول مرة على شيء مختلف. هكذا الحياة. لو كانت زهورها بلون واحد وأشجارها بطول واحد لفقدت جمالها. بل لصارت جحيما. ونفس الحال في البشر. لو كانوا على شاكلة واحدة ونمط واحد لفقدت الحياة مذاقها بل وربما مغزاها. والاخوة في البيت الواحد كثيرا ما يتباينون رغم كل عوامل الوراثة الواحدة والتربية الواحدة...

بالنسبة لى.. لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمرا استبد بى منذ البداية أكثر من تلك القضية: الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالي الأداة في كل هذا وهي القانون.

وكانت ترجمتها في سن المراهقة هي الشغف الهائل بحضور القضايا الكبرى. والاستماع إلى المرافعات الرنانة. وكنت إذا قرأت عن محاكمة سياسية كبرى حدثت منذ عشرات السنين، ذهبت إلى دار الكتب، وطلبت مجلدات صحف تلك الفترة لأقرأ القضايا والمرافعات ومناقشات المحكمة كاملة بالتفصيل. وكان كل تاريخ مصر الوطنى في الفترة السابقة في يد

المحاميين، وكانت المحاكم إحدى أهم ساحات الكفاح.

وكنت أرى نفسى وأنا صبى فى شتى الأدوار داخل تلك الحلبة الرائعة : قاعة المحكمة. أحيانا ذلك القاضى الجالس على عرشه، أو ذلك المحامى بصوته المدوى وأحيانا المتهم الواقف فى قفص الاتهام فى ثبات بوصفه بطلا وسبب تلك الدراما كلها !

واستقر رأيى على أن أكون قاضيا. فهذه الهيبة والرهبة. وهذه الدقة والمتابعة واليقظة. ثم أخطر وأصعب شئ : حين يخلو إلى نفسه، وقد سمع أقوى الحجج من الجانبين، وعشرات الشهود المتنساقضين، وكيف يمسك من وسط هذا كله بخيط الحقيقة، وتصدر من فمه الكلمة حاسمة ونهائية.

على أننى حين دخلت كلية الحقوق فعلا، دخلت فى الواقع الجامعة بأكملها. وتفتحت أمامى مع سنوات الشباب كل فروع المعرفة. وكنت أحضر محاضرات كلية الحقوق وكلية الآداب وأحيانا غيرهما. وتلك ميزة الجامعة. إنها تعطيك كل المفاتيح. هذا ما يفرقها عن المدرسة. وحين يقرأ المرء الأدب والفلسفة ومذاهب الفكر المتلاطمة يجد أن العثور على الحقيقة ليس سهلا. بل إنه يكاد يكون مستحيلا؟ هذه مجالات تعلمك أن لكل رأى ألف وجه، وأن كل موقف له ألف تفسير. وأن المذنب قانونيا قد يكون هو البريء فكريا أو اجتماعيا أو حتى فلسفيا، ووجدت أن مهنة القضاء صارت لا تناسبنى. إنها مهنة مستحيلة. أى عذاب وأرق وألم يكابده المرء حتى يقول «هذه هى الحقيقة»! مستحيل إنها ضد طبيعتى، عمل كل الموازنات وحساب كل الاعتبارات سوف يفضى بى إلى الشلل..

واتجه ذهني إلى ذلك المترافع البليغ. إنه يأخذ جانباً واحداً ويحاول اثباته. وهذا أمتع وأسهل وأفخم. حتى لو كان يدافع عن قاتل. فقد قرأت أيامها - فيما قرأت من كتب المحامين الكبار - كلمة لمحام إنجليزي كبير يقول «حين يقف المتهم في القفص، مجرداً من كل سلاح، محروماً من أي صديق. والعالم كله يشير إليه بأصبع الاتهام. هنا لا بد أن يقف إلى جانبه شخص. هذا الشخص هو المحامي. وفي هذا الموقف يكمن دوره المقدس!»

ولكني حين تخرجت من كلية الحقوق، ومن الجامعة كلها، لأنني مرة أخرى كنت أشعر أنني طالب بالجامعة كلها. استمع إلى عبد المنعم بدر يدرس القانون كما أستمع إلى يوسف مراد يدرس الفلسفة.. اكتشفت أن مهنة المحاماة هي آخر ما يناسبني! على الأقل ذلك النوع من المحاماة.

فليس من طبيعتي الانطوائية أن أواجه الجمهور وأتحدث كأنني على خشبة مسرح! ثم إنني كنت أقل من السن القانونية لممارسة المحاماة! ثم إن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشاراً من أعظم كلمة تقال في قاعات المحاكم!

وكان حظي من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لي: وكيل نيابة. مهمتي أن أضيق الخناق على المتهم. وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخرى جريمة بالمعنى القانوني، التي قد يكون في نفس ألف سبب ضد اعتبارها جريمة.

وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون بشكله المباشر، إلى زورق الصحافة والكتابة.. والبحث عن الحق والسوابج والقانون بمعانيها الأوسع.

ويعد..

فقد بدأت هذا الحديث وفي ذهني أن يكون حديث ذكريات عن أساتذة عظام حتى وإن خالفتهم في الرأي.. ولكنني سرت وراء فكرة القانون. ربما لأنها ناقصة في حياتنا. أو لأنها غير مفهومة على وجهها الحقيقي. ولكنني قبل أن أستطرد وراء فكرة القانون أستأذن في رواية الذكرى القانونية الوحيدة بعد تفرغى للصحافة...

كان المرحوم عبد الرزاق السنهوري باشا أكبر عقل قانوني أنتجه العالم العربي في هذا القرن بغير شك. ولم ألحق به تلميذا في كلية الحقوق. وإن كانت كتبه ظلت هي الأساس في كل مجال كتب فيه، وإذا كانت شهرته في القانون عالمية، فإنني كنت أراه من أفصح من كتبوا باللغة العربية. فكانت كتاباته القانونية من أرقى الكتابات الأدبية في تقديري.

ولم أكن - على البعد طبعاً - من المعجبين بدوره في الحياة العامة سواء في آرائه في التعليم كوكيل لوزارة المعارف، أو لتعاطفه مع أحزاب الأقلية ضد حزب الوفد.

فلما تأسس مجلس الدولة لأول مرة، وكان أول رئيس له، قبل ثورة ٢٢ يوليو ٥٢ بسنتين تقريباً، صار بطلا قومياً لدى كل فئات الشعب في مصر. كانت المعركة السياسية علي أشدها قبل الثورة، وكانت معظم المواجهات السياسية تنتهي إلى مجلس الدولة، وكان يصدر أحكاماً قضائية بلغت القمة في شجاعتها، ونزاهتها، ودقتها في مراعاة القانون، وعمقها في تطبيق «روح القانون»، وهو الأصعب والأهم. كانت رئاسة مجلس الدولة إحدى التحولات الكبرى في حياة مصر قبل الثورة.

وبعد الثورة، اقترب منه منصب أول رئيس لجمهورية مصر اقترابا شديدا. ولكن تقلبات الثورة في أيامها الأولى عصفت به. وانتهى معزولا، معتزلا جالسا في بيته، غير مسموح حتى بذكر اسمه في صحيفة.

وكنت كاتباً صحفياً مبتدئاً. وذات يوم اتصل بي المستشار المرحوم زكى بك حسين وكان صديقاً لأبى. وقال لى إنه جاء ذكرى في حديث مع السنهورى، وإنه أبدى إعجاباً بما أكتبه كاسم جديد. وإنه يحب أن يرانى. وكان الرجل وقد انسحبت عنه الأضواء لا يزور ولا يزار.

ووجدت في ذلك تشريفاً عظيماً...

وذهبت لجلسة هادئة في بيته في مصر الجديدة، كان لها على وقع التنويم المغناطيسى. واتفقنا على أن أزوره عصر كل خميس. وقد واظبت على ذلك حتى سافر في مهمة حين استعانت به حكومة الكويت.

ذكرت هذه الواقعة، لأننى لم أر في حياتى رجلاً تجسدت فيه روح القانون مثل السنهورى. لست أتحدث هنا عن علمه ومؤلفاته وأثاره. ولا حتى عن الحوار معه حين يكون حول القضايا الجديدة. ولكن حتى حين يكون الحديث حول أبسط الأشياء اليومية، يشعر المرء أن هذا الرجل قد «تشرب» روح القانون، حتى عقله لا يتحدث ويعمل في الصغيرة والكبيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع. كان قد ترك الدنيا والسياسة وعواطفها وانفعالاتها وصار عقلاً خالصاً وضميراً خالصاً. أى حكاية يأتى ذكرها، لا تلبث إذا علق عليها أن تجد لها مكانها وكانت كومة من الأشياء وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية في مكانها بسحر ساحر.

وكان رحمه الله يحثنى وقتها على ترك الصحافة التى لم أبدأها إلا من قريب، بعد أن عرف منى أننى سجلت رسالة دكتوراه في السوربون

في باريس، عن مرحلة من تاريخ مصر السياسي، وكان ميله الغريزي إلى أن بحثاً طويلاً ممتعاً هو أعظم شيء، ولكن التيار جرفني إلى مجرى الصحافة بغير رجعة..

وما أقل ما نختار ما نفعله في هذه الحياة...

ولكن.. ماذا عن القانون وعن روح القانون؟

كنا نظن في بدء دراسة القانون أنه نصوص. وأن الدنيا تتغير بتغيير النصوص. العدل يسن بقانون، الظلم يزول بقانون.. الخطأ يحدد بقانون. والصواب يحدد بقانون. كلا...

علمتنا الأيام، وعلمنا الأساتذة الكبار، أن القانون شيء غير هذا، شيء أعمق وأبعد من هذا بكثير.

القانون الجدير بهذا الاسم هو المعبر حقاً عن روح المجتمع، الصاعد من أعماقه. تماماً كالتعبير الفني حين يكون صادقاً...

بدليل أن هناك مجتمعا فيه قانون غير مكتوب «عادة» أو تقليد، يعيش قرونا محل احترام الناس ومراعاتهم.

في حين أن هناك قانونا يحمل كل أنواع الاختتام. ختم حاكم أو ختم برلمان. ولكنه لا يحظى بأي اعتراف أو احترام من الناس، حتى من يوم صدوره.

ليست كل ورقة تحمل سلطة تشريعية أو تنفيذية، قانونا بهذا المعنى.

قانون بمعنى الفرض، نعم.

قانون بمعنى قرار السلطة، نعم.

ولكنه ليس قانونا بمعنى تعبيره عن روح المجتمع، واتساعه لرغباته وأمنيته، وتجاوبه مع أفئدة الناس في هذا المجتمع.

لذلك نرى أحيانا قوانين تهطل كالмطر، لكن سرعان ما تجفها الشمس، وتمسحها الرياح...

ونرى قناعات الناس في تصرفاتهم، تسير في مسالك أخرى تماما... ونرى قوانين تنقل من الكتب. أو تؤخذ من بلاد شتى متنافرة، كمن ينتقى أصنافا من دكان العطار. ولكنها تبقى غريبة.

هل تزرع شجرة بلاستيك مصطنعة، وتثمر؟
مستحيل.

هل تزرع شجرة حقيقية في أي مكان؟ إن كل نبتة لها بيئة وطقس يحكم عليها بالعقم أو بالاثمار. كذلك القانون...

ومنذ فترة، انشغلت انجلترا بقصة طريفة.

سيدة تملك فندقا صغيرا في انجلترا على شاطئ البحر، وذات يوم جاءها الصياد الذي يبيع لها السمك عادة، يحمل خبرا مثيرا: إنه اصطاد سمكة من نوع «السترجون» وهو السمك الذي ينتج الكافيار. ذلك أن هذا السمك لا يوجد في بحار انجلترا عادة. اللهم إلا نادرا جدا وكأنها سمكة ضلت طريقها. ولا يحدث هذا إلا مرة كل عدة سنوات.

واشتريت السيدة السمكة، وأعلنت عن وليمة عشاء لنزلاء الفندق والبارزين في القرية الصغيرة. وإذا برجل عجوز من المدعوين يقول لها

إن هناك قانونا منذ القرن السادس عشر يقضى بأن أى سمكة من هذا النوع يتم صيدها تكون ملكا لملك إنجلترا.

وأسقط في يد السيدة. واتصلت تليفونيا بموظف في قصر ملكة إنجلترا تسأله، فقال لها نعم إن هناك قانونا موجودا بهذا المعنى. وما يزال ساريا. ولكنه لا يظن أن الملكة ستطالب بالسمكة.

ولكن السيدة ألغت العشاء. وحملت السمكة في أحسن وعاء لديها وركبت القطار إلى لندن. وهناك توجهت إلى قصر بكنجهام حيث أصرت على تسليم السمكة للملكة. وطاردها الصحف حين علمت بالقصة، فقالت إنها سعيدة جدا.

قانون سخيف طبعا.

وحين صدر كان صورة لظلم القرون الوسطى وعصر امتيازات النبلاء..

ولكن مع الزمن، وتطور النظام في إنجلترا، وإحساس تلك السيدة بأن قوانين بلدها بوجه عام تعبر عنها، وتتسع لمشاعرها، وجدت سعادة في تنفيذ قانون ميت، حتى لو سخرت منها الصحف والناس.

لم تكن بذلك تنفذ قانونا أو تخشى عقابا. كانت تعبر عن ذاتها من خلال بناء عام تشعر أنه يعبر عنها. وهذا هو القانون.

المثقفون والسلطة..

■ لاشك أن الكثيرين منا، ممن يتاح لهم السفر والتنقل بين البلاد العربية، أو بين غيرها من بلاد العالم الواسع، قد لاحظوا كثرة عدد المثقفين والناخبين منهم بالذات، وذوى التخصصات المختلفة من سياسية واقتصادية وأدبية وعلمية.. الذين ليسوا في بلادهم، ولا في أماكنهم الطبيعية.

ولست أشير بذلك إلى موضوع «هجرة العقول» بمعناه الشائع المعروف. وإن كان لما أريد أن أتحدث عنه علاقة بهذا الموضوع، إلا أنني أريد أن أتحدث عنه من زاوية معينة، تخرج بنا قليلا أو كثيرا عن مشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع.

فمشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع، مشكلة عالمية، لا يختلف فيها عربى عن غير عربى. وحتى البلاد المتقدمة تواجهها وتعانى منها، إزاء بلاد أكثر تقدما. فإذا أخذنا أبرز بلاد المهجر مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو كندا.. فسنجد فيها عقولا مهاجرة من البلاد العربية، ومن دول البحر الأبيض ومن إنجلترا وفرنسا. ومن الهند وأفريقيا. المشكلة تنحصر ببساطة في أن بعض المثقفين - خصوصا في ثقافات يشدد عليها الطلب أحيانا كالطب والهندسة وبعض العلوم - يفضلون الهجرة إلى بلاد يجدون فيها شروطا أفضل أو مستوى من المعيشة أعلى، أو فرصة أكبر للتقدم العلمى، وتحقيق الذات، ربما لا تكون متوافرة في بلادهم.

وهى مشكلة ضخمة وعويصة، وليس لها حل سهل. ومن المؤسف أنها تشكل جانبا من أكبر جوانب أزمة العالم الثالث وعقبة من عقبات تقدمه. فالخسارة هنا مادية وبشرية. لأن البلد حين يفقد واحدا من هذه النوعية من أبنائه، يخسر مرتين. يخسر مرة بالمعنى المالى البحت، لأن البلد يكون قد أنفق على هذا الابن مبالغ كبيرة من المال من أجل تعليمه وتكوينه فى الداخل ثم فى الخارج. ويخسر مرة أخرى بمعنى أكبر من المعنى المالى، وهو أن خيرة شبابيه لا يعودون ليساعدوا فى المهمة الصعبة، مهمة التنوير ورفع مستوى سائر الشعب، كالحديقة التى كلما أينعت فيها زهرة، جاء من يقطعها.

ومكسب البلاد الأكثر تقدما فى هذا المجال هائل. فهى تأخذ الخبراء جاهزين، بعد أن أتموا ثقافتهم ونضجهم وتلقيهم، ويدأوا فى مرحلة العطاء.

والغريب أن كثيرا من الدول العربية لا تدرك قيمة هذا «المهاجر» المؤقت إذا جاز التعبير، حتى ولو كان عربيا، وحتى لو كانت فى أشد الحاجة إلى خبرته...

أذكر أننى اشتركت مرة فى مناقشة تليفزيونية حادة، فى قطر عربى شاسع الأرجاء قليل السكان، إذ قال مناظرى: إن الخبير العربى يطلب أجرا أعلى من الخبير المحلى.

وقلت له متعجبا: لماذا إذا كان المهندس - مثلا - إيطاليا أو فرنسيا أغدقنا عليه.. وإذا كان نظيره عربيا قترنا عليه.. مادام الاثنان متكافئين؟.. ثم هل تظن أن كندا مثلا أغبى منكم؟ إن كندا لا تفتح أبوابها طبعا لكل وافد. ولكن إذا كان هذا الوافد خبيرا فى مجال يهمها،

فإنها تعتبره إضافة إلى رأسمالها وإلى إنتاجيتها إزاء ضخامة مواردها واتساع رقعتها وندرة سكانها.. إنها تجرى وراءه.. وتقدم له الاغراءات... وتتولاه منذ وصوله بالمعونات المالية والاجتماعية حتى يستقر به المقام في عمل إنتاجي مناسب له. ذلك أنها تعلم أن هذا النوع - في أى مجال - يضيف إلى ثروة البلاد القومية أضعاف ما يأخذ من مرتب.

وما دمنّا قد تعرضنا لقضية العقول المهاجرة، فلا بد من القول إنه إذا كان اللوم أحياناً يقع على البلد الأم لسوء تصرفها مع النخبة من أبنائها، فإن اللوم في أحيان أخرى يقع على عاتق المهاجر نفسه، حين يتصرف في أنانية شديدة، ودون مبرر، لمجرد الهرب من مهمة صعبة تنتظره في بلاده الساعية إلى التقدم، لئلا بالفرار إلى بلد قد تقدم فعلاً، ولم يعد عليه هناك إلا المشاركة في جنى الثمرات.

ولكن هجرة العقول، مهما بلغت الأرقام، تظل قضية جزئية إلى جانب القضية الكلية التي علينا أن نتأملها..

فالذى لاشك فيه، أن معظم المثقفين، من أهل الفكر والرأى والعلم والخبرة، يبقون في بلادهم. أو يعودون إليها.

على أن وجودهم في بلادهم، لا يعنى دائماً الاستفادة منهم. وبالتالي فالصورة العامة لهم في معظم بلادنا العربية، أما السخط والكبت والشعور بالاحباط، وأما الانحراف - بالعدوى - مع الأمراض الاجتماعية الشائعة في بلادهم، فهم لا يستفيدون من ثقافتهم وقيمهم الحياتية ولا يفيدون، وإما أن يلجأوا إلى نوع آخر من الهجرة... هو الهجرة الداخلية. والانغلاق على أنفسهم. فهم موجودون في بلادهم وغير

موجودين. موجودون بأجسامهم ويعملهم الروتينى اليومى ومشاكل حياتهم اليومية الصغيرة، ولكنهم غير موجودين بعقولهم ولا بقدراتهم وطاقاتهم الحقيقية. متفرجون سلبيون. يرون الأحداث تجرى أمامهم، وربما رأوا بلادهم كلها تتعثر أمامهم، ولكنهم عاجزون عن المحاولة أو إبداء رأى، أو مشيكون بوجودهم عن الأمر كله، يعيشون في مجردات ومطلقات لا صلة لها بضجيج الحياة من حولهم...

ولا يجوز أن نفترض أن كل واحد منهم يجب أن يكون بطلا، مستعدا لمواجهة التشرد، أو دخول السجن!

وقد جرى العمل منذ زمن، على أن نلقى الكثير من مشاكلنا على ما يسمى بالبيروقراطية...

فالبيروقراطية، في هذا المجال، هي التى تقتل المواهب، وتعرض طريق الناجحين، ولا تقبل دخول العناصر المثقفة الواعية بمجتمعها داخل صفوفها، أو لا تضعها في مكانها الصحيح.

ولا شك أن بعضا من هذا صحيح...

ولكن لا شك أيضا أننا نبالغ في الأمر كثيرا، وإن كثيرا من القادة والحكومات صاروا يجدون في هذه «البيروقراطية» شماعة يعلقون عليها كل المشاكل.... وكأن هذه البيروقراطية ليست جزءا منا، ولمسنا كلنا طرفا فيها، أو كأنها جسم غريب عن المجتمع....

وما هي البيروقراطية آخر الأمر؟

إنها أداة كبيرة أو صغيرة، من الموظفين في كل مجال، وفي شتى الدرجات، يمارسون عملهم طبقا لقواعد موضوعة لهم من قبل، ولا يجوز

لهم الخروج عنها، وإلا تعرضوا للمساءلة والعقاب...

لذلك فإننى أريد أن أصعد بالمسئولية عن هذه الأزمة في بلادنا العربية درجة أعلى من مستوى البيروقراطية.. أى إلى مستوى القيادة السياسية حيثما كانت، وكيفما كان لونها ومذهبها وطبيعة نشأتها...

فيما يتعلق بالبيروقراطية.. فلو كان فيها داء متراكم عبر زمن طويل.. فإنها مسئولية القيادة السياسية في كل مكان، أن تحسن اختيار القائمين بالعمل، وأن تراجع اللوائح والاجراءات التى تحكم عملهم، وتعمل على تبسيطها، وتجعلها مناسبة لكل مرفق من المرافق. وليس هذا بالتأكيد مسئولية موظف كبير أو صغير، أو أشبه بمسماز أو ترس أو عجلة في آلة كبيرة. لا تستطيع تعديل عمله، إنما يستطيع ذلك «المهندس» المشرف على هذه الآلة....

فإذا نحينا أيضا هذا العنصر الجانبى عن القضية، عنصر البيروقراطية، نصل إلى بيت القصيد من هذا الحديث، وهو: العلاقة بين المثقفين والسلطة في البلاد العربية بوجه عام...

فهى علاقة يحكمها الشك، وعدم الثقة، على الأقل... وأحيانا يحكمها التناقض والعداء...

وفى تقديرى أن هذه العلاقة «القلقة» تنطوى على خسارة كبيرة لكل بلد، فوق أنها تخلق «مناخا عاما» إن لم يكن هو المسئول تماما عن مشكلة «هجرة العقول»، فهو يتسبب على الأقل في جانب منها...

فما هو السبب يا ترى؟...

ليس المقصود بالتأكيد الوصول إلى حكومات أشبه بجمهورية أفلاطون التى يحكمها الفلاسفة...

فالحكم أو السلطة بمعناها القيادي والسياسي، أمور لها مواصفات لا تتوافر عادة للمفكر أو المثقف أو الفني. وأعظم فيلسوف قد يعجز بالتأكيد عن إدارة قرية صغيرة. وبالتالي فليس مطروحا أن يتبادل الطرفان مكانيهما...

إنما المطروح هو إقامة علاقة صحية بين الطرفين...

الطرف الذي لديه الأسباب والظروف والمواهب التي تجعله زعيما، أو قائدا، أو حاكما.. يحسن إتخاذ القرار، ولديه الحس السياسي والاجتماعي الذي يجعله قادرا على القيادة في مرحلة ما، في بلد ما... والطرف الذي لديه الأسباب والمواهب، لكي «يفكر» في الأمور التي تعرض للحاكم، ويتأملها بعيدا عن ملاحقة الأحداث لكل حاكم أو قائد. فهو عنصر مهم في إنارة الطريق، واستكشاف شتى جوانب المشكلة، والتفرغ للنظر إلى الأمور في مداها البعيد...

وقديما، كانت مهمة القيادة أو الحكم أبسط مما هي عليه الآن بكثير. كانت الدولة قليلة ومعزولة نسبيا. وكانت الأمور التي تتدخل فيها الدولة قليلة، قد لا تتعدى الدفاع عن البلد وصيانة الأمن وكفالة القانون فيه...

ولكن، مع التقدم الهائل والسريع في كافة مجالات الحياة، صارت الأمور المطروحة على الحاكم كثيرة ومتشعبة ومعقدة إلى آخر الحدود.

وأقصد بذلك الحاكم الفرد، والحاكم بالحزب، أو الحاكم بالبرلمان. فمجموع كل هذا هو ما أسميه «السلطة السياسية» في أي بلد من البلاد، مهما كان نظام الحكم السياسي والاجتماعي فيه.

هذه «السلطة السياسية» صار مستحيلا عليها أن تتخذ القرارات السليمة في كل المجالات، بسبب تشعبها وتعقدها، وحاجتها إلى

تخصصات كثيرة، وخلفيات متنوعة.

فإذا أخذنا دول المعسكر الشرقي، التي تقوم فلسفتها على دكتاتورية الطبقة العاملة، نجد أنها في تقاريرها الحزبية صارت تزعم وتهتم بأن تذكر أن عضوية الحزب صار فيها كذا في المائة خبراء إقتصاد سياسى، وكذا في المائة علماء... إلى آخره.

وإذا أخذنا النظم الديمقراطية في الغرب، نجد أن هناك قضية مثارة في إنجلترا منذ سنوات حول علاقة الفكر والخبرة بالسياسة: فهناك كتاب ونواب يثيرون قضية تضاؤل دور البرلمان الانجليزى، لأن كثيرا من الأمور العامة التي تعرض عليه معقدة لدرجة لا يستطيع النائب أن يحيط بها كلها تماما، في حين أن الوزير - ممثل السلطة التنفيذية - يجيء لمناقشة الموضوع المطروح مزودا بأراء عشرات الخبراء، وأحيانا مصحوبا بهم، الأمر الذى يجعل الغلبة في الاقناع غالبا للسلطة التنفيذية. فلم يعد للبرلمان ما يحكم فيه إلا العموميات فقط.

وقضية أخرى مثارة في إنجلترا - التي نتخذها نموذجا للديمقراطيات البرلمانية القديمة - خلاصتها أيضا أن رئيس الوزراء في مقره في البيت رقم ١٠ داوننج ستريت، صار يحيط نفسه بخبراء من أعلى المستويات من الجامعات أو من الحياة العامة، كالكتاب الصحفيين ومؤلفى الكتب وذوى الأفكار المتميزة، الأمر الذى جعل «مجلس الوزراء» في مجموعته يفقد الكثير من سلطته «لرئيس الوزراء» المزود بهؤلاء الخبراء، رغم أنه ليست لهم صفة تمثيلية سياسية، أى ليسوا منتخبين...

فإذا أخذنا نموذج ديمقراطية برلمانية حديثة، هي الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد أنها سبقت زميلاتها في حل هذه المشكلة، أو بمعنى أصح الاستفادة من العناصر المفكرة فيها...

فالنسبة للكونجرس الأمريكى، ونظرا لامكانيات أمريكا المالية الواسعة طبعاً، نجد أن النظام هناك يعطى كل عضو في الكونجرس ميزانية سنوية ضخمة، يكون بها جهازاً فنياً مساعداً له، هم في الغالب من الخبراء الشباب، يعدون له الدراسات والمواقف المختلفة، وهم عادة شباب طموحون، أذكىء، مهتمون بالقضايا العامة لبلادهم. ولذلك فكثيرون منهم يبدأون من ذلك المكان حياتهم السياسية وتدريبهم لمراكز أهم. مثل ليندون جونسون وروبرت كنيدى وغيرهما كثيرون.

وبالنسبة للرئيس الأمريكى نفسه، نجد أن كل رئيس، إلى جانب وزرائه، وكل الجهاز التنفيذي التابع له، يعتمد إلى الاستعانة بالكثيرين من عالم الفكر بوجه عام وحتى العالم الأكاديمي نفسه.

حكومة جون كنيدى كانوا يسمونها «حكومة هارفارد» لأن أغلب من أتى بهم من مستشارين ومساعدين كانوا من هارفارد. فسمعنا أسماء هارفارد اللامعة مثل ماك جورج بندى مستشاراً له للأمن القومي، والاقتصادي السياسى المشاغب كينيث جالبويث سفيراً في الهند، ليشير عليه بشأن قضية هامة هي محاولة فهم العالم الثالث بوجه عام، وكان هناك أيضاً كيسنجر، للمشورة غير المتفرعة، بسبب كتاب ألفه واشتهر به عن السياسة في ظل الردع النووي، ومويينهاين الذى أصبح ممثلاً لأمريكا في الأمم المتحدة، لمؤلفاته ودراساته عن قضايا اجتماعية أمريكية كثيرة...

وبعد كنيدى جاء جونسون ليحتفظ ببعض ويغير البعض الآخر، فوجدنا والت روستو الذى اشتهر بكتاب «مراحل النمو» الذى عارض به النظرة الماركسية في مراحل نمو البلاد المتخلفة، وشقيقه يوجين روستو أستاذ السياسة الدولية.

ثم جاء نيكسون، فوجدناه يجعل كيسنجر مستشاره للأمن القومي، ثم وزيراً للخارجية، ويستعين بكثيرين آخرين....

وكان البعض يندهش أحياناً من أن الرئيس الأمريكى يستعين بمستشارين لهم آراء تخالف رأيه وفلسفة حزبه. ولكن هذا بالضبط هو المقصود أحياناً. فحين يأتى الحاكم بمستشارين ومفكرين من نفس مدرسته وتفكيره، فكأنه يضع حوله مرأيا لا يرى فيها إلا نفسه، في حين أن المفروض أن توجد عناصر أخرى تثير الجدل والنقاش، ويوجد من خلالها فرصة التعرف على شتى الآراء والتيارات.

ومن أسباب مأساة نيكسون، أنه - في القضايا الداخلية - أحاط نفسه بأشباهه في الفكر والرأى والسلوك. فكان أن وقع في عزلة حادة عن الرأى العام على حقيقته، مما ورطه في قضية ووترجيت بتصرفات كلها من مصدر واحد ونوعية واحدة، حتى صار الانفصام بينه وبين الرأى العام كاملاً، إلى أن اضطر للاستقالة الشهيرة...

وليس معنى ذلك تحويل المفكرين إلى موظفين في الدولة. فهناك نظام اللجان المؤقتة، التى تتشكل من أهل الفكر والخبرة، لدراسة قضية معينة، ثم تنتهى مهمتهم بانتهاء مهمة اللجنة.

وإنجلترا فيها هذا الأسلوب. فحين أرادت الحكومات هناك أن تعيد النظر في نظام التعليم.. ومرة أخرى لدراسة مشكلة المواصلات... ومرة ثالثة لدراسة مستقبل صناعة الفحم كطاقة.. كانت تشكل لكل موضوع لجنة قومية... تتجاوز الأحزاب، وتتجاوز الأجهزة التنفيذية... ثم يصبح التقرير بعد ذلك ملكاً للدولة والبرلمان والرأى العام، يناقشه ويدرسه ويتخذ قراراً بشأنه.

وفي نفس الوقت انتشرت في أمريكا المعاهد العليا المتخصصة.. معاهد مستقلة. معهد لدراسات البحر الأبيض. معهد لدراسات الشرق الأوسط. معهد لدراسة الأسلحة النووية وأثرها على السياسات المختلفة.. وكثيرا ما يطلب الرئيس أو الكونجرس من هذه المعاهد المستقلة دراسة ما، حول قضية يدرسونها. فتكون بين أيديهم خلاصة أحسن الخبرات في البلد. وانتشر في كل معهد ما يسمونه باللغة الأمريكية - غير الانجليزية أحيانا! - بالـ Tank Think أسلوب آخر في توطيد العلاقة بين الفكر والحكم، بين العلم والعمل، بدأت تأخذ به دول متقدمة كثيرة.

وإذا كانت أمريكا قد سبقت أوروبا في هذا المجال، وساهم الفكر في حياتها بدور كبير... فإن معظم المؤلفين يرجعون ذلك إلى اختلاف الظروف التاريخية بين أوروبا بتاريخها القديم، وأمريكا التي بدأت من نقطة جديدة، متحررة من عبء التركة الأوروبية...

يصف الكاتب «البرت سالومون» تلك الظروف في أوروبا فيقول: «كان هناك ضغط الكنيسة العنيف على حرية الفكر في العصور الوسطى، ولما جاء عصر النهضة لم يأت بتغيير كبير في حياة أهل الثقافة والفكر. ذلك أن مشكلة طلب الرزق كانت ترغم الكثيرين من المثقفين البارزين على العمل في خدمة أمراء الاقطاع، الذين كانوا مستعدين لسرعاية الشعراء والمفكرين مقابل استسلامهم الفكري. وهكذا وجد المثقفون أنهم صاروا كالفلسفائيين أيام الاغريق، مضطرين لكي يعيشوا إلى الاعتماد على قدرتهم على العمل كمستشارين لأصحاب السلطة، على حساب نزاهتهم الفكرية، ثم ظهرت المطبعة، فكان هذا انقلابا في حياة المفكر، إذ صار للمفكر لأول مرة أن يتحدث إلى الناس من جهة، وأن

يتلقى بعض الموارد المالية من قرائه من جهة أخرى. إن الحلف الذى تم بين المؤلف وصاحب المطبعة فى القرن السادس عشر، إذا كان كلاهما يصدر عن قناعات اجتماعية وأخلاقية ودينية واحدة، جعل استقلال المفكر ممكنا. ثم لم يلبث النشر أن صار تجارة ومهنة مربحة. وصار أصحاب المطابع والناشرون يخضعون لعوامل اقتصادية السوق ودرجة إقبال الجمهور على أنواع معينة من الكتب. صار المثقف الذى ليس له دور خاص، تحت رحمة رجل الأعمال. كان فى مقدور المؤلف من الأغنياء مثل مونتاني ومونتسكيو أن يكون فيلسوفا. أما المؤلف العادى، فلم يكن يجد سبيلا إلى أى عمل عقلى جاد. بالعكس، لقد أصبحت مطالب القارئ غير المتعلم أعلى صوتا وأكثر إلحاحا، وخلقت بالتالى مؤلفى التسلية والجنس وقصص الرعب».

على أن أخطر ظاهرة ترتبت على هذه الظروف، هى عزلة المفكر تماما عن حياة المجتمع المحيط به وغرقه فى تأملات وأفكار مجردة، حتى كانت الثورة الفرنسية...

على العكس من ذلك نجد «ميرل كيترى» يحدثنا عن التجربة الأمريكية فيقول: «إن الظروف المبكرة للحياة الأمريكية ألغت التفرقة التقليدية بين «النظرية» و«الممارسة». منذ البداية، لم تتح الحياة الأمريكية ما يمكن أن يسمى «طبقة مثقفين مستقلة» كما حدث فى حضارات الصين والهند وأوروبا، كذلك لم تفرض ظروف نشأة أمريكا عليهم أى نوع من الوصاية. فكانت القاعدة تقضى على ذوى الاهتمامات الفكرية أن يكسبوا رزقهم بأنفسهم فى نفس الوقت. وذلك بممارسة الطب أو المحاماة، أو الانخراط فى سلك رجال الدين، أو إدارة زراعة أو تجارة بل وأحيانا الاشتغال بالحرف اليدوية.

وهذه الظروف ذاتها لم تدفع المثقفين إلى العمل والاختلاط بالحياة فقط، بل دفعت الرجال العاملين أيضا إلى تنمية اهتماماتهم الثقافية. هكذا كان وليم بيرد مثلا يستخدم في حياته اليومية كمالك كبير للأراضي، ليس فقط ثقافته القانونية، ولكن أيضا ثقافته في الزراعة والطبيعة وغيرها. حتى التاجر، كان على عكس زميله الأوروبي يحاول أن يعرف المزيد من أنواع المعرفة التي تفيد تجارته، كالملاحة، والفلك، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي، واللغات التي تتحدث بها الشعوب الأخرى».

وهكذا، حين بدأت حرب الاستقلال الأمريكية للانفصال عن إنجلترا، كان «الآباء المؤسسون» الذين اجتمعوا في وليامزبرج لوضع أسس الدولة الجديدة، كانوا جميعا من كبار المفكرين والعلماء في عصرهم في شتى الفروع من الفلسفة إلى القانون إلى العلوم التطبيقية... جيفرسون وجون آدمز وغيرهما وكان فيهم مديرو جامعات وأساتذة وخبراء بنسبة عالية جدا.

فلم يكن التحالف بين العلم والعمل جديدا على أمريكا بعد ذلك. بل إن هذا المبدأ كان هو روح عصر التنوير الأساسية، كما قال فرانكلين. وأعود بعد هذه الجولة إلى بلادنا العربية... إلى واقعنا...

إننا لا نجد المثقف عندنا يقاسى فقط تاريخيا - ما قاساه المثقف الأوروبي مما سبق ذكره، بل إنه يعاني من مرحلة انقطاع فكري تام، دام عدة قرون من الزمان، مع سيادة الاستبداد، خصوصا خلال الامبراطورية العثمانية الذي زاد على ثلاثة قرون...

وعندما بدأ هذا يتغير مع العصر الحديث، كانت مهنة الفكر والكتابة

فكرة محتقرة من الفئات المتميزة، في حين أن التعليم لم يكن متاحاً إلا لهؤلاء. في مصر كانت الأسرة تكاد تقبراً من ابنها إذا احتترف الادب أو كتب مقالا في الصحف. وكان المحامى يسمى في اللهجة العامية «السفيه» لأنه الذى يدافع بالحق أو بالباطل أمام القضاة.

وهذا يذكرنا بقصة «فولتير» مع أشهر مؤلف إنجليزى مسرحى في ذلك العصر وهو «كونجريف». فقد سمع فولتير أن كونجريف المؤلف العظيم جاء إلى فرنسا في رحلة، فأسرع فولتير إلى زيارته قائلاً له: إن شهرته ككاتب هى التى دفعتني إلى الحضور لتحيته. ولكن كونجريف إستاء من التحية، وقال لفولتير: إننى «جنتلمان» - أى من النبلاء - قبل أن أكون مؤلفاً، وكنت أظن أنك جئت تحيىنى لهذا السبب. فرد فولتير قائلاً: إنه ما كان ليسمى إلى لقائه لو كان مجرد «جنتلمان!». ولكن ذلك كان هناك، منذ قرون...

المهم أن المثقف في العالم العربى شب عن السطوق، واستطاع في حالات كثيرة التأثير في التفكير العام في بلاده ولكنه خرج لكى يواجه عددا هائلا من الضغوط لا حصر له، القديم منها والجديد...

شيوع الاستبداد السياسى والارهاب الفكرى في كثير من المراحل في كثير من البلاد العربية في تاريخها الحديث... انتشار الأمية انتشارا مخيفاً، وما زال قائماً، الذى يجعل دور العالم والمفكر بوجه عام مقتصرًا على التأثير أو مجرد الوصول إلى عدد قليل من الشعب، الذى يفكر له...

ديماجوجية بعض الزعامات التى تستخدم سحرها لدى الجماهير، في

إسكات الصوت المختلف وإرهابه فكريا، بضغط الأغلبية المنساقه لها
السلطة الرسمية.

طغيان وسائل الاعلام ذات الانتشار الساحق، من صحافة وإذاعة
وتلفزيون، وهى وسائل تحتاج إلى استهلاك واسع من جهة، وإلى تلبية
رغبات نسبة كبيرة من غير المتعلمين من جهة أخرى. صار ضجيجها
الترفيهي يغطى تماما على صوت العقل المفكر في القضايا الأساسية لاي
بلد، وهى محنة يعانى منها مفكرو العالم جميعا.

عدم وجود المؤسسات التى تنطوى على طابع البحث والتفكير
والدراسة فى شتى الفروع، والتى قد يجد المثقف والباحث فيها ملاذا
وملجأ ومجالا يفيد فيه...

الشك القديم الذى يميز العلاقة بين السلطة وبين المثقفين بهذا
المعنى.

وجانب من هذه المشكلة، يكمن فى اختلاف طبيعة كل من رجل العلم
ورجل العمل...

رجل العمل لابد أن يكون من طبيعته القدرة على الحسم. واتخاذ
القرار السريع، وبالتالي فهو شخص مؤمن بما يفعل، مصمم على تنفيذه،
لا يجوز أن يكون من طبيعته التردد، ولا وقت لديه للتأمل..

هذا، بينما رجل الفكر والعلم لابد أن يكون من طبيعته الشك والتأمل
وحاجته إلى وقت طويل للوصول إلى اقتناع ما، وإدراكه لمزايا عمل ما
وتخوفه فى نفس الوقت من آثاره الجانبية.

وإزاء هذا الاختلاف بين الطبيعتين.. تتعمق روح الشك بين

الاثنين... فيزدري صاحب المنصب حديث المفكرين والخبراء، ويعاديهم. وينطوي أصحاب الفكر والعلم على أنفسهم، أو يطلبون السلامة بالسكوت، ويصبحون معارضين... إيجابيين في أسلوب معارضتهم أو سلبيين، أو يفعلون ما فعله مثقفو القرون الوسطى مما سبق ذكره، «يشترون سلامتهم بالاستسلام الفكري لغير ما يؤمنون به ويعتقدون فيه».

ولذلك فإن أحدهما لا يصلح لأن يأخذ مكان الآخر، كما قلنا في صدر هذا الحديث.. إنما المطلوب أن تقوم بين الاثنين علاقة صحية سليمة. تفيد رجل العلم والفكر لأنه يدرك ويتعلم التعرف على المشاكل الحقيقية. وتفيد رجل العمل لأنها تزوده بكل ما بذله رجل العلم والفكر من جهد ودراسة ومعرفة.

تحاول أكثر من دولة - على سبيل المثال - إنشاء مجلس للتعليم، يضم أهل الفكر والخبرة في هذا المجال، وإن تعددت آراؤهم. ولكننا سرعان ما نجد الوزير المسئول عن التعليم - مثلاً - أي المكلف بالتنفيذ.. يستنكف من مشورة هؤلاء، ويرى في وجودهم وصاية عليه، لا مساعداً له، وسرعان ما يتجمد هذا المجلس، أو يموت دوره بالتدريج. ونفس الأمر في مختلف الاهتمامات.

هكذا نجد الكثرة من المثقفين العرب، خصوصاً أولئك الذين يريدون طرح قضايا العصر الحقيقية والمصرية، إما مهاجرين إلى أماكن نائية، وإما مهاجرين هجرة داخلية، وفي كلتا الحالتين نراهم هائمين على وجوههم، بضماير مثقلة وآمال محبطة، وتفوس جريحة. غير راضين عن أنفسهم أكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم. ولا يفيد البلد ما أنفقت عليهم وهيأت لهم، أي شيء.

أقول هذا الكلام، وأنا مدرك تماما أن هذه المشكلة جزء من درجة التقدم والنضج العام لأي مجتمع من المجتمعات...

وأقوله متوقعا ألا يجد الكثيرون أن القضية على هذا القدر من الأهمية. وهو اعتقاد غير صحيح...

إن مشكلة التقدم في كل البلاد النامية، لم يعد أحد في العالم يترجمها إلى درجة التقدم المادي وحده. والتقدم المادي وحده ليس تقدما راسخا، إنما قد يكون مظهريا سرعان ما تنهار أسسه، وتتأزم أموره إذا لم يصاحبه تقدم عام في كافة المجالات..

التقدم المادي لا بد معه — بل لا بد له — من تطوير وتنوير بالنسبة لمجموع الشعب، ولا بد لتطوير وتنوير مجموع الشعب من العناية بالعناصر المتميزة — قدرة — من أبنائه والمحافظة على المصابيح التي تضيء طريقه، والقوى التي ترعى قيمه وتقاليده وعقائده وأفكاره.

المسلمون متخلفون عن الاسلام حقوق الانسان المسلم هي نقطة البدء!

يدخل «الاسلام» القرن الخامس عشر للهجرة... «والمسلمون»
متخلفون عنه بما يقرب من عشرة قرون!

التخلف بأي معيار؟ ومتى بدأت دورة التخلف هذه؟...

ربما إختار البعض معيارا جغرافيا محضا، وهو توقف نمو الدائرة
الاسلامية جغرافيا.

وربما اختار البعض معيارا لبدء التخلف موعدا سياسيا مثل سقوط
الدولة الاموية، أو سقوط الأندلس، أو اجتياح التتار للشرق العربي
وتدمير بغداد ثم دمشق، أو خروج الخلافة من قريش إلى العثمانيين
على يد سليم الأول.

وربما اختار البعض معيارا لبدء التخلف.. إما بداية حركات الانشقاق
الاسلامى إلى مذاهب.. فيعودون إلى حرب على ومعاوية وظهور
الانقسام بين السنة والشيعة، وإما إلى بداية الاضطهاد الفكري مثل
محنة أحمد بن حنبل أيام المأمون. وإرغام العلماء والفقهاء، على اعتناق
تفسير رئيس الدولة لمسائل دينية وعقلية وفلسفية، بالسجن والتعذيب
والقتل.

ولكننى في حقيقة الامر لا أريد أن أكون متعسفا، ثم إنه في تفسير
التحولات التاريخية الكبرى، لا يمكن الوقوف عند حدث واحد، مهما

كانت خطورته. إنما الحدث الخطير الذى نعتبره «نقطة تحول» يكون في الواقع نتيجة مقدمات طويلة ربما لم ندركها إلا بهذا الحديث.

وبالتالى، فعندما أقول إن «الاسلام» يدخل القرن الخامس عشر و«المسلمون» متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون، إنما أحاول في الواقع أن أتخذ موقفا وسطا، معقولا، دون تشدد ودون تصديد حادث بالذات أو قرن بالذات..

إن ما أقصده - وهذا هو المعيار الأول الذى أرشحه هنا - بمعنى «التخلف».. لا أقصد به، المعنى الجغرافى ومساحة الدولة، أو العسكرى وقوة الدولة أو الاقتصادى ورخاء الدولة... إنما أقصد معنى حضاريا عاما يشمل هذه الأمور كلها، ويشمل أساسا ما هو أهم منها، وهو: مدى قرب المسلمين أو بعدهم عن جوهر القيم والمثل التى جاء دينهم يبشر بها، ويدعو إليها، ويمكن فى الأرض لها..

وبالتالى، وهذا هو المعيار الثانى، فإن تحديد بداية التخلف، فيه محاولة البحث عن الفترة الزمنية الواسعة التى بدأت فيها ظواهر التخلف - بهذا المعنى الشامل تتراكم وتتوالى...

إن الاسلام، وهذا إجماع كل المؤرخين على اختلاف أجناسهم - كان أسرع رسالة فى الانتشار على هذا النطاق الواسع. رغم أنه لم ينتشر فى فراغ ولا فى نقطة نائية من الأرض ولكنه انتشر مكتسحا فى طريقه حضارات وامبراطوريات شامخة قوية.

فى أقل من قرن ونصف، كان الاسلام قد شمل هذه المساحة الهائلة من العالم المعروف وقتذاك...

والأهم أنه لم يكن انتشار غزو عسكري فحسب، ولكن سرعة اعتناق الناس من كل الحضارات والأجناس لهذا الدين الجديد، هي التي أكدت أنه رسالة، وليس إمبراطورية.

وكل شيء حدث بسرعة...

ففى القرون الأربعة الأولى، مع التساهل الشديد، حدث كل شيء تقريبا...

تتابعت العصور الهامة.. من عصر الخلفاء الراشدين إلى الدولة الأموية، إلى الدولة العباسية في بغداد، إلى دول الأندلس القوية، إلى السامانية (سمرقند) والغزنوية (في أفغانستان) والحمدانية من الموصل إلى حلب، والطولونية والفاطمية في مصر.

وفي تلك القرون ذاتها عرفنا كل كبار القادة العسكريين الخالدين من خالد بن الوليد، إلى طارق بن زياد، إلى جوهر الصقلي، حتى صلاح الدين الأيوبي لم يتأخر عن القرن الخامس إلا قليلا.. وهذا بالطبع ليس حصرا ولكنه مجرد أمثلة من أماكن وعصور متباعدة.

وفي الفقه عرفنا كل الأئمة والفقهاء من جعفر الصادق إلى أصحاب المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، والشافعي، ومالك، وابن حنبل.

وفي الآداب والعلوم والفنون والفلسفة كان الجاحظ والمتنبي، والكندي وأبو العلاء المعري، وابن الهيثم وابن سينا والرازي وجابر بن حيان وابن حزم، وغيرهم كثيرون.

والقائمة طويلة هائلة، ليست في حاجة إلى تعريف...

ولكن مع أواخر تلك القرون الأولى، كان الخيط الأسود يختلط بالخيط

الابيض مع الغروب، وكان الظلام يزحف تدريجا، ربما في بطنه محسوس لاهل كل عصر، ولكننا حين ننظر إليه مجملا نستطيع أن نراه بوضوح.

وكما هي العادة دائما، عرف التاريخ الاسلامي الحكام المستبدين مبكرا، منذ يزيد بن معاوية وتتأوب الصالح مع الطالح صعودا وهبوطا مع تحولات الدول وتنقل مراكز الأحداث، فكان عمر بن عبد العزيز يذكر الناس بعدل الخلفاء الراشدين، وكان ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدمها يذكر الناس بالجاهلية. ولكن جو الحضارة العام، في صعوده وهبوطه، ظل هو السمة الأساسية لتلك القرون الاولى.

وفي تلك الاثناء، كانت عوامل الاضمحلال تتداخل في اندفاع النهضة، أو بقايا اندفاعتها وتكسب أرضا جديدة كل يوم...

أحيانا من الداخل، مع تضيق الخناق على حرية الفكر، وانتهاء عهد الفقهاء والأئمة وحلول عهد المفسرين غير المجتهدين، ثم قفل باب الاجتهاد، وأخذ أى مجتهد بأقصى العقاب..

أو مع زيادة المسافة بين الحاكم والمحكوم، وبالتالي إزدياد الشك بينهما، ولجوء الحاكم إلى عناصر غريبة يشتريها خدما ويحول الخدم إلى حكام... فهكذا تسرب المماليك حتى صاروا من القوة بحيث استولوا على السلطة.

.. أو مع طغيان العصبية الاقليمية، والعائلية، على روح الأخوة والمساواة، وبالتالي الحروب المستمرة بين دويلات لا حصر لها، وصلت إلى الاستعانة بالخطفاء الغريباء ضد الاخوة كما حدث في ممالك الأندلس على سبيل المثال....

.. أو مع العدول عن تقليد عصر النهضة العربية التي كانت واثقة

بنفسها، فانفتحت على حضارات الدنيا وثقافاتهما، تنهل منها وتستنبط وتختار.. إلى انغلاق تدريجي عن الدنيا، فأخذ الغرب بالذات يتقدم، والعلم يتطور، والمعارف تتغير، ونحن لمعرفة ما يدور حولنا رافضون، إلى أن جاءونا يوما، غزاة بأسلحة لا نعرفها، وعلوم لا نفهمها، ومخترعات لم نسمع عنها...

وأحيانا كانت عوامل الانهيار من الخارج، فالتتار يكتسحون عالمنا من الشرق تارة، والأوروبيون يطردوننا من الأندلس ومن كل جزر البحر الأبيض، حتى الاندفاع العثمانية تصل إلى أسوار فينينا، ثم تخسر بالفساد والترف والاستبداد.

وحكمنا الممالك والانكشارية والعبيد والخصيان، قبل أن يأتى الأستعمار الحديث بجبروته فيجد كل شيء ممزقا، مهلهلا...

طبعاً، ظهر بعد هذه القرون الأولى ممالك عظام مثل الظاهر بيبرس الذى هزم التتار وردهم فى «عين جالوت». أو فلاسفة عظام مثل ابن خلدون أو رحالة مثل ابن بطوطة. ولكن الظلام العام الزاحف كان أقوى من تلك الشهب القليلة البازغة...

وهكذا فليس غريباً أن نقول إن «الاسلام» يدخل القرن الخامس عشر، و «المسلمون» متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون. ولعل الكثيرين سيقولون: بل وأكثر من ذلك...

وفى نفس الوقت، يدخل «الاسلام» القرن الخامس عشر، ومن أهم ملامح الأحداث العالمية «صحوة إسلامية» تتخذ حتى الآن أشكالا شتى، أحيانا متضاربة، وأحيانا حائرة، وأحيانا متفائلة...

ذلك أن تعويض قرون من التخلف ليس بالأمر السهل. ولا يوجد طريق مختصر سريع إليه..

وليس من حق أى حاكم أو زعيم أن يحتكر لنفسه اكتشاف هذا الطريق.

ولكن هناك ضرورات مسلما بها، إذا كنا حقاً نريد اجتياز هذه المرحلة من أسلم الطرق.

إنه لابد من النظر إلى الامام، ولابد من رفض كل إتجاه إلى أن يعود المسلمون إلى خوض معارك جرت منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً.

والغريب إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى لديه نص أساسى واحد غير متنازع عليه، هو القرآن الكريم. وبالتالي فمهما اختلفت الاجتهادات والتفسيرات، فإنه ليس مقبولا أن يصبح الخلاف صراعاً، وهناك عندنا ذلك الأساس الواحد الثابت غير المتنازع عليه.

إنه لابد من إعادة كتابة التاريخ الاسلامى ، بنظرة نقدية علمية، لا تسحب قداسة الاسلام ذاته على سلوك آلاف الأجيال من المسلمين طالما أصابوا وأخطأوا.

إنه لابد من إدراك أن نقطة البدء فى التطور هى الانسان. والانسان عقل وقلب. التطور ليس بناء نساطحات سحاب. وليس شراء أحدث الأسلحة. وليس اقتناء أى نوع من الماديات.

إنما لابد أن نقول إن العقل الانسانى لا يتحرك إلا بالحرية والاقتناع. وأن القلب الانسانى لا يكسب إلا بالحب والكرامة والاحترام.

فى البدء لابد أن نعيد إلى الانسان المسلم حقوقه التى أتى بها

القرآن. فالاسلام انتشر بالرسالة وليس بالسلاح. وقد كان خصومة دائما في عصر ازدهاره أقوى منه سلاحا واطعف منه حجة.

حقوق الانسان المسلم هي نقطة البدء.

ما عرفه العلم بعد ذلك باسم حقوق الانسان من حرية الفكر والرأى والعقيدة، أو من الحرية والاضاء والمساواة. أو من الديمقراطية (الشورى) والعدل الاجتماعى.

عودة القيم الانسانية العليا التى دعا إليها الاسلام، إلى الانسان المسلم، دون تعلل أو اعتذار، وتحول هذه القيم إلى قوانين مفصلة، مطبقة، لها حرمتها... هو أول الطريق...

وكل ما عدا ذلك فهو باطل، وقبض الريح؟!

الحل والضمان : حق التفكير والتعبير !

ضرورات هذا الحديث بالذات كثيرة.

فنحن العرب نمر بأزمة مدلهمة. ربما لم نمر بمثلها منذ نصف قرن. وليست هذه مقارنة بين حال وحال. ولا بين زمن وزمن. فمنذ نصف قرن كانت معظم البلاد العربية محتلة، مسلوية الارادة. وكانت معظمها فقيرة متخلفة. ثرواتها إما مجهولة، وإما مملوكة لسلجنى المغتصب. وجيوشها غير موجودة. وحكامها من صنع المستعمرين فى الأغلب. إلى غير ذلك مما نعرف من حال الأمة العربية والشعوب الإسلامية قبل نصف قرن، أى قبل الحرب العالمية الثانية.

والآن نرى الصورة بالتأكد غير الصورة. صحيح لقد اغتصب من أرضهم قطر عزيز هو فلسطين، واحتلت إسرائيل أراضى من ثلاث دول عربية أخرى. ولكن الدول العربية صارت مستقلة الارادة فى مجموعها. لها مقومات الدول فى معظم الأحوال. ولها جيوش ودبابات وطائرات. ولها ثقافة وفكر وفن وأدب. ولها ثروات ضخمة. ولها أموال تؤثر فى حياة العالم. وبعد أن كانت الكلمة تعبر أرجاءها فى شهور لديها من محطات الاذاعة والتليفزيون والصحف والاذاعات ووسائل التعبير ما لا يقل فى نسبته إلى عددها السكانى عن مثله فى كثير من البلاد المتحضرة.

ولسنا فى حاجة إلى الاطالة. ولكن كل قارئ يعرف أن الأمة العربية

بما لها من موقع وما فيها من ثروات، وما يتدافع داخلها من تيارات، صارت أحد أهم ما يؤرق العالم من هموم. حتى أن الناس في أى مكان في العالم إذا تلفتوا إلى مكان يمكن أن يؤدي إلى قيام حرب عالمية ثالثة. أشاروا بأصابعهم إلى شرقنا الأوسط، أو إلى عالمنا العربي.

وكان هذا وحده كفيلا بأن يضعنا أمام أخطر الامتحانات وأصعبها. فالاهتمام العالمى إذا كان موضع فخر فهو يجر إلى التدخل. فتحصم وحوش الغابة وجوارح الطير من كل جانب. تبحث عن مواضع للخطأ وثغرات للانقسام.

وكان زيادة وسائل التعبير في بلادنا زادت من سوء التفاهم بينها وليس العكس.

وكان المجلة الواحدة التى كانت تصل بين قطر وقطر، تبيل الرقيق كقطرة الماء، كانت أفعل في تفاهم شعوبنا من الضجيج الاعلامى اليومى الهائل، المتواصل، الذى يعبر آلاف الأميال في أقل من الثانية.. ولكن القضية في كلتا الحالتين، والقضية في كل العصور والقرون، تبقى واحدة.

إن حرية الرأي وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج، هو المخلص، هو صمام الأمان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام..

وقهر حرية الفكر قد يكون عمل فرد. كما كان يحدث قديما في بعض العصور الخالية. وقد يكون عمل آلاف الأفراد والصحف والميكروفونات والكتب، كما يحدث أحيانا في أكثر المجتمعات تقدما.. والعاقبة في كلتا الحالتين وخيمة..

وقد استوقفنى هذا في مناسبتين :

إحداهما: كنت أسترجع فيها حادثاً فكرياً قديماً من تراثنا.

والمناسبة الثانية كنت أقرأ فيها كتاباً جديداً مما أخرجته مطابع الولايات المتحدة الأمريكية حديثاً..

ولكنهما على بعد الشقة، واختلاف النتائج، واختلاف نوع المجتمع تماماً، يوصلاننا إلى نفس الاستنتاج. وربما كان الاستنتاج الواحد من محنتين مختلفتين تماماً، هو العبرة. فالعبرة الواحدة من ظروف غاية في الاختلاف، أقوى مائة مرة من عبرة تنتجها وتفرضها ظروف متشابهة..
القصة الأولى: قصة محنة أحمد بن حنبل مع الخليفة المعتصم..

وبإيجاز ودون خوض في التفاصيل، ثارت في أواخر عهد الخليفة المأمون قضية فكرية انقسم حولها الناس وهي: هل القرآن قديم، أي أن وجوده مرتبط بوجود الله، أم أنه مخلوق.

وقد تبدل لنا القضية لو طرحت اليوم غير ذات موضوع. ولا يمس الرأي فيها صدق إيمان أحد. ولكنها وقتذاك تحولت من جدل فلسفي إلى شيء آخر تماماً حين اعتنق الخليفة الحاكم رأياً من الرأيين. فبدأت المحنة الكبرى تلاحق من لا يرى رأي الخليفة. وكالعادة كان المثقفون هم من تعرضوا للمحنة. فهم في ذلك الوقت الفقهاء والعلماء والقضاة. فأرسل المأمون إلى وزيره وحاكم العاصمة بغداد اسحق بن إبراهيم يطلب منه امتحان القضاة والفقهاء قائلاً له إن من يخالفون الخليفة في الرأي لابد أن يكونوا «من حشد الرعية، وسفلة العامة، وأهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه..» فكان الحاكم قد أدانهم بالكفر مقدماً لمخالفة رأيه.

وأخذ اسحق بن إبراهيم يحضر الفقهاء والقضاة ويقرأ عليهم كتاب

الخليفة — محذرا ومنذرا — ثم يسألهم هل القرآن قديم أو مخلوق. فمنهم من قال برأى الخليفة فأخلى سبيله، ومنهم من قال بغير رأى الخليفة، فكان يوضع في الاصفاد، ويقيد بأثقل الأغلال، ويتعرض لشتى صنوف العذاب. فكان منهم من يعود فيعدل عن رأيه، حتى يتخلص مما هو فيه. وما هي إلا كلمة يقولها والله أعلم بما بقى في ضميره. ومنهم من يثابر، ثم يستسلم.

وكان من بينهم أحد أكبر فقهاء الاسلام وهو أحمد بن حنبل.. وكان أكثرهم عنادا، فربطوه في الحديد، وألقوه بكل مقامه الجليل في السجن حتى يرى الخليفة فيه رأيه. ولكن الخليفة المأمون لم يلبث أن توفي.

وأمر المعتصم فأحضروا أحمد بن حنبل إلى مجلسه. وقد أحضروه وهو مكبل بأغلال من الحديد، وهو الكهل، لا يطيق حملها ولا السير بها.. ويجلسونه في هذه الحال في حضرة الخليفة.. ليناقش فقهاء السلطان. فإذا أفحمهم وهزم حججهم، أخذوه مثقلا بأغلاله إلى السجن.

ويتكرر هذا يوما بعد يوم.

ولا أطيل على القراء. فقد انتهى الأمر بأن أمر الخليفة آخر الأمر فجردوه من ثيابه، وربطوه إلى كرسى، وانهالوا عليه بالسياط.. حيث كان يجلس يناقش. وكلما غاب عن الوعي من العذاب، أفاقوه، وسألوه إن كان قد عدل عن رأيه، فيقول لا، فيعودون..

ولما كاد يموت في مجلس الخليفة، أعادوه إلى أهله كتلة مهشمة من اللحم والدم..

كانت السلطة في أوج عظمة الامبراطورية الاسلامية تنزلق أكثر وأكثر
إلى الاستبداد.. وبالتالي إلى التدمير والانحيار..



الملاحظة الثانية التي استوقفتني، وجعلتني أتأمل عوامل صعود
وانحيار الامبراطوريات والأمم حتى وإن بدت في أوج مجدها.. كانت في
كتاب أمريكي، عن الولايات المتحدة الأمريكية..

الكتاب ضخم في حوالى ألف صفحة. وقد اعتبرته الصحافة الأمريكية
أهم كتاب صدر في هذه الفترة. واسمه «البحث عن التاريخ». ومؤلفه
أحد أكبر الصحفيين المؤلفين في أمريكا وهو تيودور هويت. وقد جمع
فيه خلاصة متابعته للأحداث التاريخية الكبرى حيثما وقعت طوال
أربعين سنة تقريبا.

وقد غطى الكاتب ثلاث فقرات تاريخية عاشها حيث كان التاريخ
يصنع بالفعل.

• مع الثورة الصينية (من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥) مزاملا ماوتسى تونج
وشواين لاي.. وشيانج كاي شيك.

• إعادة بناء أوروبا بعد الحرب بمشروع مارشال (١٩٤٨ - ١٩٥٣).

• فترة التحولات الكبرى في أمريكا بعد الحرب، من رئاسة ايزنهاور
إلى مقتل جون كينيدي (١٩٥٤ - ١٩٦٣).

ويهمنى في هذا الحديث صفحات أراد المؤلف فيها أن يجيب عن
سؤال هام:

ما الذى ربط الولايات المتحدة الأمريكية في حرب فيتنام؟

ما الذي جعل هذه الدولة الكبرى تحارب حريا مجنونة طيلة عشر سنوات، وتخسر نصف مليون من شبابها بين قتل وجريح، وتخسر فوق ذلك سمعتها، وخسائر سياسية لا حصر لها، وانهيارات لمواقفها، وشك في حسن تقديرها حتى بين حلفائها...

ثم إن أمريكا لديها كل وسائل حرية الرأي. وكل أسباب المعرفة ومشاركة الرأي العام. وكل أنواع المخابرات ومراكز الأبحاث ووسائل الدراسة. فما الذي أعماها رغم كل هذا، وساقها معصوية العينين إلى مستنقعات فيتنام؟

يقول تيودور هوايت، في إجابة مفصلة جدا: إنها «المكارثية» التي اجتاحت أمريكا لبضع سنوات قليلة، إن الخوف مع الأسف، هو الذي يحرك أحداث التاريخ، أكثر مما يحركها الأمل..

ويمجرد أن انتشر الخوف في أمريكا، من أن يتعرض لاتهام مكارثي له بما سمي «النشاط المعادي لأمريكا» صار كل صاحب رأى، أو صاحب منصب، أو صاحب مسئولية، يحاول أن يتخلص عن دوره، وينزوى، ويسكت، وهو يرى الكارثة المحققة.

كانت أمريكا وقتها أغنى ما تكون بخبراء الصين والشرق الأقصى. يعرفون كل شيء من اللغة والأصل والتاريخ إلى السياسة والزعماء الجدد. ولكن الارهاب الفكرى الذى نشره مكارثي باتهام كل شخص في وطنيته، كان بمثابة من خلع عيني أمريكا وقطع أذنيها. فصارت بالنسبة لأحداث آسيا كلها لا ترى ولا تسمع. ومضت إلى كارثة سياستها الآسيوية التي دامت بعد ذلك حوالى ربع قرن!

لقد جر مكارثي كل عقل أمريكا إلى لجنة التحقيق في الكونجرس. لم

تكن هناك سياط كسياط المعتصم. ولكن كانت هناك سياط من نوع آخر لا يقل قسوة وهو التشهير أمام الرأي العام و «اغتيال الشخصية» كما يقولون في التعبير الانجليزي Character Assassination. جر إلى المحرقة العامة الآلاف من الخبراء وأساتذة الجامعات وموظفي الدولة وجنرالات الجيش والكتاب والصحفيين. وكل من قال رأيا ذات يوم في سياسة أمريكا نحو الصين مخالفا لما جرى. بل وكل من قابل ولو في مهمة رسمية أحدا غير مرغوب فيه.

وقد انتهى مكارثي نهاية محزنة بفضيحة أودت به. ولكن رعشة الرعب التي صارت رمزا في كل مكان واسما يطلق وهو «المكارثية».. رعشة الرعب هذه لم تفارق أمريكا بكل ضخامتها وحرياتها سنوات طويلة..

فلما بدأ العملاق يذهب في مغامرته الخاسرة ويغرق في وحول آسيا.. لم يجسر واحد على النطق. لا الخارجية. ولا المخابرات. ولا الخبراء. ولا الكتاب. ولا أعضاء الكونجرس..

وكان الثمن نصف مليون قتيل وجريح. وربع قرن من السياسة المدمرة الفاشلة. وانقسام داخلي في أمريكا أدى إلى عنف الستينات.. من مظاهرات المدن إلى اغتالات جون كنيدي وروبرت كنيدي ومارتن لوتر كنج وغيرهم. كل هذا مقابل سنتين أو ثلاث من الارهاب الفكري العام!

إن الحكايتين اللتين رويتها هنا، ليستا فريديتين في التاريخ.. ولكنني قصدت أن أضع جنبا إلى جنب نموذجين متباعدين تماما.. في بيئتين وعصرين مختلفين أشد الاختلاف. ولكن أثر قفل باب الاجتهاد،

والارهاب الفكرى من السلطة أو من الجماهير، يصل في الحالتين إلى نفس النتائج..

وأمتنا العربية والاسلامية في أخطر ظروفها..

الخلاف العربى ضار فتاك. القضايا المطروحة للاختيارات وللقرارات تدور لها الرعوس.

ونحن فوق هذا كله نخرج من ظلمة إلى نور. ومن تخلف إلى محاولة تحضر. ومن انكفاء على الذات إلى انفتاح على العالم. ومن تجاهل العالم لنا إلى اهتمامه بنا. ومن بحث عن هويتنا بين الأصالة والتجديد..

فإذا لم يكن حق التعبير وحق التفكير لهما ضرورة بل وقداسة في هذه المرحلة. وإذا لم يتعلم الحكام والمحكومون هذه الكلمة الآن. ففى أى وقت سنكون فيه أحوج إليها من وقتنا هذا في عالمنا هذا؟

العناصر الناقصة.. في القوة العربية

السؤال يطرحه كل عربي على نفسه، ولا يجد له جوابا...

مهما كان القطر الذي ينتمى إليه المواطن العربي. ومهما كانت الفئة الاجتماعية التي هو منها. ومهما كانت درجة التعليم أو المستوى الثقافي الحاصل عليه.. فهو يطرح هذا السؤال على نفسه، وعلى الآخرين حين يحاورهم، بصيغة أو بأخرى من صيغ التساؤل... تناسب ظروفه الثقافية والاجتماعية والبيئية التي يعيش فيها.. ولكن السؤال في الجوهر هو نفس السؤال..

والسؤال يقفز، كلما شعر أي واحد منا - وهو الشعور السائد - في معظم الاحوال أن هناك فرقا كبيرا.. ومسافة شاسعة.. بين ما «نعتقد ونتصور» أن العرب قادرون عليه... وبين ما يحققونه بالفعل... سواء في داخل بلادهم، أو فيما بينهم وبين العالم الخارجي من قضايا ومشكلات...

السؤال هو:

- إننا نحن العرب لدينا من أسباب القوة وكذا وكذا.. فكيف لانستطيع أن نفعل كيت وكيت؟

إننا أكثر من مائة مليون.. وأكثر من عشرين دولة.. وعشرين جيشا.. ولدينا الموقع الجغرافي الاستراتيجي.. ولدينا السلعة الاستراتيجية الاولى وهي البترول.. فلماذا نقف منذ ثلاثين سنة هذا الموقف

المتردى.. من القوى الخارجية بوجه عام.. ١٩

يطلق المواطن العربى هذا السؤال على نفسه أو على غيره، كلما هاجت الخواطر أو ثار نقاش، ثم ينتهى إلى حالة من الحيرة والاحباط وعدم الاقتناع بما يلقى امامه أو ما يعثر عليه هو من حيثيات ومبررات..

السؤال هام، وغير نظري.. بل إنه واقعى جدا. بل إنه هو «السؤال»...

وربما كانت البداية الصحيحة، في محاولة العثور على رد مقبول، هو ان نرد على السؤال بسؤال:

.. نعم.. إن لدينا من عناصر القوة كذا وكذا وكذا.. ولكن ما هى ياترى عناصر القوة التى تنقصنا؟...

وهل يا ترى نستطيع ان نستكملها؟ وكيف؟..

إن «القوة» ليست شيئا مجردا. يكون أو لا يكون. إنما القوة مجموعة عناصر، ربما يغيب بعضها فيؤثر على سائرهما. كالموقع الجغرافى مثلا. أو الثراء. إنها عناصر هامة فى تركيب «القوة». ولكنها بمفردها قد تنقلب إلى عوامل ضعف: كأن تصبح الدولة الغنية أو ذات الموقع الهام، مطمعا للآخرين، ومصدرا لاثارة شهية القوى الخارجية ضدها.

والتعدد مثلا.. قد يكون مصدر قوة إذا عرف كيف يتكامل، وقد يتقلب إلى مصدر ضعف إذا كان سببا فى التفكك والتناحر..



مجلة «الشئون الخارجية» «FOREIGNAFFAIRES» الأمريكية، التي تصدر مرة كل ثلاثة شهور.. أصدرت عددا خاصا بمناسبة مرور خمسة وخمسين عاما على صدور أهم مجلة في نوعها، كرست معظمه لعدد من أكبر المفكرين والسياسة يناقشون فيه موضوع «القوة» ! بمعنى «القوة» في السياسة الدولية طبعاً...

وهناك طبعاً، عناصر «القوة» التقليدية المعروفة، نسجلها هنا في إيجاز، حتى نصل إلى ما نريد التركيز عليه.

فمن أبرز عناصر القوة، بمعناها التقليدي منذ القدم:

● القوة العسكرية، وأمرها معروف وحاسم طبعاً.

● القوة الاقتصادية والمادية. وهي أيضاً أمرها معروف. وهي في الواقع — أي القوة الاقتصادية والمادية — هي التي تنتج إلى حد كبير العنصر الأول وهو القوة العسكرية. فالدولة إذا كانت صناعية متقدمة، ولديها مصادر الخامات المطلوبة، تصبح أقدر من غيرها على إنتاج السلاح وحشد الجيوش. وانتاجيتها تجعلها أقدر من غيرها على احتمال تمديد الحرب زمناً أطول من خصومها.

● قوة عدد السكان والموقع الجغرافي...

فالصين مثلاً دولة متخلفة مثل دول العالم الثالث، إذا أخذنا في الحساب مستوى المعيشة ومعدل دخل الفرد وغير ذلك. ولكن مجرد أنها دولة تضم حوالي ألف مليون، يجعل لها هبة خاصة وخطراً خاصاً، ولو كان خطراً مستقبلاً وليس أنياً، ولكنه يدخل بالتأكيد في كل حساب. وكذلك الهند، وما يليها من بلاد.

وفي الصراع العربي الاسرائيلي مثلا، رغم أن إسرائيل خرجت منتصرة في معظم الحروب... إلا أن مجرد أن عدد سكانها ثلاثة ملايين والعرب أكثر من مائة وعشرين مليونا، يجعلها في نظر العالم في وضع المدافع عن نفسه، وضع من لا يملك المستقبل.

ولاشك أن التقدم العلمي الهائل، وانعكاسه على قدرة القوة العسكرية، قد قلل من قيمة «العدد» ورفع من قيمة «النوع» : أى نوع الأسلحة التي في يد الجنود، ومدى كفاءة وتعليم الجنود الذين يحملون السلاح..

فضائل الجيوش في الحروب القديمة، حروب السيف والرمح، من شجاعة وحماسة وكثرة عدد، حلت محلها فضائل أخرى هي درجة التعليم، ودرجة استيعاب الأسلحة الحديثة والتحكم فيها، وقوة النيران لا قوة الأفراد، بالإضافة طبعا إلى الفضائل القديمة.

وليس مصادفة أن نجد أن «القوتين الأكبر»، أمريكا وروسيا، كلتيهما تتجمع لها أكبر درجة من عناصر القوة سالفة الذكر:

العدد الكبير (٢٢٠ مليونا أمريكا - ٢٥٠ مليونا روسيا)، والقوة الانتاجية الهائلة وتوافر معظم المعادن الخام المطلوبة للصناعة داخل أرضها (حديد - فحم - بترول - إلخ) فهما ليستا مثل اليابان أو ألمانيا، اللتين هزمتهما، إلى جانب أسباب أخرى، ندرة البترول المستورد كله من الخارج.

● يأتي بعد ذلك عنصر هام وإن بدا غريبا، وهو: قدرة الدولة على التحالف مع آخرين:

فهناك دولة تكون على درجة من الذكاء السياسى، والمرونة، وسرعة التخطيط، بحيث يكون لها دائما حلفاء من دول اخرى تقف بجانبها في الحرب أو السلام على السواء..

فألمانيا مثلا خسرت حربين عالميتين، لأنها كانت معزولة عن أوروبا، ولأنها في الحربين لم تتمكن من كسب تضامن حلفاء مهمين معها.

وإنجلترا بالمقابل هزمت نابليون، ثم هزمت الامبراطور غليوم، ثم هزمت هتلر.. لأن إنجلترا كانت دائما لا تخوض حربا بمفردها قط. إنما تخوض حروبها دائما مع حلفاء. وكما قال تشرشل عندما امكنه التحالف مع اعدى اعدائه، الاتحاد السوفيتى، خلال الحرب، من انه مستعد «للتحالف مع الشيطان» لكسب الحرب، كان دائما هو شعار الامبراطورية في أوج مجدها، وقبل زوال شمسها..

وإسرائيل، لم تكسب موقعة حرب او موقعة سلام. الا بمحالفات مع دول قوية.. مع إنجلترا سنة ١٩٤٨.. ومع فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٥٦.. ومع أمريكا سنة ١٩٦٧.

وإذا كانت هذه الصفة «القدرة على التحالف مع الآخرين» مهمة للقوى الكبرى.. وقد رأينا صراع الاحلاف في العقدين الماضيين وكيف كانت ضاروته.. فإنه ألزم للدول الصغيرة والنامية.. وفي هذا المجال تمكن ملاحظة المزايا التى استفادتها دول هذا النوع في دائرة التجمع العربى، أو التجمع الاسلامى، أو التجمع الأفريقى، أو تجمع دول عدم الانحياز. فلاشك أن التجمع على هذه المستويات قد ساعد في حالات كثيرة على تحقيق استقلال أقطار لم تكن مستقلة، وحماية مصالح بلاد أخرى..

وربما نلاحظ لهذا السبب أن الدول الكبرى أو العالم الصناعى المتقدم كله.. ينفر من هذه التجمعات، ويحاول تخريبها أو تفكيكها قدر الامكان.

والواقع أن بند «القدرة على التحالف مع الغير» إنما يشير - بين عناصر القوة - إلى عنصر الحق السياسى، ويعد النظر.. واكتشاف المجالات المشتركة مع الغير - سياسيا واقتصاديا - وكيف تضع الدولة قضاياها في موضع القضايا العادلة التى «تقنع» الغير فوق ذلك.

ونستطيع أن نضيف في إطار وسائل الاعلام الحديثة، ذات القوة الساحقة، من سينما وصحافة وإذاعة وتليفزيون. وهنا أيضا من السهل ان نلاحظ قيمة هذا العنصر، إذا تذكرنا ما حققته اسرائيل من نتائج، بسبب تأثيرها على أجهزة الاعلام في الخارج، وكسبها للرأى العام العالمى خلال فترة طويلة، قبل أن يتنبه العرب إلى خطورة هذا السلاح وقيمته...

● وقد وجد الباحثون والمفكرون ما وصفوه بأنه نوع جديد تماما من أنواع «القوة» لم يسبق له مثيل خلال التاريخ الانسانى كله. وهو ليس موجودا حتى اليوم إلا في حالة واحدة فقط: هي دول منظمة «الايبيك» او منظمة الدول المصدرة للبترول.

نحن هنا نواجه نموذجا جديدا تماما: دول تفتقد معظم عناصر القوة التقليدية ... في رأيهم - دول قليلة السكان، ضعيفة عسكريا، وغير ذات موقع استراتيجى هام. ولكن تكوين الكرة الأرضية أعطاها ما يشبه الاحتكار لسلعة باتت أهم سلعة في العالم وهي البترول.

ولو كانت كل دولة مصدرة للبترول، منفردة بنفسها، لكانت قوتها أقل

بكثير. ولكن قدرتها على التجمع ونجاحها فيه، جعلها ذات نفوذ عالمي من نوع خاص.

فهي تستطيع بقرار منها ان ترفع أسعار كل شيء في العالم أو تخفضها. أي أن أثر قراراتها يصل إلى كل بيت وليست إلى كل دولة فحسب. والدول العربية منها متقاربة جغرافيا، ولها قضايا سياسية مشتركة إزاء العالم، وبالتالي فهي قادرة على استخدام البترول كسلاح سياسي مباشر. وقد حدث هذا بالفعل بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ويعد أن كانت الشركات العملاقة، المتعددة الجنسيات، تملئ شروطها على دول البترول، انعكست الآية تماما.

ويضرب الخبير «جون كامبل» مثلا بالتأثير السياسي: إذ يذكر كيف أن الدول الأكثر اعتمادا على البترول العربي – اليابان وغرب أوروبا – هرولوا ساعة الحظر إلى محاولة إنقاذ علاقاتهم. وكان هذا موضع خلاف شديد بين هذه الدول وحليفهم الأساسية، الولايات المتحدة الأمريكية..

وحتى الآن – يقول جون كامبل – نجد أن هذه الدول الأكثر اعتمادا على البترول العربي، إن لم تأخذ خط السياسة العربية تماما، بسبب وجود الولايات المتحدة، إلا أنها على الأقل مضطرة «لمجاراة» العرب أحيانا، أو على الأقل «مداراتهم» حتى لا تتدهور الأمور إلى وضع خطير..

وقد كان ممكنا أن تفعل دول أخرى ما فعلته دول البترول: أي أن تظهر «أوبيك» تضم الدول المنتجة للفوسفات، وهكذا بالنسبة للسلع الأخرى الأساسية...

ولو أن تلك الدول المنتجة للخامات تمكنت من عمل تكتلات مثل تكتل

دول البترول، لتغيرت موازين القوى في العالم كله، ولأصبحت الدول الفقيرة المنتجة للخامات في وضع قوى جدا، إزاء الدول الصناعية المتقدمة، المستهلكة لمعظم خامات العالم..

ولكن هذا لم يحدث إلى الآن. ربما لأن السلع الأخرى ليس لها أهمية البترول. ولكن من يخطط للمستقبل عليه ان يضع في حسابه هذا الاحتمال..

يأتى بعد ذلك عنصر من عناصر القوة، ربما كان اقدم العناصر، والكثيرون يعتقدون أنه أهم عناصر القوة.

ذلك هو: البعد الداخلي... أى الظروف الداخلية لأى دولة تسريده أن تكون ذات قوة ما فى الحياة الدولية..

فكل العناصر السابقة.. من مال أو سلاح أو صناعة أو اقتصاد.. إنما هى فى النهاية اسلحة فى يد الدولة أو المجتمع الذى يملكها...

فهى كلها - مجتمعة او متفرقة - بمثابة السيف. وكما أنه من المهم أن يكون سيفا قاطعا فانه من الأهم ان تكون «اليد» التى تمسك بهذا السيف ثابتة...

فقد رأينا - مثلا - إمبراطوريات أعرق وأكثر حضارة وإنتاجية وقوة عسكرية.. تنهار أمام المد الإسلامى البسيط القادم من صحراء فقيرة.. ذلك ان هذه الامبراطوريات كانت قد شاخت، ودبت فيها عوامل الانحلال. فانهزمت رغم قوتها أمام قوة أضعف منها فى كل شىء إلا فى طاقة الايمان، والاقتناع، وقوة الاندفاع.

ونفس الشىء حدث للامبراطورية الاسلامية.. عندما وصلت إلى ذروة

حضارتها، ثم دبت فيها عوامل الانحلال، فصارت تتساقط قطرا بعد قطر، أمام زحف اورويما الجديدة، التي استردت شبابها. وشروط «الوضع الداخلي» لأي بلد، كثيرة، وفي تقديري أنها معروفة لأي قارئ...

ولكن ذلك الحوار توصل إلى ان هناك شرطين أساسيين، لا غنى عن وجودهما قط، حتى يصبح المجتمع مجتمعا قويا، والدولة دولة قوة... الشرط الأول هو التعليم.

والشرط الثاني هو الاطار السياسي والاجتماعي.

بالنسبة للشرط الأول، فهو بالفعل شرط بديهي، فقد دانت الدنيا في عصرنا هذا بالذات للعلم. والعلم ليس بمعنى العلوم التطبيقية وحدها — الكيمياء والطبيعة والهندسة والذرة — ولكن العلم بمعنى الأخذ بالأسلوب العلمي، من أكبر الأمور إلى أصغرها، وهذا لا يتوافر إلا بوجود قاعدة واسعة «متعلمة».

وغياب هذا العنصر، من أقتل الأشياء للقوة العربية الممكنة.. إن وجود نسبة من الأمية تدور حول ٧٠٪ في العالم العربي بوجه عام، أمر لم يعد مقبولا. وعبء على كاهل الأمة العربية يفترس حيويتها، كما تفترس الأمراض المتوطنة جسد الانسان.

ولو وضعنا تاريخا مقبولا في معظم الحالات.. منذ نهاية الحروب العالمية الثانية، ثم توالى حصول الدول العربية على استقلالها، نجد أن دول الاستقلال قد ضيعت ربع قرن من الزمان، دون أن تختفى الأمية أو حتى تقل بدرجة ملحوظة. إنما نكاد نلث لملحقة عدم زيادة النسبة مع تزايد عدد السكان.

وقد أخذت قضية الامية في نظرنا مأخذ الترف. أو الشيء الذى لا حل له. وهذا غير صحيح. إذا اطلعنا على تجارب بلاد أخرى...

من المحراث في الزراعة.. إلى الصاروخ في الحرب.. تتضاعف قيمة أى أداة بمدى تعلم الفرد وتدريبه وتعوده التعامل مع أدوات العصر... إن هذه هي إحدى الثورات الكبرى التى يحتاج إليها العالم العربى. وبغيرها لا يمكن اجتياز حد معين من حدود القوة.

والاساس فى انقسام الشخصية العربية، هو وجود فئة متعلمة مثقفة.. وفئة غائبة تماما عن كل هذا الامر الذى يجعل الحوار فى داخل الأمة «حوار طرشان» وينتج تمزقات وتصادمات فى القيم والعادات والاهداف والمثل العليا.

والشرط الثانى الذى هو الاطار السياسى الاجتماعى السليم، القوى المرن فى نفس الوقت، كذلك شرط يبدو بديهيا.

والمقياس الذى يقيس به أى مفكر غربى مدى توافر هذا الشرط هو: مقياس الديمقراطية وحرية الرأى.

وهو بالتاكيد مقياس سليم: فالشعب الذى يستطيع أن يحقق الاستقرار مع توافر الديمقراطية وحرية الرأى، هو الذى يمكن أن يقال عنه إنه شعب منسجم مع نفسه، قد تعمقت جذوره.

لأن الانسجام هنا لا يكون مفروضا بالقوة، ولكنه متبلور من خلال تفاعل صحى، واختيار حقيقى.

ولكننا لا نضع بالضرورة صورة واحدة للديمقراطية وحرية الرأى، منقولة حرفيا من عالم آخر...

إنما نقول إن المطلوب توافر هذين العنصرين، بشكل يتسجم مع
تقاليد وقيم كل شعب ونوع تطلعاته وأهدافه.

وذلك بدوره عنصر ناقص في كثير من بلادنا العربية.. وبالتالي فهو
عنصر قوة ينقصنا ونحن محرومون منه.

وما أشد ما تتعاضم القوة التي يملكها شعب، إذا استطاع بمحو
الأمية ونشر الثقافة وتكريس صورة الديمقراطية، أن يشارك كل الشعب
... وليست فئة قليلة منه ... في الحوار الأبدى، الدائر باستمرار داخل كل
أمة، صاعدة، ناهضة، تنوى حقا أن تهزم مشكلاتها وأن تحصل على
أهم أسباب القوة.

قضية « النخبة » .. و « الجماهير »

في مرحلة الانتقال التي يمر بها العالم العربي

بعد احتراق دار الأوبرا في القاهرة، دار في مصر حوار واسع حول بناء دار جديدة للأوبرا بدل الأوبرا التي احترقت. وهل لمثل هذا المشروع مجال بالنسبة لبلد يجتاز ظروفًا اقتصادية صعبة كمصر، ولكنها من ناحية أخرى اعتادت فكريًا وثقافيًا وجود دار للأوبرا، فضلًا عن أنها قضية مطروحة أيضًا في بلد آخر مختلفة ظروفه، دولة جديدة هي الكويت، يرى البعض ضرورة وجود مثل هذه المنارة الثقافية فيها، ويرى آخرون أنها مجرد ترف...

هكذا... ناقشت الأمر مرة من ناحية أهمية العلوم الانسانية تماما كالعلوم التطبيقية، رغم افتتان الناس بها، في ظل حضارة حديثة طابعها الطاغى هو الجانب المادى، لأن أى مجتمع لا يتقدم على ساق واحدة، إلا تقدا أعرج غير حقيقى، وهنا أريد أن أقول إن الموضوع نفسه كان سببا في مناقشة قضية أخرى، هي قضية « النخبة » .. و « الجماهير »...

والعلاقة هنا — بحكاية بناء الأوبرا — أن الناس فيهم من يرى أن الأوبرا لا يفيد منها إلا الخاصة رغم أن أموالها مأخوذة من حق الجماهير، وفيهم آخرون يرون غير هذا الرأى...

وفي البداية، نلاحظ أن « النخبة » هي التي حكمت العالم عبر تاريخه الطويل...

ولذلك كان التاريخ كله تقريبا - قبل المائتى سنة الأخيرة - هو تاريخ الأباطرة والقواد العسكريين وكبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء والعلماء.

طبعاً، كان العبء الأكبر في استمرار الحياة يقع كالعادة على عاتق قاعدة عريضة من الناس، هم الذين يزرعون ويبنون ويموتون في المعارك الكبرى. لكن التاريخ كان لا يتذكر هؤلاء.. ونادراً ما نجده يتعرض ولو لنوع حياتهم.. وكل حضارة الفراعنة التى عاشت أساساً من خلال فن العمارة والنحت لم تحفظ لنا اسم فنان واحد عظيم.. إنما كل الذى نعرفه هو أن خوفو هو الذى بنى الهرم.. ورمسيس هو الذى أقام المعابد ويونئوس قيصر هو الذى خاض المعارك وشرلمان هو الذى وحد أوروبا. ثم القلة القليلة النادرة من الذين بقيت أسماؤهم في عالم الفكر والفن.. سقراط، أرسطو، شيشرون، فولتير، مولير، وغيرهم.

وكان هذا وضعاً طبيعياً، فالسلطة كانت أما وراثية، وإما ينتزعها صاحبها بالقوة. وكانت النخبة التى تتولى تسيير الأمور بالتالى محصورة في هذا النطاق. حتى إذا نبغ في عصره عالم أو أديب أو قائد عسكري أو طبيب، فهو لابد أن يمارس كفاعته داخل هذه النخبة المحدودة وفي إطارها، فيتوقف نجاحه على التحاقه بها، ويجذب انتباهها إليه. ثم الاحتفاظ برضاها عليه.. وإلا فالسقوط من حلق، أو أن يسلم عنقه لضربة السيف أو حبل المشنقة.

ولم يكن التعليم بالمعنى الذى نعرفه موجوداً. إنما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون في أى عصر يعدون على أصابع اليد الواحدة. وليس معنى ذلك أن مركز السلطة والتوجيه - أو النخبة بهذا المعنى

القديم — كانت على الدوام جاهلة. ففي بعض العهود كانت على العكس تتميز بالمعرفة وتشيع فيها قيم الثقافة والعلم. فقد عرفت بعض عصور الخلافة الإسلامية، الخلفاء الذين يحيطون أنفسهم بالشعراء والأدباء والفقهاء، والذين كانوا يهتمون بتربية وتعليم أبنائهم المرشحين للحكم من بعدهم. كما عرفت أوروبا مثلاً عصرًا مثل عصر لويس الرابع عشر، حيث كان ملوك وأباطرة أوروبا يتباهون بمن في بلاطهم من فلاسفة وأدباء وحكماء وفنانين، ولكن هذا كله كان يدور في قصر الحاكم، فرساي مثلاً. حتى الموسيقى لا يجد جمهوره المستمع إلا في القصر، وعرف ما يسمى «بموسيقى الحجرة» قبل أن توجد موسيقى الأوركسترات الضخمة التي تعزف في القاعات الكبيرة وللجماهير. وكان المؤلف المسرحي مثل موليير لابد أن يقدم مسرحياته في مسرح القصر لنخبة أنيقة مترفة معطرة.

كانت إذن داخل تلك الدائرة تعيش النخبة وتولد الأحداث ويلمع النجوم وتتخذ القرارات، بشكل أو بآخر طيلة السبعة آلاف سنة المكتوبة من تاريخ الإنسان، ما عدا حوالى المائتى سنة الأخيرة تقريباً من هذا التاريخ الطويل...

على أن الوضع بدأ يتغير جذرياً بعد ظهور المطبعة. وليس مصادفة أن ظهور المطبعة تلاه مباشرة عصر من كبار المفكرين وعمالقة الأدباء والفنانين في أوروبا. وتلا هذا فوراً ظهور أفكار اجتماعية جديدة، وغليان ضد النظام الإقطاعي الذي لم يعرف له الناس عسر القرون بديلاً. وتمخض هذا كله عن حدث الثورة الفرنسية العظيم الذي هز أوروبا كلها هذا...

ولعل تلك الفترة كانت أزهى عصور ما يسمى «بالنخبة» على

الاطلاق، لأننا سنرى بعد قليل كيف إنها بدأت في عصرنا الراهن تعاني من محنة أخرى.

كانت المطبعة وغيرها من وسائل النشر قد أخذت طريقها إلى الانتشار. وأصبح الكتاب والعلماء والأدباء والشعراء ذوي أسماء مشهورة ولهم صيت كبير. وخرج الرسامون من تزيين جدران القصور إلى الكنائس وأماكن أخرى عامة كثيرة، وبدأت تتكون المدن الكبيرة بالتدريج مع بواوير الصناعة والتجارة وتحسن المواصلات. وخرج الموسيقيون من تأليف «موسيقى الحجرة» إلى وضع السيمفونيات العظيمة التي تعزف لجمهور أوسع بكثير. وأخذت نظم التعليم تظهر وتنتشر. ويوجه عام — وهو أمر أساسي — صار الفيلسوف والمفكر والأديب والفنان يراعى جمهورا جديدا، ويتوجه إليه، ويتوقع حكمه، بعد أن كان لا يفكر إلا في جمهور محدود جدا، إذا جاز أن يطلق على هذه القلة اسم «جمهور».

لقد صار لهؤلاء المثقفين لأول مرة — قبيل الثورة الفرنسية — صيت عظيم في البلاد، وأثر كبير في الرأي العام، ولأول مرة تكونت النخبة — بالمعنى الثقافي لا الوراثي — من غير طبقة النبلاء الحاكمة، وصارت تخاطب جماهير أوسع. كان هؤلاء حقا هم الذين صنعوا حدث الثورة الفرنسية العظيم. بالأفكار الجديدة التي دعوا إليها، والكتابات التي نشروها، والأندية التي أسسوها.

وكانت هناك في نفس الوقت حركة استقلالية وتحررية أخرى عظيمة، لم يلتفت الكثيرون إلى مغزاها الهائل في ذلك الوقت، لأنها وقعت بعيدا في العالم الجديد، تلك هي حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ووضع وثائقها الأولى.

هنا أيضا نجد أن هذه الثورة — رغم كل عواملها الاقتصادية والاجتماعية — كائى ثورة، فقد كان دور النخبة بمعناها الثقافى أيضا دورا مرموقا ملحوظا لأول مرة...

يقول المؤلف الأمريكى «ميرل كيرتى» فى وصف هذه المرحلة فى بدء حياة أمريكا «كان كل من الحزب الاتحادى والحزب الجمهورى يتفاخر بمن لديه من زعماء من أهل الثقافة والفكر. وكثيرون من مؤسسى أول جمهورية فى العالم الحديث جمعوا بين الثقافة العالمية والعمل. فالمؤتمر الدستورى الأول سنة ١٧٨٧ كان فيه واحد وثلاثون من الخمسة والخمسين عضوا يحملون أعلى شهادات السكليات والمعاهد العليا، وآخرون مثل بنجامين فرانكلين كانوا مثقفين من أعلى طراز بمجهودهم الخاص، وفى قاعة الاستقلال ذلك الصيف كان يجلس مديرا جامعتين وثلاثة أساتذة جامعيين، وجيمس ماديسون أحد أكبر مفكرى زمانه. وجون آدمز أستاذ الكلاسيكيات ومؤلف كتاب «دفاع عن الدستور». وكونيسى أشهر أعضاء أكاديمية الفنون والعلوم، وتوماس جيفرسون، وغيرهم».

دخل «النخبة» إذن من رجال الفكر، جنبا إلى جنب مع رجال العمل الأول مرة، وخلقوا فى «الرأى العام» — وهو فى حد ذاته تعبير جديد — تيارات قوية وغرسوا فيه أفكار أهم ثورتين فى ذلك العصر، «ثورة الاستقلال الأمريكية، والثورة الفرنسية الكبرى»، فساتحين بذلك عصرا جديدا تماما للشعوب.

ولعلنى استطرت قليلا...

ولكن ما أريد أن أقوله هو أن الشعوب فى مجموعها قضت معظم

التاريخ الانساني وليس لها حساب كبير، رغم أنها كانت على السدوام صانعة الحياة. وأن النخبة – المنبثقة عن هذه الجماهير – عرفت فترات من اللمعان مع ازدهار الحضارات، أبرزها الازدهار العظيم والاحترام الكبير الذي ناله كبار المثقفين في العصر الذهبي للدولة الاسلامية، خصوصا في بغداد العباسيين وفي الأندلس. حتى اضطهاد البارز منهم – كاضطهاد الامام أحمد ابن حنبل – كان دليلا على أهمية أمثاله وتقدير الحاكم لدورهم في تشكيل الفكر العام. ثم كان حظ المثقفين يخبو مع اضمحلال كل حضارة.

ولكن الفترة التي أتحدث عنها من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، كانت تختلف عن كل ما سبق، إذ شبت فيها حركات التحرر، وقامت الثورة الصناعية تدريجيا، وتكونت – كما قلت – المدن الكبيرة، وبدأ يصبح «للجمهور» وزن لم يكن له من قبل. وبالتالي صار للمثقفين دور بارز، فهم القادرون على إنتاج المخترعات الحديثة المتوالية التي تغير حياة الانسان ، وهم القادرون على توجيه أفكارهم وآرائهم إلى هذا الجمهور الجديد، الأمر الذي أكسبهم قوة وشهرة، وظهر أكبر نوابغ الفكر والآداب والعلوم وقممها خلال تلك الفترة.

ولكن، حين نصل إلى العصر الحديث، بمعناه السراهن، نجد أننا محتاجون إلى مناقشة أكثر تفصيلا لقضية النخبة...

فأول وأهم ملامح العصر الذي نعيش فيه – فيما يتعلق بالموضوع الذي نتصدى له – هو ثورة الاعلام. أو ما أفضل أن أسميه ثورة المعرفة...

ففي العقود القليلة الماضية من السنين، انفجرت المعرفة انفجارا

هائلا وصار العالم بهذا المعنى عالما واحدا صغيرا لأول مرة. فالصحافة والاذاعة والسينما والتلفزيون وجهاز الراديو الترانزيستور الصغير الذي يحمله أفقر بدوى في أبعد صحارى الدنيا، جعلت المعرفة في متناول كل فرد، وإن تراوحت الدرجات. ويعد أن كان السفر والترحال مهمة المستكشفين أو الرسل الذين يتبادلهم الملوك، صار هواية مئات الملايين كل سنة، كل انسان يحاول بقدر إمكانياته أن يرتاد أكثر ما يستطيع من أرجاء المعمورة.

وكما يقول «مارشال ما كلوهان» الذى حاول أن يفلسف هذه الثورة في معظم كتاباته.. كما يقول في كتابه «القرية الكونية»: إن هذه المخترعات جعلت الانسان بعد أن كان يكفيه أن يتأقلم مع بيئة قريته أو مدينته، صار مضطرا إلى أن يتأقلم مع قرية أكبر، هي الكون بأكمله. فأين صار مكان النخبة في هذا العالم الجديد؟ وهل بقى لهم دور يقومون به؟...

إن مكانة النخبة التى كسبتها في القرن الماضى، من حيث القيادة الفكرية لشعوبها.. سواء في مجالات الفكر السياسى أو الانتاج الفنى أو الذوق العام.. هذه المكانة لم تدم طويلا، تحت وطأة هذه المخترعات التى أحدثت تلك الثورة في المعرفة ونشرها، وذلك من ناحيتين:

— الناحية الأولى، هي أن هذه الأجهزة الاعلامية الكاسحة في تأثيرها صارت قابلة لأن تقع في يد السلطة الحاكمة، كما هو حادث في كل النظم الشمولية مهما كانت أنواعها ومذاهبها ومسمياتها. وبالتالي صار ممكنا في هذه الحالة أن تحرم من لا ترضيهم آراؤها من النخبة، من أى فرصة للتأثير على الجماهير. فهي — السلطة — حتى إذا لم تمنعهم منعاً، أو لم تطردهم طرداً، قادرة على مواجهة أفكارهم بسيل

كاسح من الفكر والذوق والسلوك، المفروض من أعلى، عن طريق استخدام هذه المخترعات الحديثة القادرة على مخاطبة القريب والبعيد، المتعلم والامى، وهى بهذا أكثر فاعلية بما لا يقاس من جهد حامل فكرة ينشرها فى كتاب أو يدعو إليها فى محاضرة.

فكان الفكر بوجه عام عاد إلى ما كان عليه قبل قرون: إما أن يخدم السلطة، فتفتح له أبواب التأثير والانتشار، وإما أن يرضى بالانزواء، والانطواء، والقبول بالدور الضئيل المختنق.

وكان تلك المخترعات الضخمة لنشر المعرفة، والتي ظهرت لتحرير الانسان، قد غدت وبسرعة وسيلة من وسائل السلطة لصياغة الانسان وتكوينه، بفعالية لم تكن لاي سلطة من قبل فى التاريخ...

وفى تقديرى أن هذا السؤال - كيفية جعل ثورة المعرفة وأجهزتها فى خدمة الانسان لا السلطان - من أهم الاسئلة المطروحة على الانسانية فى هذا العصر الحديث...

- الناحية الثانية، إن انتشار المعرفة على مستوى الملايين، ذلك الامل المرغوب فيه وفى زيادته على الدوام، كان لابد له أن يؤثر - بالهبوط - على مستوى الانتاج الخاص والاداب والفنون وتربية الذوق العام والعقل العام للناس.

فهذه الأدوات الحديثة للمعرفة - من صحافة يومية وإذاعة وتليفزيون وسينما - كالمعدة الشرهة التى تحتاج إلى كمية هائلة من الطعام تتغذى بها كل يوم. وهذا فى حد ذاته سبب كاف لأن يهبط مستوى الانتاج فى كل هذه المجالات، وهى مجالات بطبيعتها أكبر تأثيرا وأوسع انتشارا.

ثم إن هذه الجماهير الواسعة جدا التى دخلت ساحة استهلاك ألوان المعرفة، هى بطبيعتها أقل ثقافة من القلة القديمة، وبالتالي صار «ممولو ومنتجو» هذه المعرفة لا يجدون وسيلة للانتشار والكسب سوى التسابق على تلبية طلبات هذه الجماهير المتزايدة. ظهرت الروايات التى تفسر السوق وتستهلك وتكسب الملايين ثم تنتهى ولا تبقى فى تاريخ الأدب لأنها فى الأصل لا تعد أدبا، أو هى نوع جديد من الأدب! وظهر ما يشبه هذا فى كل المجالات. وتغلب عنصر التجارة على عنصر الجدوى والفائدة، أو تغلب عنصر «الثمن» على عنصر «القيمة».

لم يعد الذين يصوغون العقل العام والذوق العام هم أولئك الذين نسميهم النخبة، بل اقتصر وجودهم وتأثيرهم على قلة من الجمهور، وعلى من هم داخل جدران المعاهد والجامعات فى أحسن الفروض.

وصار الذين يصوغون العقل العام والذوق العام نوعا جديدا من «رجال الأعمال» يطبعون الكتاب كمشروع تجارى، ويرسمون خطة إبراز نجم أو ترويج اسطوانة بدراسة السوق ووسائل الاعلان الحديثة.

وإذا تساءلنا بعد ذلك عن مظاهر العنف فى عالم اليوم، أو رواج ثقافة الاباحية والانحلال، فإنها تعود بدرجة أساسية إلى تسابق «منتجى الفكر والفن والذوق» الجدد، على إرضاء أوسع فئة من الناس..

وتكفى المرء وقفة اليوم أمام واجهة مكتبة فى طريق عام. أو فى مطار، أو فى محطة قطار. ليجد رفوف المكتبات حافلة بألوان من الكتب، بأسماء كتاب صاروا جماهيريين، وكتبهم تطبع بالملايين. وتتحول إلى أفلام يراها عشرات الملايين. كتب أحيانا فى الجنس. أو فى المغامرات السياسية أو الجاسوسية. أو الأسرار الشخصية. هل هى كتب أقرب إلى

الصحافة المثيرة، أم هي نوع جديد من الانتاج «الأدبى والفنى» سيعيش معنا زمنا طويلا؟. ولكن لا يعيش معظمها في السوق إلا زمنا قصيرا. في حين أن الأعمال الأدبية التى تعيش مائة أو مئات من السنين لا نكاد نجد مثلها في قوائم الانتاج الحديثة اليوم.

ونفس الأمر ينطبق في ساحة العلوم التطبيقية...

ففى ساحة العلوم التطبيقية هناك طبعا المبرزون، ولكن عملية البحث العلمى والاختراع لم تعد فردية، ولكنها في عصر ما بعد الثورة الصناعية، صارت عملية يشترك فيها المئات بل والآلاف من العلماء المتخصصين في فروع شتى من العلم، لأن التسارع إلى تطبيق نتائج الأبحاث العلمية، وتحويلها إما إلى أسلحة في ساحة التنافس الدولى وإما إلى سلع في ساحة التنافس التجارى جعل عملية الاختراع ذاتها أشبه بعملية الصناعة، فهى «إنتاج مخترعات» على نطاق كبير، لا تقوى عليه إلا مجموعات لا أفراد، ودول بعينها هي الدول التى لديها رصيد ضخ من رجال العلم ومن المال الضخم اللازم للانفاق على البحث العلمى..

بهذا المعنى، نلاحظ أن مفهوم «النخبة» في العصر الحديث، قد تغير..

وبرغم الأزمات التى صارت تواجه «فكرة النخبة» في حد ذاتها، على الأقل لأنها تتعارض للوهلة الأولى مع فكرة الديمقراطية.. إلا أن دورها باق بشكل ملموس وإن كان متغيرا..

فهى لم تعد تلك القلة القليلة ولكنها ازدادت عددا وانتشارا وتنوعا، سواء في الجامعات أو معاهد الأبحاث أو المؤسسات المالية والاقتصادية والعلمية وغيرها. وهى لم تعد تنبع من خلفية اجتماعية محدودة

ومتوارثة، بل صارت بحكم انتشار تكافؤ الفرص تأتي من كل الفئات الاجتماعية.

ولذلك نرى أن دورها — بهذا المجموع الذي ربما لا تلمع فيه أسماء فردية — يزداد أهمية في عملية التقدم. فالتقدم التكنولوجي كله قائم عليهم، وهو الثورة ما بعد الصناعية.

وبالتالي صار ضروريا أن تتوافر للنخبة البيئة والتسهيلات اللازمة، ابتداء من دار للفنون الرفيعة كالأوبرا، إلى أرقى معامل البحث العلمي.. لأن النخبة مع تقدمها وقيامها بدورها تجر وراءها تدريجيا سائر الجماهير..

وإذا كانت هذه نظرة شاملة على وضع النخبة بوجه عام في العالم، فلا بد من الإشارة إلى الوضع الخاص بالنخبة في دول العامل الثالث..

في العالم الثالث نجد الأمية هي الغالبة وبالتالي فالاعتماد على وسائل المعرفة السمعية والبصرية أكبر. ونرى أن امكانيات متابعة النخبة للتقدم العلمي غير متوافرة ابتداء من مجالات البحث العلمي إلى أحدث المطبوعات والأفكار والتيارات. والسلطة السياسية في أماكن كثيرة لا تعترف بهم لأنهم ليسوا كتلا عددية كبيرة تملك للسلطة السياسية نفعا أو ضرا.. ولأن هذه النخبة إذا احتاجت إلى أشياء تراها لازمة لها — ابتداء من المعامل المتقدمة وانتهاء بدار أوبرا أو مسرح تجريبي — يصبح الأمر صعبا، لأنهم يطلبون هذه الأمور التي تبدو أنها لن تخدم سوى عدد قليل إزاء مجتمع أغليبيته الساحقة في حاجة ماسة إلى الأساسيات.

ولو ذكرنا مشكلة هجرة العقول التي نتحدث عنها دائما فهي ليست

إلا وجها من وجوه هذه المشكلة، فكثير من أفراد النخبة يجدون أنهم لن يحققوا ذاتهم وامكانياتهم إلا في بلاد غير بلادهم.

وبعض أفراد النخبة معذورون. وبعضهم يببالغ في ذلك. إذ يتصرف على أن ثقافته وعلمه وكفافته أمور يجب أن «يكافأ عليها» من مجتمعه، مكافأة مبالغاً فيها، ولا يرى الجانب الآخر، وهو أن كونه من النخبة يلقي عليه مسئولية إزاء وطنه أو قوميته. فالنخبة في العالم الثالث متميزة بالحيرة والتمزق النفسى. بين البقاء أو الجلاء، بين المكافأة أو المسئولية. وبين الاعتراف به أحيانا في أماكن بعيدة وعدم الاعتراف به في وطنه.

هذا رغم أن النخبة دورها مطلوب أكثر في البلاد المتخلفة والنامية، ما دام أنه دور ليس فيه استعلاء، وإنه دور لجذب القاعدة الواسعة من الجماهير إلى مستويات أرقى من الحياة والثقافة والاستنارة والعادات والتقاليد.

ولهذا لابد للمجتمعات النامية أن تفهم وتدرك جيدا أن النخبة بمعناها العصرى الجديد، هي أحد أهم أسلحتها في التقدم، وإنها بالتالى لابد أن توفر للنخبة من أبنائها ما تستطيع من امكانيات في حدود طاقتها طبعاً، حتى ولو كانت داراً للأوبرا..

وكلما تقدمت دولة أدركت أكثر وأكثر قيمة النخبة..

نابليون بونابرت على شهرته العسكرية ترك لفرنسا شيئاً أهم وهو مدرسة البوليتكنيك التى تختار أبرز الممتازين من الشباب لقيادة التقدم فى فرنسا فى شتى المجالات..

وأعاد ديجول الكرة، فكان أهم ما تركه لفرنسا معهدا يمكن تسميته
«المعهد القومي للإدارة»، ولكنه في الواقع يختار أنبغ الخريجين من كل
المجالات ويمتحنهم في قسوة شديدة، ويفتح أمامهم بالذات سبل الوصول
السريعة إلى مراكز الصدارة في شتى مجالات الحياة في فرنسا.

كلمات فقدت «سمعتها» في حياة لغتنا الجميلة ! الموضوعية... العقلانية... الواقعية... لماذا صارت كلمات رديئة؟

اللغة لم تكن أبدا «محايدة». والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معانى الجدية. وأحيانا تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها تحمل لدى الناس كل معانى السخرية، والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة.

ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذى دفعنا نحن العرب إلى الاتفاق من هذه اللغة بأسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في أتون الأحداث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزا ما في هذا النوع من «العملة»...

وإذا كانت الكلمات من «القاموس السياسى» للغة، فهي أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيرا ما تكون عرضة للاستخدام الخاطئ المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة. أو للاستخدام في مجرد تخدير الرأى العام. فتفقد أعز الكلمات معناها، أو بمعنى أصبح تفقد «وقعها» على النفس، وهى القيمة الأساسية للكلمة..

ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة، مثل «الوحدة» أو «الثورة»
أو «الديمقراطية»..

كلمات كبيرة جدا لكن بعضها لحقه «الاجهاد» من كثرة الاستعمال
اللغوى، وانعدام الاستعمال الفعلى!..

قبل عشرين سنة مثلا كانت كلمة «الوحدة» تحرك أعماق المشاعر لدى
ال جماهير. ولكن الآن وقد فشلت أكثر من وحدة، وصار كل تقارب يسمى
وحدة. وليس على مستوى الاقطار فقط. ففي داخل القطر الواحد صار
حتى تحقيق الوحدة الداخلية أمرا مطلوبيا وعزيزا أو صارت الوحدة
الوطنية – لا القومية – بعيدة المنال كما في لبنان وغيرها.

وإذا تركنا الوحدة بمعناها السياسى الدولى، نجد أنه يكاد لا يوجد
مشروع اقتصادى واحد، له طابع التكامل الوجدوى، رأى النور حتى
الآن. رغم توقعات الدول العربية المختلفة عليه.

وفي الخليج مثلا نسمع دائما عن وحدة العملة الخليجية مثلا، وهو
أمر يكاد يكون بديهيا. خصوصا من الناحية الاقتصادية المصلحية
وليست السياسية. قدول الخليج روابطها وثيقة جدا، وأهلها أبناء عمومة
بكل المعانى النفسية والتاريخية. واقتصادها كلها يقوم على سلعة
أساسية واحدة هي البترول. فهذا نوع من الوحدة يتم بقرار لا غير.

لم تعد لكلمة «الوحدة» إذن سخونتها القديمة. صارت لا تحرك شعرة
في رأس أى مواطن عربى. الكل يتحدث عن الوحدة فلا يوجد في الظاهر
من هو معها، ومن هو ضدها. لم تعد تثير نقاشا ولا بحثا ولا عراكا.
وضعت في الثلاجة العميقة، وهذا أحسن الممكن على أى حال، حتى
تبقى صالحة للاستعمال ربما بعد وقت طويل، بدلا من أن تفسد نهائيا...

ونفس الشيء لحق كلمة «الثورة». صارت في لغتنا وصفا يطلق على أول دبابية تصل إلى محطة الاذاعة وتعلن البيان رقم واحد! وصارت في افئدة الناس العاديين مرادفة لأي حكم عسكري!

وأيضاً كلمة ديمقراطية. ألا يوجد لها عشرون تطبيقاً على الأقل؟ هل يسمى أي نظام نفسه بغير هذا الوصف؟.. وأنواع الديمقراطية لا بد لها أن تتمدد، فلن يصلح للعالم كله ديمقراطية واحدة، ولكن ألا تحتاج كل «ديمقراطية» احتراماً للكلمة إلى تعريف وثيق لها في كل مكان، يمكن حساب أهلها عليه؟

على اننى أريد أن أقف أساساً في هذا الحديث، عند نوع آخر من الكلمات التي «فقدت سمعتها» بطريقة أخرى. بالطعن فيها والسخرية منها وتشويهها. هذه كلمات فقدت سمعتها بنوع من الارهاب الفكرى، حتى صارت خافضة جناحها من الذل أمام صيحات كصيحات الهنود الحمر، الذين إذا لاحت لهم، رشقوها بكل ما لديهم من سهام..

كلمات مثل: «الموضوعية» و«الواقعية» و«العقلانية».. هذه الكلمات مع الأسف فقدت سمعتها تحت وطأة الارهاب الفكرى الهائل...

إرهاب فكرى ساد فترة من الزمن خلاصته: أن من لا يتبع السرائى «السائد» إعلامياً فهو متخاذل! وأن المطلوب من الكتاب هو ترديد الشعارات دون محاولة الذهاب إلى أبعد من ذلك خشية «بلبله الجماهير». كأن الجماهير في مرحلة طفولة، ولا بد من شغلها عما حولها بالزعيق والصراخ، فهي لا تفكر أو لا تصلح إلا لهذه الألعاب النارية الملونة! وبالطبع: من يزيد في الضجة المتزايدة ومن يطلق فرقعات مدوية ملونة أكثر، هو الذى يفوز بأكبر عدد من المتجمعين في «مدينة

الملاهي، الصاخبة!

في هذا الجو، كان لابد أن تداس بالأقدام كلمات مثل «الموضوعية» و«الواقعية» و«العقلانية»...

وفي نفس الوقت لابد أن نسجل أن هذه الكلمات «فقدت سمعتها» بسبب نوع آخر مقابل من الممارسة الرديئة فعلا..

فقد عرف التاريخ العربي الحديث طوال الخمسين عاما الماضية - من قاموا فعلا بأدوار الهزيمة والاستسلام والتفاعس... وأطلقوا على أفعالهم تلك كلمات «الواقعية» و«الموضوعية» و«العقلانية»...

الأمر الذي هو كفيل - وحده - بأن يكفر بالرأي العام بهذه الكلمات، أو يضعها في غير موضعها الصحيح من القاموس، ومعه الحق...

ولكن، هل معنى ذلك أن نسقط هذه الكلمات من قاموسنا، وننزع الصفحات التي نتكلم عنها من كتبنا، ونمحوها محوًا من العقل العربي...

مستحيل...

وهذه معركة يجب أن يخوضها كل ذي مسئولية وكل ذي فكر... حتى لو تعرض لاطلاق النار من الجانبين في وقت واحد... من جانب الغوغائية والديماغوجية النشيطة، ومن جانب الانهزامية الحقيقية المتخاذلة. وأنا أقصد الغوغائية والانهزامية ليس في مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن... ولكن على كافة مستويات الحياة العربية... من تقاليد وعادات وثقافة وتحول اجتماعي وتطور انمائي وسياسي.

إن الشعب العربي هو الذي نزل القرآن بلغته... والقرآن أكثر كتاب

مقدس وغير مقدس تحدث عن العقل والعمل والتفكير والتذكير... فمن
المستحيل أن تكون هذه اللغة بالذات هي اللغة التي تفقد فيها هذه
الكلمات سمعتها...

الغرب يتباهى علينا ويعلمنا، أنه أقام نهضته على أساس «سيادة
العقل».. ويذكر لنا ديكارت وقبل ديكارت...

وكتابنا السابق على هذا كله بقرون، هو أول من أقام للعقل سلطانا
عظيما.

وهو أول دين تجيء معجزته في شيء واحد فقط هي: كتاب!
وأول كلمة في وحيه كانت: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان
من علق، اقرأ وربك الاكرم، الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم).
وأكثر ما يخاطب في سطورهِ وآياته، يخاطب العقل.. ويفرق بين ذوى
العقول وسواهم...

(وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير).

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون).

(تصحبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون).

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا).

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

وما معنى العقلانية والموضوعية وغيرهما من المصطلحات الحديثة،
إلا: استخدام العقل؟

إذا نزعنا عن هذه الكلمات أريدتها السيئة التي أساءت إلى سمعتها،
وبحثنا في معانيها التي صكت من أجلها، فماذا نجد؟

أليست «الموضوعية» مثلاً.. هي البدء في كل أمر بدراسة
«الموضوع»؟... والموضوع بالنسبة للعالم حقيقة طبيعية مثلاً. وبالنسبة
للقائد العسكري الخريطة الدقيقة لساحة المعركة بهضابها ووهادها،
وتقدير قوته، وقوة العدو قبل الصدام؟ وبالنسبة للسياسي دراسة علاقات
القوى السياسية في موقف ما، وحشد الطاقات المتوافرة لمواجهة هذا
الموقف، ورسم خطة للتحرك.. إلى آخره..

وما معنى الواقعية إلا أنه يجب أن تكون دراستنا «للموضوع»
دراسة واقعية، مستندة إلى الواقع لا إلى التمني، لأننا - ككل الناس -
مرغمون على التعامل مع واقعهم وليس مع تمنياتهم.

والخضوع للواقع أمر... وتغييره أمر آخر. وفي هذا يختلف فكر
الناس، ومدى همهم، وجدوى حساباتهم...

وأعظم الذين غيروا وجه التاريخ، كانوا أعظم الواقعيين. لأن اختراق
طرق التغيير يقتضى معرفة الطريق الممهد، من الطريق الوعر، ومن
الطريق المسدود تماماً!

وقد يبدو تصدى هؤلاء لمهمة التغيير في البدء مستحيلة. ولكن
المستحيل وقع. ذلك أنه لم يكن مستحيلاً، إنما العظماء الذين يغيرون
الواقع يرون من خبايا هذا الواقع وفي ثناياه ما لا نراه، وبالتالي فهو
ممكن. وعلى هذا الأساس ينهضون للعمل. ويقع المستحيل، الذي لم

يكن مستحيلا. لأن المستحيل حقا لا يقع...

إن اللغة تترك أثرها في ضمائر الناس، وتشكل أحيانا طريقة تفكيرهم...

وقد ذهب كاتب عربى كبير - عبد الله القصيمى - إلى حد إصدار كتاب عنوانه «العرب ظاهرة صوتية!.. لا أوافقه عليه.. ولكن الصحيح فيه ربما قول بعض المستشرقين أن العربى إذا «قال» شيئا، تتحقق له راحة من «فعل» الشيء. وذلك موضوع لصيق بحديثنا. لكنه يحتاج تأملا آخر...

إنما القضية المطلوبة هنا فقط أن نعيد للعقل مكانته فى حياتنا العربية. ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته فى نفوسنا، إذا بقينا نسخر من الكلمات الداعية إلى استعمال هذا العقل...

اللغة العربية سياسة وحضارة واستراتيجية معا!

● هذا الموضوع يلح على خاطري كثيرا...

ولعلني كتبت عنه قبل ذلك، ولكن أحداثا كثيرة متنوعة تسوقه دائما إلى ذهني.

ذلك أنه موضوع تعليمي، ثقافي، سياسي، حضاري، فكثير من الأحداث أو الأنباء التي تقع، على اختلافها وعلى تباعدها الشديد، في موضوعاتها وفي مظاهرها، تزيد هذه القضية - التي اعتبرتها استراتيجية - في ذهني اشتعالا..

ولا أملك إلا أن أسأل نفسي: هل ما زال العالم العربي، بتمزقاته، وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومه، قادرا على أن يخصص من عقله وماله ورجاله، جزءا يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجي الضخم؟ أو أن ما سيقوله أي كاتب في مثل هذه الأمور يعتبر «ترفا» لا نقوى - ونحن مشغولون بما نحن فيه - على التفكير والتدبير والعمل؟ بل مجرد إدراك أهميته؟...

إن الموضوع عنوانه «اللغة العربية»، ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والاعراب. ولكن جوهره «اللغة»، كسلاح، أو كعنصر استراتيجي، يحيي الأمم ويميتها، ويقيم الحضارات ويهدمها، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسية للعالم...

مثلاً...

تتفاقم قصة الصراع في القرن الأفريقي.. فيخطر على بالي، من بين عواملها الكثيرة، قضية اللغة العربية!

أو.. يصدر في دولة باكستان قانون يجعل دراسة اللغة العربية الزامية كلفة ثانية في كل المدارس فأتذكر القضية...

أو.. تبدأ الصراعات الدولية في الوصول إلى الحزام الأفريقي، في منطقة «التداخل والتماس» بين العالم العربي والعالم الزنجي.. مثل تشاد وغيرها، فأتذكر القضية...

أو.. أتابع تطورات حل مشكلة جنوبي السودان...

أو.. أتلقي دراسة مفصلة، من لندن، عن فرقة «إنجليزية» تخصصت في ترجمة المسرحيات العربية الحديثة - لكتاب مثل الفريد فرج - وتقديمها للجمهور الانجليزي.. مشفوعة باقتراح خلاصته «إذا كان العرب يشترون العمارات والفنادق والشركات في إنجلترا وغيرها.. فلماذا لا يشترون مسرحاً في لندن؟» تقدم عليه هذه المسرحيات على نطاق أوسع، وتعرض عليه الفرق العربية لمليون عربي تقريبا في لندن وما حولها.. وتفاصيل تبدو أول الأمر طريفة ولكن تأملها يكشف عن جديتها وأهميتها!

أو.. أتلقي التقرير السنوي للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) ومحاولتها وضع استراتيجية للثقافة العربية.. وما لديها ملايم.. إذا قيس إلى «ما يمكن» أن يكون لديها من ملايين.. لو تأملنا الأمر من زاوية أخرى..



هكذا، من صراع عالمي معقد رهيب في القرن الأفريقي.. إلى فكرة فردية خلاقة عن مسرح عربي في لندن.. حيثما أتجه أو أتابع، أجد هذه القضية تفرض وجودها، قضية اللغة، مرة أخرى، ليس لمجرد أنها لغة نعتز بها.. بل بوصف أن اللغة لها تلك الآثار الحياتية في تشكيل العالم، التي أسلفت ذكر بعضها.

إننا نعرف أن القوميات لها مقومات عديدة. من وحدة التراث، ووحدة التكوين النفسي، والتلاحم الجغرافي، إلى أخرى. ولكن لعل أستاذنا المرحوم ساطع الحصري كان أهم من أبرز أن عنصر وحدة اللغة يلعب الدور الأكبر بين هذه العناصر كلها في توحيد أمة ما.

ذلك أن اللغة الواحدة هي - من ناحية - عنصر أساسي في حد ذاته، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل. ولكنها - من ناحية أخرى - هي المفتاح الأكبر لسائر العناصر. فوحدة التراث والتاريخ مثلا تكون بالتأكيد أقوى وأمنع وأقدر على مقارعة القرون إذا كانت محفوظة في وعاء لغة واحدة.

والتكوين النفسي الواحد ماذا يصنعه؟ ربما جغرافية واحدة، وبيئة واحدة. وربما أصول تاريخية واحدة، وعقائد واحدة، أو متشابهة، ولكن المؤكد أن عنصر الأدب الواحد والفن الواحد - في أصوله - وأدوات التعبير الواحدة تلعب الدور الأساسي، وهي لا تتوافر إلا بلغة واحدة.

.. ونحن هنا لا نتحدث عن اللغة فيما يتعلق بالقومية العربية. فلا توجد هنا مشكلة تقريبا. والاحساس بها بديهي. فما كانت الجزائر مثلا لتعود عربية حقا إلا ببرنامج التعريب الجبار فيها، حتى تجتث جذور مائة وخمسين سنة من محاولات الفرنسية، وطمس اللغة العربية.

ولكننا نتحدث في أوسع من الحدود القومية...

وهنا نجد أن اللغة الواحدة، لا تصنع بالضرورة قومية واحدة.

فانجلترا مثلا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها هي الانجليزية. ولكنها ليست قومية واحدة رغم أنها تكاد تكون من أصل عرقى واحد. ومع ذلك، وهذه هي قضيتنا هنا، لا شك أن وحدة اللغة أوجدت «علاقة خاصة» و «روابط خاصة» بين هذه البلاد على تباعدها الجغرافى الهائل....

ولم أذكر كندا لأنها نموذج أكثر دلالة. فلأن كندا فيها لغتان - إنجليزية وفرنسية - واحتفظت بازواجية اللغة. ورغم أن كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقتضى أن يظل كندا بلدا واحدا. فإننا نجد الآن، وفي أواخر القرن العشرين، حركة انفصالية عنيفة، من مقاطعة «كويبك» ضد سائر كندا، لأنها المقاطعة الفرنسية اللغة.

مرة أخرى لأن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب. اللغة هي وعاء الفكر ووعاء العاطفة معا. فالفرد الكندى في كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط. إنه «يفكر» بالفرنسية و«يشعر» بالفرنسية. حتى صارت روابط كويبك الثقافية والتعليمية مع فرنسا، عبر المحيط الأطلنطى، أقوى من روابطها مع عاصمة دولتها «أوتاوا».

والامة العربية تتميز بوضع خاص وفذ.

ذلك أن القرآن - الكتاب المقدس لأغليبيتها الساحقة - نزل باللغة العربية. وقد امتد الاسلام إلى أمم وشعوب وقوميات أخرى، صحيح أنها لا تتكلم اللغة العربية. ولكن الاسلام حمل إليها بالتأكيد روائع اللغة

العربية. ولقحها بها. وجعل لهذه اللغة حتى عند غير أهلها «مكانة» خاصة. وأحياناً «قداسة» خاصة. لأنها لغة كتابهم المقدس.

ونحن نرى.. إلى أى حد حاربت دول لتفرض لغتها بالقوة. وأنفقت المال لتفرض لغتها بالاغراء وجاهدت القرون لقلب اللسان المحلى إلى لسان أوديبى. ولم يكن هذا حماقة ولا عبثاً، فانتشار اللغة من أقوى أسلحة انتشار النفوذ المعنوى، والمشاركة الوجدانية، والتأثير العقلى...

وحين استقلت أفريقيا مثلاً، صرنا نرى ما يسمى بكتلة أفريقيا الفرنسية، وكتلة أفريقيا الانجليزية، ليس على أى أساس سوى نوع المستعمر الذى فرض لغته على البلاد التى كان يحتلها. وأثار هذا النفوذ موجودة إلى الآن فى التجارة والسياحة والتعليم والنظرة إلى الغد... إلى آخره.

وما هو الشيء الذى يجعل جريدة إنجليزية، أو وسيلة إعلام غربية كما نقول، لها هذا النفوذ الهائل؟ إنه انتشار لغتها، ووجود من يقرأ بها، فى أى عاصمة من عواصم العالم بأجمعه.



والامة العربية - ليست ككيان سياسى فقط، بل ككيان حضارى أيضاً - لديها فرصة نادرة، لأن تكون لغتها سلاحاً من أمضى أسلحتها فى كل معاركها، ووسيلة خلاقة للمساهمة فى صراع الحضارات العالمية الراهن... أو «الحوار بين الحضارات» إذا شئنا أن نختار التعبير المذهب للمفكر الفرنسى روجيه جارودى.

ولا أريد أن أدخل فى بحث لغوى تاريخى معقد عن العائلة التى تنسب إليها اللغة العربية. ولا عن تأثيرها وتأثرها. فليس هذا ميدانى.

وهو أمر له أصحابه وأهل العلم فيه. ولكن يمكن القول ببساطة ودون الوقوع في خطأ، إن الشعوب الإسلامية، المتأثرة بالتالي باللغة العربية، تنقسم إلى قسمين...

* شعوب لها قوميات قديمة، ولغة حضارة حية، يتكلم بها عدد كاف من الناس. مثل إيران.

* وشعوب لها لغات مشتتة، أحيانا غير مكتوبة أو مستوعبة للغة الحضارة. كشأن الكثير من مناطق آسيا وأفريقيا المبعثرة. التي كانت إلى وقت قريب قبائل وليست دولا ولا شعوبا بالمعنى الكامل.

ولنتأمل، على سبيل المثال الحرب القائمة في القرن الأفريقي، والتي وصل المشتركون فيها من روسيا شرقا إلى كويا غربا، أو المال الأمريكي والسلاح الأمريكي من قبل ومن بعد. وفي منطقة حساسة جدا بالنسبة لما نسميه «العالم العربي»..

ولقد احتلت إيطاليا الصومال وأثيوبيا وإريتريا معا زمنا طويلا، انتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية..

وفي الصومال استقرت اللغة الإيطالية، وأريد لها أن تمحو اللغة العربية تماما، كما حاولت فرنسا في الجزائر، إدراكا من تلك الدول الأوروبية أن إقامة حاجز اللغة هو إقامة الساتر الحديدي الطبيعي النهائي بين شعب وجيرانه. وصار من قبل ذلك الصومال صومالا إيطاليا وصومالا فرنسا وصومالا إنجلترا وصومالا أثيوبيا هو مقاطعة أوجادين.

وبعد الحرب العالمية الثانية أضيف لأثيوبيا - فوق الأوجادين - إريتريا. وعادت فرنسا إلى الصومال الفرنسي «جيبوتي». ووضع الصومال

الرئيسي - الايطالى - تحت وصاية الأمم المتحدة لفترة يعقبها الاستقلال.

ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية: مصرى وإيطالى وانجليزى.

وأهم معركة قامت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة. فتقرير نوع اللغة التى سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو من تقرير هويته واتجاهه الحضارى وتكوينه النفسى.

وكان هم العرب أن يختار الصوماليين اللغة الايطالية، فهى لغة أوروبية على أى حال. ويصماتها بعد الاحتلال كانت قوية. وكل شباب الصومال كانوا لا يتعلمون إلا فى جامعات إيطاليا. ولكن الرغبة الشعبية العارمة كانت فى اختيار اللغة العربية. ولأن مندوب مصر فى لجنة الوصاية الدولية كشف كل المناورات، قتل اغتيالاً، ومات السفير كمال الدين صلاح شهيداً لهذه القضية، وأقام الشعب له تمثالاً فى عاصمة الصومال.

وكانت مطاردة اللغة العربية هدفاً أهم. فأوجد الغرب من يدعون إلى اللغة السواحلية، تحت ستار إثارة نكرة إقليمية. ورغم أن الاستفتاء دل على تقضيل الشعب للغة العربية، فقد أثر الغرب تقرير اللغة السواحلية، أملاً فى انقراض اللغة العربية هناك ذات يوم.

وحين دخلت الصومال، جامعة الدول العربية، كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب. لأنها جامعة دول «عربية».

ولأن أثيوبيا لم تنتبه إلى أهمية القضية كأوروبا، فقد عاشت اللغة العربية - مع السواحلية - فى الأوجادين خمسين سنة. والصور نفسها، مع اختلاف فى طول الفترة، فى إرتيريا.

ومن اتصل بهذه الحركات، وقابل زعاماتها، وشبابها المثقف، يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائج وحوافز الأمل في التحرر واسترداد شخصيتهم.

وإننى لأسمع لنفسى أن أروى ، أننى منذ سنوات، وقبل قيام هذه الصراعات بأشكالها الحالية، حين كان السودان على وشك الانقسام في الحرب في الجنوب.. في تلك السنوات، قلت لبعض زعماء وحكام الدول العربية، الذين لديهم الامكانيات الهائلة : إن هناك خدمة بسيطة جداً، ولكن أثرها الاستراتيجى بالنسبة للأمة العربية.. والأمن العربى.. لا يقدر بثمن، وهو الاتفاق، والتضال، من أجل نشر اللغة العربية، على طول الحزام الإسلامى في أفريقيا... وحيث لا توجد لغات محلية متكاملة.

السنغال.. مالى.. وسط أفريقيا.. تشاد.. غينيا.. شمالى غانا ونيجيريا.. جنوبى السودان.. الصومال بفروعه المبعثرة..

هذا الحزام، كان من حظى أن أذهب إلى بعض مناطقه، في أول أيام استقلال تلك المناطق، وانهدم الحاجز الذى كان يمنعنا منعاً من الذهاب إليه... ورأيت لهفة الناس إلى اللغة العربية.. لغة كتابهم المقدس.. لغة عباداتهم وصلواتهم.. وأحياناً لغة جيرانهم الأقدمين وشركائهم في التجارة عبر طرق القوافل التى شقها العرب قديماً.

هذه اللغة أقرب إليهم. وأسهل لهم. ولم تفرض يوماً بالقوة عليهم. إنها ليست الانجليزية ولا الفرنسية ولا الإيطالية ولا الألمانية مما تعاقب عليهم.

وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات محدودة في هذا المجال.

ولكن وجه الخطأ كان في أنها ركزت على تدريس اللغة فقط. أو تدريس الدين فقط.

ولكن من زار هذه البلاد - ميدانيا - يجد أن هذه الشعوب على درجة من التخلف تجعل الناس فيها محتاجين أشد الحاجة إلى ما يغير حياتهم. ومن هذه الزاوية دخلت إسرائيل في تلك الأيام بسهولة ويسر: كانت تعلم الناس حرفا يدوية تلائم البيئة. أو طرقا حديثة مبسطة لزراعة الأرض البالغة الخصوبة. فيتغير مستوى الفرد ودخله ووضعه. بينما من تعلم اللغة فقط وترك كما هو في الغابة لم يستفد شيئا.

ثم إنها، على أية حال، كانت مجهودات قليلة وتجريبية تقريبا.

ومن هنا - فيما أذكر - نشأت فكرة تطوير الأزهر في مصر. ليخرج منه رجل الدين واللغة والعلم معا: الطب مثلا ليعالج أو الهندسة الزراعية ليعلم، إلى جانب تلبية حاجات الناس السروحية المعنوية المتعطشين إليها تعطشا شديدا. ولكن الأمر في تطوير الأزهر خرج عن فكرته الأولى، وتحول إلى جامعة أخرى بين الجامعات العديدة.

ولكن الآن وقد توافر للعرب المال الهائل. وقد افتتحت أفريقيا وآسيا أمامهم وأقبلت عليهم. فلم يعد لنا عذر في هذا المجال.

وإن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحث حقا في هذا وتلمس وضع استراتيجية لها. ولكن بملايم؟

إن نصف الملايين التي تنفق في شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التي يحققها استخدام سلاح اللغة العربية في آسيا وأفريقيا إلى أقصى مداه.

لا يكفي أن نستصدر قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها بساكنار اللغة العربية لغة رسمية من اللغات العالمية.

المهم أن نجعل هذا واقعا أقوى، وأقوى ، كل يوم....

من بنجلاديش شرقا.. إلى الشاطئء الأفريقي غربا.. أرض وشعوب أخصب ما تكون لتلقى اللغة العربية وتحويلها إلى لغة أصلية لها مع الزمن.

وهذا نضال وكفاح لا يقل شرفا عن أى نضال آخر.. فى صراع الحضارات الراهن والمستقبل أو - مرة أخرى - فى حوار الحضارات كما يحب أن يقول روجيه جارودى...

وهذا كله وجه واحد من وجوه سلاح اللغة. هو واجب، وهو مسئولية أيضا. وهو عمل حضارى فوق كل شىء. وللأمر وجوه أخرى كثيرة.

لغة الكلام ولغة العمل ولماذا لا يهتم العرب إلا بالعلاقات السياسية بين الحكام فقط؟

■ كلنا سمعنا عن مشروع شق قناة تحت بحر المانش، لتربط الجزر البريطانية لأول مرة بالقارة الأوروبية. وهو مشروع كفيل بإحداث انقلاب هائل في حياة الاثنين. وكلنا سمعنا عن مشروع إنتاج طائرة الكونكورد، أول طائرة نقل مدنى أسرع من الصوت، وقد تم إنتاجها بمساهمة من المال والخبرة الفرنسية والانجليزية معا. وقد تم هذا عندما كان ديجول يحكم فرنسا، ويخالف انجلترا، ويعارض دخولها السوق الأوروبية المشتركة. وكلنا نعرف أن نهر الدانوب في أوروبا يمر بحوالى ست دول أوروبية، وأن كل المشروعات الخاصة به كطريق للملاحة تتم بالاتفاق بينها، ولم نسمع مرة عن خلاف في هذا الشأن، رغم أنه يمر بدول شيوعية ودول رأسمالية ودول محايدة كالنمسا.

ومنذ مدة، أعلن عن مشروع جديد هام، سوف يبدأ تنفيذه قريبا، لشق قناة بحرية تربط أنهار فرنسا المفتوحة على البحر الأبيض بنهر الراين - ألمانيا وبلجيكا وهولندا - المفتوح على بحر الشمال، وبذلك يخلق طريق ملاحى جديد من البحر الأبيض إلى بحر الشمال مباشرة دون الالتفاف حول اسبانيا من جبل طارق..

.. أكثر من ذلك أننا نرى مشروعات ضخمة جديدة، مثل مد أنابيب تنقل الغاز بين دول بينها توترات مثل إيران وروسيا، ومشروع آخر لخط

أنابيب ينقل البترول الروسى إلى غرب أوريسا، رغم أن كلا منهما فى معسكر..

لماذا أسوق هذه الأمثلة التى يوجد الكثير غيرها؟ وما هى العبرة المطلوبة من هذا السرد؟..

.. أريد أن أقول إن هذه الدول التى سبقتنا فى مضمار النضج السياسى والاقتصادى والفكرى، أدركت أن الخلافات السياسية لا يجوز أن تحول دون وجود مصالح مشتركة، إذا كانت تعود اقتصاديا بالنفع على شعوبها. فالحكام يروجون ويجيئون. والسياسات تتغير وتتبدل. ولكن مصالح الشعوب باقية ومستمرة وهى الأساس فى كل سياسة. ومشروعات التعمير الكبرى التى تغير الجغرافيا نفسها أحيانا هى التى غيرت وجه الحياة على مر الزمن.

.. فإذا جئنا إلى بلادنا العربية، لا نجد شيئا من هذا.. إنما نجد منطقا عكسيا تماما.

والبلاد العربية تقول انها تمثل أمة واحدة. وإن طريقها الطويل إلى الوحدة هو سبيلها الوحيد إلى التقدم. وأن التكامل العربى فى كل المجالات الممكنة هو الذى يضاعف ثروة العرب وقوتهم وتأثيرهم على العالم.

ومع ذلك فالحكام والحكومات يسلكون مسلكا آخر تماما.

فإذا اختلف حاكم مع آخر، أو حكومة مع أخرى على قضية سياسية ما، سرعان ما ينعكس هذا فورا على القليل النادر من هذا النوع من الروابط العضوية. إما أن تغلق الحدود. وإما أن تقفل المكاتب التجارية أو المعارض الصناعية لدى الدولتين المختلفتين. وإما أن توضع القيود

على حركة المواطنين. وإما أن يوقف تنفيذ الاتفاقات التجارية.

وتعود الأوصال القليلة إلى النقط. وتعود الدورة الدموية — فيما نزع أنه جسد واحد — إلى التوقف. ولا تشعر المشروعات المشتركة بالأمان. وقد تطمئن دولة عربية في تخطيطها إلى دول غير عربية أكثر من اطمئنانها إلى دول عربية، لأن الأولى غير معرضة للهزات بينما الثانية معرضة دائما للهزات، وأحيانا للامزجة.

.. ودعك بعد ذلك من أن الجانب الإيجابي، وهو المشروعات المشتركة وخطط التكامل، كلها مشروعات على الورق، أو عناوين في الصحف، تمر بالسنوات دون أن ترى النور في قليل أو كثير.

إن أجهزة التخطيط في إسرائيل، قامت بعد حرب ١٩٦٧ بإعداد كتاب شهير عن المنطقة سنة ٢٠٠٠ على أساس أن إسرائيل صارت مفتوحة تماما على العالم العربي. وبترك جانب هذا الجانب السياسي. ولكن المهم أنهم حين طرحوا على أنفسهم هذا السؤال نظروا للمنطقة نظرة واحدة شاملة، ودرسوا أين يكون المال وأين توجد الثروة الطبيعية، وأين توجد الثروة البشرية وأين توجد الأسواق.. الخ. وتصوروا منطقة تتخصص أقطارها فيما يناسبها وفيما يتكامل مع غيرها.

وقد ردت مؤسسة الدراسات الفلسطينية بوضع كتاب مقابل تعرض لنفس الموضوع عن دور إسرائيل. ولكن المرء يشك في أن المسؤولين العرب قد اطلعوا مجرد اطلاع على هذه الدراسة.. دعك من محاولة الدعوة لها والعمل من أجلها.

ونحن نقول إن بلادنا العربية فيها كل شيء: الخامات. المعادن. المياه. الأراضي الصالحة للزراعة. المناطق الصالحة للسياحة. الأيدي

العاملة والسوق المستهلكة. الشواطىء التى تسطل على عدة بحار ومحيطات. ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان مبعثراً؟..

إن أحد أسرار قوة أمريكا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، أن كل دولة منهما تتميز بوجود كل هذه المقومات جميعاً داخل حدودها. بعكس الدول القوية التى هبطت للدرجة الثانية، إذا كان لديها شىء وليس لديها أشياء.. فانجلترا لديها الفحم والصناعة، ولكن ليس لديها الزراعة. واليابان لديها الخبرة واليد العاملة، ولكن ليس لديها فحم ولا حديد ولا بترول. والمانيا فيها الحديد، ولكن ليس فيها بترول أو سواد أخرى كثيرة.. وهكذا.

وهذا الشرط غير متوافر الآن بعد روسيا وأمريكا إلا فى العالم العربى. وهو حقاً ليس دولة واحدة، ولكن هامى دول أكثر تباعداً كدول أوروبا تعوض نقصها بالتكامل رغم الخلافات وتغير الحكومات واختلاف النظم.

والعرب لا يتحركون فى هذا الاتجاه.

موضوع قديم؟.. ولكنه إلى أن يبدأ فى التحقيق فهو جديد!

والأمر يحتاج فوق الامكانيات إلى خيال. خيال مبنى على العلم والتنبؤ الصحيح والتجرد من الهوى.. والارتفاع عن الاقليمية..

ويحتاج قبل ذلك إلى أن نعرف أن هذا حق الشعوب. وحق المستقبل العربى فى عالم يتحرك بسرعة مذهلة.

ويحتاج على الأقل إلى ألا تكون هذه الأمور صريعة للخلافات

السياسية.. وأحياناً تغير الأمزجة.. والوسيلة؟
أن يوجد رأى عام عربى قوى يضغط فى هذا الاتجاه، ويسرفض كل
تصرف سواه!

* * *

نحو.. نظرية أمن عربية شاملة

لست أحب أن يظن القارئ العزيز، إننى أنظر إلى المستقبل العربي نظرة قاتمة.

كلا. إننى على العكس متفائل بالمستقبل العربي. متفائل باليقظة الشاملة في الضمير العربي العام. متفائل بالتطلعات العربية حتى وإن كانت متعجلة. متفائل بالامكانيات المتاحة للامة العربية ماديا وبشريا، مهما شابها من قوضى أو سوء استعمال أو إهدار.

وإذا كنت أميل إلى جانب التحذير، فإنه لهذا السبب ذاته.. فلو كانت الامة العربية كما مهملا، أو كانت أرضها عاقرا، أو عقلها غافلا.. أو خالية من التطلعات.. إذن لما اهتم بها في العالم أحد، ولما تريض بها عدو، ولا أحاطت بها أطماع.

ولكن بقدر إمكانيات الامة العربية الواسعة، ويقدر طموحاتها المشروعة، ويقدر ما لها من سابق تاريخ يثبت قدرتها على النمو والقوة والابداع، يقدر ما علينا أن نتصور المخاوف التي تثيرها هذه الأمور لدى الآخرين. وما يمكن أن ترتبه هذه المخاوف والتوقعات لديهم من سياسات..

من أجل ذلك فإننى لست أحب أن ينام المواطن العربي على حسرير من الرضا عن النفس، والاطمئنان إلى المستقبل.

إننا مازلنا نعيش في عالم لا تسوده السلوكية الأخلاقية، ولا قواعد

القانون الدولي. ولا مبادئ العدالة الانسانية. نحن نعيش في عالم سيظل
زمننا طويلا تحكمه شريعة الغاب، والظفر والناب.

وإذا كانت بعض العلاقات الدولية تبدو أكثر «تشسذيا» مما مضى،
فهذا مظهر فقط. وتغير في الأساليب لا غير. الأساليب غير المباشرة اليوم
أخطر مائة مرة من الأساليب المباشرة. المواجهات المباشرة كانت على
الأقل ظاهرة للعيان، أما اليوم فأسلحة الفتك بدولة ما أو بمجتمع ما،
ليست فقط محصورة في الأسلحة والجيش، ولكن لها أسلحة أخرى
ما خفى منها هو الأعظم. ابتداء من إفساد الذمم والضمائر على
مستويات عالمية. إلى تأليب عناصر الفتنة والتخريب بأيدي مجهولة خفية.
إلى الإيقاع بين الأخوة والجيران. إلى إثارة الحروب المحلية التي
يستفيد منها طرف ثالث بعيد. دون أن تتلوث يدها.

ورجوعا إلى ما سبق أن قلته في هذه الصفحات، وكررته، من أن ثمة
حربا صليبية شاملة - بالمعنى الحديث - تشن حاليا على العالم
العربي، فإنه لابد إلى التنبيه إلى بعض مظاهر ما نتعرض له بالفعل،
وما يمكن أن يكون مقدمة لأشياء أكبر وأخطر، في المستقبل القريب...

خصوصا إنه لابد أن يسجل المرء، مع الأسف، أن كثيرا من دولنا
ومجتمعاتنا والتيارات الفكرية لدينا، تقع في بعض هذه الشراك
المنصوية، دون أن تراها...

إن العالم الأجنبي، خصوصا قواه المؤثرة. والفاعلة عسكريا
واقتصاديا وسياسيا، يهتم بوجه عام أن ينشغل العلم العربي بنفسه،
بصراعاته وخلافاته ومشاكله بشتى أنواعها، وأن يمزق نفسه بنفسه،
بحيث تتعطل قواعده تماما، على الأقل لمدة تتراوح في حساباتهم بين

العشر سنوات والعشرين سنة المقبلة، حسب تقديراتهم للفترة اللازمة إما لاستنفاد النفط، وإما لانتهاء دوره الاستراتيجي كسلاح فعال بظهور المصادر البديلة للطاقة، ولإجهاد الأمة العربية خلال هذه الفترة بوجه عام. بحيث تكون فترة إرهاب واستنزاف وتمزق وضياح، ولا تكون فترة بناء وتعمير وتنوير ووضع أسس القوة العربية الذاتية لقرون عديدة مقبلة.

والزوايا التي تمكن معالجتها كثيرة.

ولكن لننظر مثلا إلى الحدود العربية، أو الجبهات التي على الحدود العربية. فقبل ظهور قوة البترول وتعاظمها. وقبل ظهور إمكانية التضامن العربي عسكريا كما حدث في حرب أكتوبر. وقبل التزام العرب بمساعدة بعضهم البعض بالمال والمواد الاستراتيجية والسلاح...

قبل هذا كله، وطوال ربيع قرن، كانت «الجبهة» الوحيدة التي تشغل بال «الامن العربي» - فضلا عن الحق المسلوب - هي جبهة إسرائيل...

الان ماذا نرى؟...

جبهة إسرائيل اتسعت، واستشرت، وتفاقم خطرها...

.. «ثم هناك جبهة الخليج».. وقد بدأت السفن الحربية الأجنبية تسبح فيها من حين لآخر، ولا يمر يوم دون مئات المقالات في صحف العالم عن المخاطر المحتملة فيها..

.. ثم جبهة «باب المندب» والبحر الأحمر بوجه عام. فالدول الكبرى تسعى إلى إقامة قواعد عسكرية على مقربة من مدخل البحر الأحمر

الجنوبى... وإسرائيل ذاتها تجرب بعض قطعها البحرية، وتحصل على طائرات تصل إلى هناك.. وصار على من يفكر فى الأمن العربى أن يكرس اهتماما كبيرا بأمن البحر الأحمر...

.. «ثم جبهة أفريقيا»... فى المشاكل التى تتعرض لها حدود السودان، المطلة على تسع دول أفريقية، ومحاولات تقسيمه وتمزيقه..

فالجبهات المعرضة زادت. وتعددت. والتحرشات توالى. أو فى القليل إرهابات هنا وهناك تشير بأن مداخل العالم العربى ومفاتيحه الجغرافية، صارت محل إهتمام واضعى الاستراتيجيات الأجنبية، الأمر الذى يفرض على واضعى الاستراتيجيات العربية أن يضعوا هذه الأمور الأضخم، والأوسع، فى حساباتهم الجديدة، بما يلقيه هذا عليهم من أعباء بشرية ومالية ضخمة.

وحين نتأمل هذه الجبهات التى انفتحت علينا، وقد ينفتح غيرها غدا، نجد أن الأمة العربية باتت فى أشد الحاجة إلى نظرية أمن جديدة، وإلى استراتيجية موحدة شاملة للأمن القومى العربى كله.

وحين أقول نظرية أمن عربية جديدة، أو «استراتيجية أمن قومى» شاملة.. فلا يجب أن ينصرف الذهن إلى المعنى العسكرى وحده.

إن العنصر العسكرى هو جزء واحد فقط من أجزاء كثيرة تتكون منها «الاستراتيجية». فاستراتيجية الأمن تشمل سياسة الدفاع العسكرى، وسياسة الاقتصاد، وسياسة العمير، وسياسات أخرى كثيرة...

الاستراتيجية مثلا تفترض وجود حد أدنى من التنسيق السياسى إزاء العالم.

والاستراتيجية تفترض دراسة «مخارج» البترول العربي، وغيره من الثروات الهامة جدا التي يطفئ عليها البترول حاليا كالفوسفات والكبريت، بحيث تتنوع هذه «المخارج» وتتوافر لها البدائل، بما يحتاجه ذلك من مشروعات...

والاستراتيجية تفترض رسم سياسات لملء الفراغات الجغرافية الحدودية للعالم العربي.. بتعميرها وإسكان الناس فيها...

والاستراتيجية تفترض ربط أجزاء العالم العربي بشتى أنواع المواصلات، ليس بالطائرات وحدها، ولكن بالطرق البرية والسكك الحديدية، حتى تترايط شرايين الوطن العربي ترابطا ينعكس على صحته في حالات السلم والخطر على السواء...

وهكذا...

وهذا يجرنا إلى زاوية أخرى من زوايا الهجمة الشاملة المتنوعة المصادر والأغراض، على الأمة العربية..

تلك هي الهجمة، أو الهجمات، من الداخل...

إننى من أشد الرافضين لفكرة القاء اللوم دائما على الغير، وبالتالي إعفاء أنفسنا من المسؤولية..

ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى سذاجة تجعلنا ننكر أن ثمة أيدي أجنبية كثيرة تتحرك بشتى الوسائل المعقدة، لاجداث أنواع من الصراعات الداخلية في بلادنا...

.. وإلا، فكيف تقبل عقولنا أن نجد في هذه الظروف بالذات جيوشا

عربية تواجه جيوشا عربية... على حدود بين أقطار شقيقة... في أكثر من مكان من الوطن العربي؟

.. وكيف تقبل عقولنا توالى الفتن، بأشكال شتى، من حروب أهلية إلى درجات أقل، في سلسلة من الأقطار العربية في هذه الظروف نفسها؟

... وكيف تستريح ضمائرنا، ونحن نرى ما نرى، أى أن ما هو أشد هولا قد يكون كامنا في طريقنا، وإن لم يتبين لنا ذلك بعد؟...

إن خطة إسرائيل في التوسع تقوم في الدرجة الأولى على أساس تمزيق الكيان العربي من الداخل..

والأساليب المؤدية لذلك كثيرة جدا، وليست مباشرة بالطبع ولكن لها مسارب خفية تصل إلى استخدام بعض العرب ضد بعضهم وهم لا يعرفون..

ولإسرائيل حلفاء أقوياء في هذا المجال، في القارات الخمس! فمتى تقف الحرب الأهلية العربية نهائيا؟

ولأ فكيف يمكن، قبل ذلك، الحديث جديا، عن نظرية أمن عربية جديدة؟

نحن والتاريخ

حرية الرأي والعقيدة كانت المفتاح السحري في يد العرب

الحرب والسلام، أو اللاحرب واللاسلم، علاقات تتوالى بين الدول، أو الشعوب، أو القوميات أو النظم.

وتتراوح حظوظ الأطراف يوما عن يوم، تبعا لعلاقات القوة في فترة ما، والظروف المحلية، والظروف الدولية، وغيرها... خصوصا ونحن في عالم يزداد تقاربا وتأثرا متبادلا، فلم تعد هناك أزمة أو مشكلة أو قضية، يمكن عزلها عن ظروف العالم الذي نعيش فيه، وتفاعلاته المتغيرة...

من هذا المنطلق، كنت ولا أزال لا أتصور للصراع العربي الاسرائيلي إلا نهاية بعيدة. قد تتوالى الفصول وتتعدد الوقفات والنهايات الوقتية. ولكن نهاية «طبيعية» حقيقية، لا سياسية فحسب، لن تكون إلا بوجود مجتمع يهودي، مهما كان الاسم السياسي الذي سوف يحمل، يعيش تحت ظل وارف من وجود مجتمع عربي واسع كالיום، له قيمه الحضارية والانسانية التي تتسع لهذا الوجود وأمثاله في البحر العربي الفسيح.

بمعنى آخر: مجتمع يهودي يرضى عنه العرب، بل ويكونون هم حفاظا عليه.. وليس «قوة كبرى محلية»، روابطها وشخصيتها أجنبية تماما.

والتاريخ لا يكرر نفسه، على الأقل لا يكرر نفسه بنفس الأسلوب.

ولكن هذا لا ينزع عن الشهادة التاريخية قيمتها تماما. ذلك أن التاريخ لا تتكون أحداثه من فراغ، ولكن وقائعه تنشأ من ظروف معينة. فهو يتشابه ولو بوسائل شتى بتشابه الظروف.

. والظروف المتشابه الذى ينطلق منه تفكيرنا، هو وجود حضارة عربية قوية متجددة، يمتزج فيها أحسن ما فى ماضيها بأحسن ما يمكن أن نحققه فى حاضرها ومستقبلها..

لو قام هذا الظرف - وما أظن إلا أنه يوما سيقوم - فلا يمكن تصور أى صيغة أخرى للعلاقة العربية الاسرائيلية.. أو غيرها من العلاقات فى المنطقة..

وقبل أن نخوض فى المراجع الاسرائيلية، من حقنا أن نعود إلى مؤلفات المؤرخ العربى الكبير النزيه عبد الله عنان، أهم من أرخ للاندلس فى العصور الحديثة.

- ينقل الأستاذ عبد الله عنان عن «ابن خلدون» قوله: إن شمال أفريقيا الغربى كانت توجد فيه قبل الفتح الاسلامى قبائل يهودية، تلتقت تعاليمها الدينية من بنى إسرائيل فى المشرق. ولكن تلك الأقطار كانت تحت حكم الامبراطورية قبل الاسلام. وكانت تتعرض لغزوات «الوندال» من شواطئ فرنسا وأسبانيا. وكانت الامبراطورية الرومانية تعمل على تنصير الأهالى بالقوة. فمنهم من تنصر ومنهم من تعرض لعذاب شديد.

«وكان يهود الجزيرة (شبه جزيرة أيبيريا التى هى حاليا أسبانيا والبرتغال) كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضوع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذهما تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها

بالعنف والمطاردة. ففي عهد الملك سيزيوت فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ ميلادية). ثم توالى عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع يهود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤ ميلادية)، وكان ذلك في عهد الملك راجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحرار في طليطلة للنظر في ذلك. وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل. وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الأسبانية وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى. وأن يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية. وألا يتزوج عبد يهودي إلا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني. وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف. فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويربون في أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين».

كانت هذه الصورة للواقع اليهودي في المغرب والأندلس بين سنتي ٦١٦ و ٦٩٤ ميلادية تقابل - في المشرق - الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريبا وخلافة عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة على. وقيام الدولة الأموية، ثم أول اصطدامات ضد البيزنطيين في ديارهم ذاتها وأول حصار للقسطنطينية سنة ٦٧٩ ميلادية. ولم يتأخر فتح الأندلس (٧١١) كثيرا.

ولا شك أن كسر العرب لشوكة الامبراطورية الرومانية في عقر دارها، كان أكبر عامل لسكان شمال أفريقيا وإسبانيا على الثورة، وأكبر أمل لهم في الخلاص.

ولذلك لم يكن غريبا، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى إسبانيا، أن «اليهود كانوا يعاونون المسلمين في تلك الفتوح.. وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقا هضاب الأندلس.. كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقى من سكانها، وترك لأهلها الكنائس، وترك لأخبارها حرية إقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ الأمريكى سكوت «... كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاوِل شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بأرائه دون خشية المطاردة والأخبار يزاوِلون شئونهم في سلام!».

حرية الرأى والدين والعقيدة، كانت مفتاح الحضارة العربية الذى فتحت به الأبواب على ظلام العصور الوسطى في أوروبا نفسها. وما زالت ولا تزال في كل مكان مفتاح كل تقدم...

يقول المستشرق الأسباني جاينجوس «لقد سيطعت في أسبانيا أول أشعة لتلك المدنية التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرقت على الانطفاء. وإلى حكمة العرب، وذكائهم، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

ويقول المؤرخ لين بول «أنشأ العرب حكومة قرطبة التى كانت

أعجوبة العصور الوسطى! بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية».

ويعود الأستاذ عبدالله عنان، وقد استقرت الأندلس وازدهرت فيقول في سياق حديثه «أما اليهود فقد كانت منهم أقليات في معظم المدن الأندلسية تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها. وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة في الدولة، وغلب نفوذها في بعض المناطق، كما حدث في مملكة غرناطة، وظهرت كذلك في ميدان العلوم والآداب، ونبغ منها علماء نابيهون مثل ابن ميمون وغيره».

وفي سياق آخر من تاريخ عبدالله عنان الضخم عن الأندلس، يروى أن الأندلس كانت أول بلد في أوروبا تشجع فيه القراءة والكتابة بين الناس، بينما كانت في بقية أوروبا مقصورة تقريبا على رجال الدين. وفي عصر «الحكم المستنصر» الذي أنشأ المكتبة الأموية الكبرى، شاع اقتناء الكتب واقتناء المكتبات الخاصة «وكانت سوق الكتب في قرطبة من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود» بعد أن شاعت اللغة العربية بينهم «وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداى، طبيب الحكم الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب. وكان من أشهر المكتبات الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن إسماعيل بن نغالة اليهودي، وزير باديس أمير غرناطة»

ومن أكثر الفقرات دلالة، قوله «ويجب أخيرا ألا ننسى الأقلية اليهودية فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت

أعمالهم التجارية والصناعية في ظل ذلك التسامح الاسلامي الماثور. ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفي أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلامة حسداى بن شبروت، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديستوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر. وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابى بن حنوش، وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية وتشجيعها. وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثراتهم ومظاهرهم الفخمة».

وفي بحث حديث جدا، منشور منذ شهور قليلة، للكاتب الاسرائيلى «الفريد مورابيا»، عنوانه «الثقافة اليهودية في أسبانيا الاسلامية»، نجده يعطينا تقريبا نفس الصورة التى رسمها المؤرخ الكبير. ومن أخذ عنهم من المؤرخين الأسبان...

ويستهل «الفريد مورابيا» دراسته بكلمة للأستاذ ج. فاجولا، يقول فيها «لم يحدث طيلة العصور الأولى وحتى آخر القرون الوسطى أن حققت اليهودية المبعثرة ذاتها في بيئة غير يهودية، كما فعلت في أسبانيا». يقصد بذلك العصر الأندلسى للإسلامى هناك...

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لأسماء أهم

اليهود الذين ترعرعوا في ظل الدولة الاسلامية في الاندلس وتأثروا بها وتركوا لليهود أهم تراثهم.

وهو يركز - من باب الاختصار - اختياره في مجالات أربعة هي: الدين، واللغة، والشعر، والفلسفة...

والقائمة طويلة جدا...

ولكن، يكفي تسجيل بعض الملاحظات عليها:

أولا - أن القائمة، التي هي على سبيل المثال لا الحصر، طويلة جدا وغزيرة. وأن أبحاث هؤلاء العلماء لم تتناول فقط علوم الحياة كالطب والهندسة. ولكن الكثير منها تخصص إما في تعميق وإيجاد أسس اللغة العبرية، وإما لتعميق وتحليل وشرح أسس الديانة اليهودية.

والدين واللغة أمران من أهم الأمور التي تحفظ استمرار أي شعب. والتسامح الاسلامي في هذا المجال بالذات يلفت النظر وله أهمية خاصة. لأنه يدل على اتساع الحضارة الاسلامية العربية لهذه الأعمال التي أصبحت أهم مراجع التراث اليهودي. في حين كان الشائع في غير ذلك العصر، تشجيع أصحاب الأديان الأخرى فقط على الأمور الدنيوية من طب وهندسة، لأنها تفيد الجميع.

ومؤرخون يهود - مثل أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل السابق - يحاولون إذا ذكروا فضيلة التسامح أن يبرروا بروز اليهود بأبحاثهم الدنيوية فقط. أو كفاءتهم في الطب مثلا. وسنعود لذلك بعد قليل.

ولكن دلالة التسامح والتشجيع في صدد دراسات تستكمل وضع قواعد اللغة العبرية والديانة اليهودية، أكبر وأعمق. فهي تدل فوق استنارة

السلطة الحاكمة وتسامحها في حرية العقيدة، على ثقة هائلة بالنفس.

ثانياً - إن معظم التراث اليهودي، في تلك المواضع وغيرها مكتوب باللغة العربية التي كان يتعلمها ويتقنها هؤلاء. وأبا إيبان نفسه يعترف في أحد كتبه بأن حوالي ٦٠ في المائة من التراث اليهودي ما زال غير مترجم إلى العبرية بعد.

ثالثاً - إن هؤلاء المؤلفين، لم يكن عملهم مقصوراً على إنتاجهم هذا في الأندلس الإسلامية فقط. إنما نجد الكثيرين منهم جابوا آفاق العالم الإسلامي العربي في ذلك الوقت من بغداد شرقاً إلى طليطلة غرباً. بعضهم طلباً للعلم. وبعضهم لينشر أفكاره عن اليهودية بين يهود العالم العربي في شتى أماكنهم. كما يقول المؤلف الإسرائيلي الفريد مورابيا في بحثه هذا الذي نعرض له! كان التسامح إذن يشملهم في كل العالم العربي الإسلامي، بينما كانوا لا يجسرون على الحركة في نصف العالم الآخر في ذلك الوقت: كل ما هو شمال البحر الأبيض من دول أوروبية مسيحية، فنجد مثلاً:

اسحق القاسي، الذي ولد في «قلعة حماد» بالقرب من قسنطينة الجزائر الآن، واستمد اسمه من فاس التي عاش فيها معظم عمره، وتلقى دروسه في القيروان. وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغرب والأندلس. يقول المؤلف الإسرائيلي أنه من أهم من فسروا التلمود، ونشر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بن ميجاش ويهوذا هالفي، وإفرايم الحمادي (نسبة لقلعة بن حماد) وياروخ بن الباليه، وكان يرسلهم إلى أنحاء العالم الإسلامي حيثما وجد مجتمع يهودي لنشر تعاليمه.

— مناحم ابن ساروق، صاحب أهم قاموس عبري تلمودي إلى الآن...
والوحيد الذي كتب قاموسا حتى ذلك الوقت بالعبرية مباشرة، إذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض أعمالهم إلى العبرية.

— دوناش بن الأبرط. الذي ولد في بغداد، وتلمذ على يد «سعيد بن جاعون» ثم جاب العالم العربي حتى استقر في فاس. وكان لغويا وشاعرا.

— يهودا بن داود الذي يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية إلى الآن، وقد ولد في فاس. وكتب مؤلفاته في تأصيل قواعد اللغة العبرية باللغة العربية، وترجمت بعد ذلك. واستعان بكثير من قواعد اللغة العربية في وضع قواعد جديدة للغة العبرية.

— موسى بن عزرا: أحد أهم الشعراء العبرانيين. وأهم مؤلفاته اسمه بالعربية «كتاب المحاضرة والمذاكرة».

— يهودا الحريزي الذي وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيرا بين الأندلس، ومصر، وفلسطين أو سوريا، وما بين النهرين (أى العراق) يقدم أعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودي. وهو أول من أخذ شعر «المقامات» من العرب واستخدمها باللغة العبرية.

— وفي مجال الفلسفة يقول الباحث الإسرائيلي إن الأندلس الإسلامية كما أعطت للعالم كله ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربي ونشأ في أعقابهم أهم فلاسفة اليهودية مثل «باهي بن باقودة» الذي ألف أحد أهم كتب الفلسفة اليهودية بعنوان «كتاب الهداية إلى فرائض القلوب». ولم يترجم كتابه إلى العبرية إلا بعد مائة سنة من تأليفه.

... إلى آخره.. إلى آخره...

وإذا عدنا بعد ذلك إلى «أبا إيبان» المؤرخ والسياسي قبل أن يكون أستاذ تاريخ، نجده لا ينكر شيئاً من هذا في الأساس...

بل يقول في كتابه «قصة اليهود» إن اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله إلا مرتين: مرة في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ومرة في الأندلس الإسلامية منذ قرون!

ونقول له إن هناك مع ذلك فارقاً: فما وصلوا إليه في الولايات المتحدة جاء بعد العصر الحديث وانتشار التنوير في العالم كله.. في حين أنهم وصلوا إلى ذلك في الأندلس، في العصور الوسطى. ووسط ظلامها، وفي أوج التعصب والاضطهاد الديني في أوروبا!

ثم إن أبا إيبان - كما سبق ذكرت - يركز على الذين برزوا في ظل العالم العربي في تلك الحقبة بمهاراتهم الشخصية في الطب أو المال أو الهندسة أو الترجمة. ومن الطبيعي أن لا يبرز ولا يوضع في كتب التاريخ إلا أسماء الأكفاء والمشهورين. ولكن أليس هذا البروز بحاجة، فوق الكفاءة، إلى شيء آخر.. وهو جو التسامح واحترام حرية العقيدة؟

إن النابيهن لا يبرزون فجأة في عصر دون عصر. ولا في قطر دون قطر. إنما يبرزهم عنصر أساسي يسمح للموهبة أن تتفتح إلى أقصى قدراتها. وذلك هو جو احترام حرية العقيدة.

والغريب أن أبا إيبان يقول في إحدى صفحات كتابه عن «قصة اليهود» إن سبب بروزهم قام على إتقانهم اللغات المختلفة، بحكم وجودهم في أقطار مختلفة. وبالتالي كانوا ضروريين للنقل والترجمة بين تلك الأقطار. وبين عالم العرب وعالم أوروبا مثلاً في تلك الحقبة التي

نتحدث عنها. وهو من حيث لا يشعر يحاول أن يجعل هذا دورا خالدا لليهود، يميزهم عن سائر الدنيا، ويجعلهم ضروريين لتسيير هذه الدنيا. وهو بهذا يهزم قضيته من وجوه كثيرة دون أن يدري.

صحيح أنهم قاموا طويلا بدور المبعوثين والمترجمين بين الدول... ولكن هذا يفترض دوام وجودهم في «الشستات»، بعكس العقيدة الصهيونية التي تريد جمعهم في وطن واحد.

ثم إن هذا مفهوما في عالم كانت القراءة والكتابة ودراسة اللغات كلها مقصورة على القلة النادرة، لضرورات الفسك والاطلاع أو لضرورات العامل التجارى والسياسى. وكانت مقصورة تقريبا على رجال الدين.

أما الآن، وقد أصبح التعليم ومعرفة اللغات شيئا شائعا وأساسيا بل ومفترضا وجوده في أى مجتمع إنسانى.. فإن هذه الوظيفة الخاصة قد انتهت دورها. ولم يعد دور اليهودى العالمى مطلوبا!

والواقع أن الاسرائيلى حين يكتب يحتار دائما بين اختيار دور المواطن الصهيونى وبين دور المواطن العالمى. وهما نظرتان مختلفتان.

وبعد... ..

فلم يكن موضوع هذا الحديث كل العلاقة العربية الاسلامية اليهودية، وإلا لطلال الحديث. ولذكرنا آلاف الأدلة على أن ازدهار العرب وتحضرهم وقوتهم كانت تلقائيا تعطى اليهود فرصة أكبر...

وإنه ليكنفى أن نذكر أن عمر بن الخطاب هو الذى أعادهم أول مرة إلى القدس بعد أن حرم الرومان عليهم سكنى المدينة.

وإن صلاح الدين الأيوبي هو الذى أعادهم مرة ثانية بعد أن هزم الصليبيين، الذين حرموا اليهود بدورهم من مجرد الاقتراب من القدس...

ولكن الحديث انصرف أساسا إلى تجربة واحدة، هى التجربة الأندلسية، التى لم يتسع المجال مع ذلك إلا لمجرد سرد لمحات خاطفة منها... تثبت صواب ما ذهبنا إليه فى أول هذا الحديث على المدى التاريخى.



إن النظرة التاريخية المفصلة، تثبت قول بعض الباحثين اليهود أنفسهم، من: أن عصر التنوير العربى فى أوج الامبراطورية الاسلامية وحضاراتها، هو الذى لعب أكبر دور فى حفظ استمرارية اليهود كبشر، وكثراث، وتاريخ، ومعتقدات.

فلم يكن لهم طول التاريخ مكان آخر يتنفسون فيه.

إعادة كتابة التاريخ الاسلامى والعربى .. من لهذه المهمة الصعبة؟

■ بصرف النظر عما سوف تكون عليه الصورة فى لبنان، عندما تصل هذه السطور إلى يد القارئ، فإن هناك جوانب هامة، باقية، من آثار الحرب الأهلية اللبنانية، توحى لكل عربى بالتأمل، فيما هو أوسع منها..
إننى أكتب هذه السطور، وقد بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، والجرحى أضعاف هذا العدد. والحرب الأهلية مازالت تهدأ يوماً، ويستعر أوارها أياماً أخرى وأسابيع..

والصراع بين الأخيار والأشرار مستمر. بين الذين يريدون أن يبقى لبنان الذى نعرفه، والذين يريدون تقسيمه. بين الذين يحاربون معركة الحاضر والمستقبل، والذين يحاربون معارك الماضى.

فقط، يجب أن نسجل قبل الانتقال إلى هذا الجانب، أن الحرب الأهلية اللبنانية إذا كانت قد اتخذت طابع الحرب الطائفية، إلا أن أسبابها أعقد من ذلك بكثير، باعتراف جميع الأطراف. ولو كان الجانب الطائفى هو الجانب الوحيد فيها، لأمكن التوصل إلى حل، قبل أن يتفاقم القتال إلى الحد الذى وصل إليه...

فهناك القضية الاجتماعية، والاتساع الهائل بين الفقر والغنى، والذى جاء ارتفاع الأسعار العالمى والتضخم ليزيد من المسافة والمرارة معاً. وهناك العنصر الخاص بأزمة الشرق الأوسط، والذى تمثل فى الوجود

الفلسطينى المسلح فى لبنان، ورضا البعض عن ذلك كحتمية لا مفر منها ورفض آخرين لها.

وهناك استغلال إسرائيل لهذا الواقع، ومحاولتها الدائمة لتفجير الكيان اللبنانى، أملا فى العصف بالوجود الفلسطينى من جهة، وبالعصف بالوجود اللبنانى كله من جهة أخرى، كنموذج حى على قدرة العرب على تحقيق التعايش بين الأديان والطوائف.

وهناك صراع الدول الكبرى، التى صارت المنطقة العربية بالنسبة لها جميعا قضية هامة، بل أهم القضايا، وذلك لموقعها الفريد، وسوقها الواسعة، ووجود أهم ثروة استراتيجية – البترول – فى أراضيها، وإطلالها على كل المواقع الحساسة من المحيط الهندى والخليج إلى البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والمحيط الأطلنطى..

كل هذه العوامل تفاعلت وتداخلت فى أزمة لبنان التى انقلبت إلى حرب أهلية مستعصية على الحل..

.. ومع ذلك، فإننا يجب أن نواجه المشكلة الطائفية التى يتحرج كل من هو غير لبنانى عن الحديث عنها..

.. ليس فقط لأنها لعبت دورا أساسيا فى الحرب الأهلية فى لبنان، لأنها الأسهل استخداما، والأكثر فعالية فى إثارة النعرات المتطرفة لدى الانسان، ولكن أيضا لأن العالم العربى – بحكم اتساعه وتنوع ظروفه وتاريخه – حافل بالطوائف والمذاهب والأقليات، فهى قضية أبعد مدى من لبنان. وإن كان لبنان حتى فى هذا المجال له ظروفه الخاصة، بحكم التعدد الكبير للطوائف الدينية والعرقية من جهة، وبحكم التقارب الكبير بين الأرقام العددية لهذه الطوائف، الوضع الذى لا مثيل له فى أى بلد

في العالم العربي أو غير العربي..

الحقيقة الأولى التي يجب أن تسجل، هي أن «المارونية» دين، وليست سلالة عرقية. فالموارنة كطائفة ليسوا كالأرمن مثلا، ولكنهم مزيج من مسيحيين عاشوا في الشرق الأوسط قبل الاسلام، ومن قبائل عربية جاءت مع الفتح الاسلامي، ومن تجمعات عربية مسيحية كانت في مناطق أخرى، ثم تجمعت بسبب الاضطهاد أو رغبة التجمع في جبل لبنان، ومن بقايا الحملات الصليبية. وإن كان يجب أن نسجل هنا أيضا - تاريخيا - أن ليس كل من بقي من الحملات الصليبية بقي في لبنان، وليس كل من بقي في لبنان منهم صار مارونيا. فالكاثوليكية فيها الماروني وغير الماروني. وبقايا الصليبيين توزعت على طول الشاطئ من شمال سوريا إلى جنوب فلسطين.

الحقيقة الثانية هي أن الموجة العربية حين شملت كل العالم العربي كما نعرفه اليوم، لم تكن هناك - بعد - مارونية. بل إن المارونية - كفرع من الكاثوليكية - ظهرت أول ما ظهرت في الشام، في كنف الدولة العربية الاسلامية، ثم تجمعت في جبل لبنان، وأقامت مجتمعها الخاص بها في كنف الدولة العربية الاسلامية، وبعد قيامها بقرون طويلة. وتلك حقيقة بالغة الأهمية، لأن معناها ان الدولة العربية الحاملة لواء الاسلام لم تقف فقط عند حد الإبقاء على الأديان السماوية التي كانت موجودة، بل تكونت بعدها فروع وطوائف من هذه الأديان السماوية، كالمارونية المتفرعة من الكاثوليكية المسيحية، مما يغني عن أي دليل آخر على جوهر التسامح في الحضارة العربية والدين الاسلامي.

وقصة عمر بن الخطاب عند فتح القدس المسيحية معروفة. حين رفض الصلاة في الكنيسة حتى لا يختلف الشعب العربي من بعده عليها،

وصلى بجوار الكنيسة، حيث يقوم مسجده الصغير ملاصقا للكنيسة إلى الآن. وحتى اليهود الذين طردوا من القدس وحرم عليهم دخولها على يد روما المسيحية، لم يسمح لهم اليهود بالعودة إلى زيارتها وسكنائها، إلا في ظل الخلافة العربية الإسلامية، بعد أن حرموا من ذلك بقرون.

الحقيقة الثالثة، هي أن التاريخ في المنطقة لم يخل بعد ذلك من الاضطهاد بكل أنواعه. الاضطهاد الديني والاضطهاد العرقي. خصوصا على يد العماليك أحيانا - وهم في الأساس شراكسة ليسوا من عنصر عربي، وكانوا ينظرون للعرب - مسلمين ومسيحيين - نظرة أقل، أو على يد الحكم التركي.

ولكن فترات الاضطهاد، والحروب الدينية أو بالأحرى الحروب باسم الدين، عرفتها كل الحضارات في فترات معينة من تاريخها. وليس أشهر من الحروب الدينية التي أغرقت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى. ولم يعرف جزء آخر من العالم درجة من العنف كالتى عرفتها أسبانيا مثلا في عصر محاكم التفتيش.

وفي العالم العربي قامت الحروب الدينية بين المذاهب الإسلامية ذاتها، وفي فترات الحكم التى سادت فيها عناصر غير عربية، تعرض العرب للاضطهاد مسلمين ومسيحيين على السواء. فلا نجد عصرا كان فيه الاضطهاد موجها إلى الأقليات المسيحية بالذات، أو مطاردة المسيحية كدين منتشر في شتى أرجاء العالم العربي، حتى في أيام الحروب الصليبية المتعاقبة.

ولكن تلك فترة من الزمن ومن القيم مرت على العالم كله وانتهت، ومع عصور التنوير وما تلاها من تقدم حضارى وقيام الدول الحديثة لم يعد لمعارك الأمس مكان، صار الدين لله والوطن للجميع..

وحتى حين نجد، هنا أو هناك، حروبا صغيرة في مجتمعات صغيرة، ذات طابع ديني، كالحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية، ونجد هؤلاء وهؤلاء يحتفلون - نكابة - بذكرى معارك حربية وقعت قبل خمسة قرون، نجد أن جذورها الحقيقية ليست دينية بقدر ما هي أولا: اجتماعية، حيث يشعر الكاثوليك - الأقلية - أنهم لا ينالون نفس حقوق البروتستانت، الأغلبية الأكثر انتماء لانجلترا. وثانيا: وطنية، كبقية لحركة الاستقلال الأيرلندية الشهيرة، التي انفصلت بها أيرلندا عن إنجلترا، وما زال في الشمال من يرى نفسه أيرلنديا ويفضل الالتحاق بجمهورية أيرلندا ويرى أن الانجليز «غزاة».

وكل دارس للتاريخ العربي الحديث، يعرف أن المسيحيين العرب - وفي مقدمتهم الموارنة بالذات - كانوا من أول الذين ناضلوا في سبيل إستقلال العرب من السطوة التركية، وساهموا في إحياء التعريب ومقاومة التتريك.

لقد عربت الكنيسة العربية صلواتها. وكانت الأديرة في لبنان أول من أدخل المطابع ذات الحروف العربية في المشرق، وهاجر مجاهدون منهم إلى مصر خلال حركتها الوطنية الأولى، وكان صاحب شعار «مصر للمصريين» مهاجرا غير مسلم جاء من «بر الشام» ليجاهد مع مجاهد مسلم عظيم هو جمال الدين الأفغاني وسائر تلاميذه.

وأنقل عن «الخوري يواكيم مبارك» الماروني اللبناني بعض ما جاء في مقال له في ذروة الفتنة هناك قوله لمواطنيه الموارنة: «.. أما موضوع الاسلام فقد رافق تاريخ كنيستنا منذ نشأتها.. ولكني ألاحظ أن نشأة هذه الكنيسة (المارونية)، تحت الضغوط الدينية والسياسية آنذاك لم تكن بسبب الاسلام. فالمارونية التي تكونت خلال الفتح العربي

وأخذت تستوطن لبنان، سواء عن طريق الرسالة، أو عن طريق الهجرة والعصيان، تبلورت شخصيتها ووضحت معالمها في النضال، لا مع الاسلام، بل مع الفرق المسيحية الأخرى.

«إن استعراب المارونية الذي سيكل مسيرتها السطوية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم ينتظر هذه الحقبة الحديثة، ليبرر صفته المميزة في هيكل الجسم الماروني، غربا وشرقا، فالتراث الماروني الأصيل والشاهد التاريخي الأول على الروحية المارونية والنظام الماروني معا، هو عمل لا نعرفه إلا في صيغته العربية، أعنى كتاب الهدى، وكتاب الهدى هذا ليس نموذجا لاستعراب الكنائس الشرقية إبتداء من صدر الاسلام، موصولة بالكنيسة العربية ما قبل الاسلام، ويلوِّع الجميع على أيام الأمويين ثم العباسيين، مشاركة وثيقة في تبني ثقافة واحدة».

«.. وحين نصل إلى عصر الاستعراب الكامل الذي لاحت بشائره منذ البدء، نلاحظ تبني المارونية العميق للحضارة العربية في صيغتها، والاسلامية في كثير من مفاهيمها، على يد الألمعيين من الموارنة، وفي مقدمتهم المطران جرمانوس فرحات، بل إن الموارنة الذين أحسوا بنوع من الانكماش على مجالات العالم العربي والاسلامى، لم يترددوا في الانعتاق من هذه الطائفية الضيقة. هذا كان شأن جبار العرب في القرن التاسع عشر وصقر لبنان «أحمد فارس الشدياق». وقد تبعه أجمع من ظهر في المارونية، كأمين الريحاني وجبران خليل جبران».

إننا هنا لا نتناول قضية لبنان السياسية، ولكننا نتناول إحدى خلفيات هذا الصراع الدامى المقيت، ونتناوله للوصول إلى خلفية أكبر، تهم العالم العربي كله.

إن العودة إلى دراسة التاريخ مفيدة وهامة. ولكن لكي نستفيد من دروسه ومجمل عبره، لا لكي نعود القهقري، ونحارب معارك قات أوانها وتخطاها الزمن.

وكل أمة لابد أن تكون لها ذاكرة، وإلا انقطعت عن جذورها، ولكنها ذاكرة تساعدنا على تفهم المستقبل، ولا تفرقها في دوامة الماضي.

والعالم العربي الاسلامي، أولا بحكم إتساعه، وترامى أطرافه وتنوع بيئاته وخلفياته التاريخية، وثانيا بحكم ظهور كل الأديان، ومعظم المذاهب والفلسفات فيه، وثالثا بحكم موقعه الوسط من العالم، وبالتالي كثرة الهجرات والغزوات في تاريخه.. هذا العالم العربي، رغم أن الاسلام صار أساس تراثه وإطار تجمعه، فإنه لهذه الأسباب السابقة ظل في كل أقطاره حاقلا بمظاهر التنوع، في مجال الأغلبية والأقليات من داخل الاسلام ذاته ومن خارجه.

ولاشك أن اتجاه العالم العربي السريع إلى مرحلة التمدن، والأخذ من جديد بأسباب الحضارة بعد طول رقاد، تجعل هذا السواق المتعدد ينصهر ولا يتباعد، ولا شك أن ما حدث في لبنان ليس هو القاعدة في العالم العربي ولكنه الاستثناء، ولكن هذا لا يمنع من مواجهة المشكلة بالعقل المستنير، وبالروح الاسلامية السمحة، وبمسئولية الأغلبية عن احتضان الأقلية، وتزويدها بالدفع والرعاية والاطمئنان والأمان.

ومن أجل أن ننجح تماما في هذا، لابد من التطرق إلى قضية أخرى بالغة الخطورة والأهمية، وهي إعادة كتابة التاريخ العربي والاسلامي.

لماذا؟

لا شك أن الحضارة العربية الاسلامية قد عرفت بداياتها الطاهرة،

المثالية، وينابيعها الصافية الاولى على عهد النبی وخلفائه الراشدين.
ثم بعد ذلك، ويعد أن اكتملت الاسس والقيم والمبادئ، عرفت
الحضارة العربية الاسلامية طريقها إلى تكوين الدولة الحديثة بمعايير
ذلك العصر.. على عهد الأمويين ثم العباسيين.. فضلا عن عهود
الفاطميين في مصر، والحضارة الاندلسية الفذة..

ولكن، لاشك أيضا أن هذه الحضارة عرفت كل ما عرفت الحضارات
الأخرى بعد ذلك من عهود الاستبداد والظلم، ومن الصراعات السياسية
التي ارتدت ثيابا دينية، حتى دخلت مراحل الجمود ثم الاضمحلال
والتحلل والضعف، حتى تبارى في نهبها الطغاة من الحكام، والأقوياء من
الأجانب..

وحين نقول «التراث» فإن التراث قد مر بدوره بكل هذه المراحل،
سطعت أنواره في عصور النهضة، وخبا ضياؤه في عصور الاضمحلال.
وجاءت أوقات كانت حتى الفتاوى الدينية خاضعة لهوى الحاكم، مبررة
لمظالمه وانحرافات..

هذا التاريخ ينبغي إعادة كتابته بسلبياته وإيجابياته، هذا «التراث»
ينبغي إعادة انتقائه واختياره.

ففي الذهن العربي العام، نجد أن كل ما حدث خلال خمسة عشر
قرنا هو كتلة واحدة مضيئة من التاريخ، وكل كتاب مضى على وضعه
مئات من السنين.. تراث!

وكثيرون من الأجانب «المتخصصين» يركزون على الجوانب السلبية
من هذا التاريخ والتراث، ويستخرجون منها استنتاجاتهم عن الاسلام
والعرب، وكثيرا ما ترتد هذه الآراء إلينا وإلى الشباب المثقف القاريء

لغات الاجتنبية بالذات.. على أنها النظرة الصحيحة للأمور.

وهكذا يدرس التاريخ والتراث في المدارس!

وهذا غير صحيح...

فكما أن هناك أمثلة الحرية والتقدم الكبرى، فهناك محنة أحمد بن حنبل مثلاً أيام فتنة «القرآن هل هو قديم أو مخلوق»..

وكما أننا نجد «أبا اييان» وزير خارجية إسرائيل السابق، وأستاذ التاريخ والأدب العربي السابق، يقول في آخر كتاب له «شعبي» إن اليهود عرفوا خلال تاريخهم مرحلتين ذهبيتين: الأولى في الأندلس العربي الاسلامي، أيام ظهر ابن ميمون (اليهودي) وغيره، وأن تسعة أعشار التراث اليهودي مكتوب باللغة العربية.. والثانية هي حياة اليهود اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية.. فإننا نجد مراحل ضاقت فيها حلقة الفكر على المسلمين أولاً، ونزل الظلم والتزييف بالمسلمين العرب قبل غيرهم.

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

لقد عرفنا فترة ظهر فيها أمثال محمد عبده وطلحة حسين والعقاد.. قاموا خلالها بجهود فردية في هذا المجال، وكانت ميزتهم أنه قد تهيأ لهم رسوخ القدم في دراسة التراث القديم من جهة ورسوخ القدم في فنون النقد والكتابة والفكر الحديث من جهة أخرى..

بعدهم.. جاءت أجيال قل فيها من يجمع بين الأمرين.. فهو إما خريج الدراسة الدينية المحضة وإما نتاج التكوين الأوروبي المحض، فوقع الانقسام الفكري، ونقص عدد القادرين على التكامل.

ولا أقول إن هؤلاء غير موجودين، ولكن الأمر صار أكبر وأهم، بحيث يحتاج إلى جهد جماعي، ترعاه هيئة أو دولة تدرك قيمة هذا العمل..

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

هناك أمران بديهيان:

الأمر البديهي الأول: هو أن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة. ولكنه مادة تكتب مئات المرات، وتعاد كتابتها باستمرار. سواء بسبب ظهور معلومات مستجدة عن أى صفحة من صفحات التاريخ، أو بسبب تطور في مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم في فهم التاريخ. أو بسبب أبسط وهو ظهور أى كاتب أو مؤرخ يجد في نفسه القدرة والرغبة على أن يدلى بدلوه في التعرض لموضوع ما من موضوعات التاريخ..

أليس من المألوف أننا إذا اردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مؤلفات، حسب أهمية الموضوع، المكتوبة عنه؟

كتابة التاريخ إذن.. تاريخ فرد أو أمة أو عالم.. عملية بطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار ببديئها ولا يصدر قرار بإيقافها. وليس في هذا جديد، كل ما في الأمر أن الشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماما بتاريخها، تماما كما تزداد اهتماما بحاضرها ومستقبلها، فاليقظة لا تكون إلا شاملة. وبالتالي تشتد حركة التأليف عن التاريخ، ويزداد الناس اقبالا على قراءته. وفي حالات الخمول تنام الأمم عن ماضيها ومستقبلها معها. تستسلم لما وجدت مكتوبا عنها من قبل، ولما ترى أنه «مكتوب لها» في المستقبل.

الامر البديهي الثاني. هو انه كما ان التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئاً تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الامر الثاني أكثر بديهية من الامر الأول. فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ حتى ولو كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق. فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك. ولا يملك فرد ولا مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية تعدد جنسيات الذين يكتبون عنها. بل ان جامعة أمريكية مثلاً قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى ابعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسات تاريخية عن موضوع لا صلة لها به. ذلك ان التاريخ والحضارات ملك مشترك للمعرفة الانسانية كلها. ومرة أخرى، نجد أن الشعوب كلما زادت تقدماً، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كلها...

في مصر.. نجد ان الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا اسرار اللغة الهيروغليفية، فرنسيون. والذين كشفوا آثار وكنوز توت عنخ آمون انجليز. والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة من جامعات أمريكية. وحضارة العرب أشبعها «المستشرقون» كتابة وتحليلاً.. ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم. وهم روس والمان وانجليز وفرنسيون وهولنديون.. إلى آخره.

وأصحاب أى تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم. فما كان كل هؤلاء المستشرقين مثلاً ليهتموا بالحضارة العربية، وقيموا لها مراكز الأبحاث في جامعاتهم وأقساماً خاصة في متاحفهم، لسوا أنها حضارة غنية وتاريخها مهم، وأنها حلقة جوهرية في التاريخ الانساني كله.

هاتان البديهيتان، الواضحتان للعيان لا تحتملان أى مناقشة أو جدل أو خلاف.. كانتا السبب في «رد فعلى» هذا ازاء الموضوع كله واعتذارى عن مجرد مناقشته..

على أننى بعد أن استنفدت المناقشات نفسها وطويت صفحاتها، وجدت نفسى أأمل الموضوع من زوايا أخرى طرأت على البال. بعضها ظاهر للعيان ولكنه قد يحتاج إلى تفسير، وبعضها أثارت التأملات فى خاطرى، مما وجدت أنه قد لا يكون من ضياع الوقت أن أشغل القارئ بها، ووجدتها تقرض نفسها على فرضا ساعة جلست إلى الورق أكتب هذا الحديث....

عدم ثقة الناس فى الحكومات

ينسب المؤرخون إلى بعض فراعنة مصر القدماء، قبل آلاف السنين، وحين كان التاريخ يسجل عن طريق حفر نقوشه حفرا على الحجر الصلد.. انهم كانوا يحون ما سبق أن حفره أسلافهم، ويعيدون كتابة بعض الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك لم يخوضوها، وانتصارات لم يحرزوها، وأعمالا لم يقوموا بها.. سواء كان طمسا لحكام سابقين عليهم، أو انتحالا لفضل لاحق لهم فيه...

وفى الثلث الأول من القرن العشرين.. وبعد أن مات لينين قائد الثورة الروسية، ودار صراع عنيف على السلطة من بعده بين أبرز رفيقين له وهما ستالين وتروتسكى، انتهى بانتصار ستالين ويطرد تروتسكى من البلاد.. عرفنا أن ستالين عاد إلى وثنائق الثورة، بسلطة الدولة يمحو منها كل عمل هام قام به تروتسكى للثورة.. وظهرت من الكتب ودوائر المعارف طبعات جديدة تعيد شرح أحداث الثورة بطريقة أخرى تمحو اثر

تروتسكى أو تشوهر دوره، حتى اللوحات الزيتية التى رسمها الرسامون لاحداث الثورة ومواقفها الحاسمة وعلمت فى المتاحف العامة، اعيدت الريشة اليها لتمحو وجه تروتسكى حيثما ظهر فى أى موقف منها.. بل ان عددا من الصور الفوتوغرافية الهامة فى الارشيف أجريت عليها تعديلات فى الاتجاه ذاته.

إن من بعض قرائنة الأسرة الاولى قبل أربعة آلاف سنة.. إلى قيادة أوروبية حديثة قبل أربعين سنة.. وقع نفس الشيء، وتحت محاولة «إعادة كتابة التاريخ» بصورة واحدة!

ولا شك ان العادة لم تنقطع تماما بين هذين النموذجين اللذين تفصل بينهما أربعة آلاف سنة.. بصورة أو بأخرى..

وبالتالى فإن النفس الانسانية، أو نفسية «السلطة» والشعور بسلطتها حين تمتلك البشر، فيها ملامح متشابهة، مستمرة، عرضة للتكرار..

ولذلك، فمن الطبيعى ان يشك الناس فى كل ما هو «تاريخ رسمى». وبالتالى، فحين يذكر موضوع إعادة كتابة التاريخ.. وتشتت منه رائحة ان الدعوة موجهة إلى «الدولة» لتعيد هى كتابة التاريخ.. فالمناقشة تصبح واردة. ومن السهل أن نلمح فى المناقشات تيارا يحرض الدولة على أن تقوم بذلك. وتيارا آخر يعارض هذه الدعوة، لاشتباكه فى انطوائها على هذا التحريض للدولة.. خاصة وقد انتشرت بالفعل «موضة» تكوين اللجان الرسمية المكلفة بإعادة التاريخ فى أكثر من بلد عربى...

ونحن نعرف فى قاموسنا الحديث عبارات «الرقابة على الصحف والكتب» و «الحظر على الأنباء» و «مصادرة المطبوعات»، وأحيانا حتى

التشويش على موجات الاذاعة، ولكن هذه وسائل حديثة، ظهرت لمواجهة وسائل حديثة لنشر المعلومات، ولكن قبل ظهور الطباعة والصحافة والاذاعة.. ربما لم تكن تلك الوسائل المضادة غير موجودة لعدم وجود مبرر لها. ولكن مبدأ إخفاء المعلومات بوجه أو باخر، لاشك أنه كان موجودا في نظم المجتمعات الانسانية عبر التاريخ كله..

بل ان الكتمان في الأزمنة الماضية كان أسهل. فالتاريخ كان يدور في قليل من الدور والقصور. والأحداث كانت تتم داخل جدران قلاع بعيدة واماكن محرمة إلا على القلة الموثوقة، وكانت معرفة الأخبار لا تتم إلا بالنقل الشفوي وتتواتر الروايات من شخص لآخر، مع كل ما تمر به خلال ذلك من تحريف مقصود أو غير مقصود.. لذلك كانت معرفة الناس بسيطة، دعى من المؤرخين الذين يأتون بعهد ذلك بمئات السنين. يحاولون تجميع ملامح الحدث أو العصر بصعوبة بالغة، ومن شواهد نادرة. وحتى الآن يعثر الناس على وثيقة أو على مخطوط أو على قطعة حجر، فتقلب تاريخ عصر كما نعرفه رأسا على عقب. وتلعب المصادفات في ذلك دورا كبيرا...

فهي علاقة بين السلطة حين تكتب وبين الناس حين تتلقى، قديمة.. والشكوك في شأنها منذ أقدم صفحات التاريخ.

وحتى حين جاء العصر الحديث، غير الكثير جدا، ولكنه لم يقض على الظاهرة أو لم يقتل بذرة الشك الموجودة دائما لدى الناس..

لقد صارت الصحف والاذاعة تعلن الأنباء يوما بيوم. والسكاميرا أو التليفزيون ينقلها حية إلى عيون المشاهدين. وبعض الدول صارت ترفع السرية عن أوراقها الرسمية بعد خمسين أو ثلاثين سنة، لمن شاء أن

يقرأ ويدرس وينشر. وانتشرت ظاهرة نشر المذكرات. فكل من عاش قصة هامة سرعان ما ينشر مذكراته عنها بمجرد تركه لوظيفته. بل صار مسئولاً - مثلاً - في أخطر موضع مثل كيسنجر، يتعاقد على نشر مذكراته حتى قبل أن يترك وظيفته. وذلك تحت اغراء المبالغ السكبيرة التي صارت تدفعها دور النشر وتصل إلى ملايين الدولارات، وهو أمر لا نعرف هل هو مفيد أو ضار. فكل رسمي، في ادق مباحثات مثلاً، صار يعرف ان حديثه السرى سينشر بعد سنوات، وهو مازال على قيد الحياة.

وإذا كانت «الندرة» هي مشكلة العصر القديم، فالكثرة هي مشكلة عصرنا الراهن. ومرة أخرى صار كل رسمي يحب أن يشرح رأيه ويرسم صورته للتاريخ قبل أن يرسمها غيره. وبالتالى فهو يلون ما يكتبه بالالوان التي تناسبه. وان لم يكذب صراحة، فهو على الأقل يحذف ما لا يريد له أن يذيع.

وخلال كتابتى هذا الحديث على سبيل المثال، كنت اقرأ - كعادتى - عدة كتب في وقت واحد: مذكرات هنرى كيسنجر - مذكرات ابا اييان وزير خارجية اسرائيل الاسبق - مذكرات موشى ديان وزير خارجية اسرائيل السابق - مذكرات اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل السابق..

وكنت اقرأ عن مواقف شهدا الأربعة، وكانت بين الروايات الأربع خلافات أحياناً، وتنقاضات تامة أحياناً أخرى. والأربعة أحياء. وما يروونه لم يمر عليه سوى سبع سنوات.

فهل ياترى مهمة المؤرخ، امام الندرة القديمة كانت اصعب.. أم أنها امام هذه الكثرة الحديثة هي الأصعب؟

وأيهما أكثر بعداً عن الحقيقة.. الرواية أوالمشاهدة، أم «الطرف»

وصاحب الدور في الحدث، الذي يهمة أكثر تلوين صورته باللون الذي يريد...

وسواء في المجتمعات التي يشتهر عندها الوضوح الشديد، أو الغموض الشديد، فمزال ممكن أن تبقى الحقيقة مستترة ولو فترة من الزمن. يفعل السلطة الرسمية أو بفعل جهات ذات قوة ونفوذ في مجتمع ما..

كنت في أمريكا مرة، وكعادتني في زيارة لبعض الجامعات، حضرت محاضرة في جامعة «كارنيجي - ميلون» في بتسبرج. وكانت المحاضرة عن المسرح!

وكان الأستاذ يقول: إن من أسباب أزمة المسرح في العالم أن الدراما التي يراها الناس حية على شاشة التلفزيون تلغى أي دراما أخرى. في المسرح يدخل الرسول ويروي ما حدث لملك بلاد كذا مثلا. ولكن الآن - يقول الأستاذ - رأى الناس على شاشة التلفزيون، على الهواء، حادث اغتيال الرئيس جون كيندي كاملا. وزادوا بعد ذلك حادث اغتيال القاتل «لى هارفي أزوالد» على الشاشة ساعة وقوعه.

ودون استطراد حول هذه القضية الفنية، نعود إلى سياق حديثنا عن التاريخ ونسأل: إن الناس رأوا الاغتيال يتم على شاشة التلفزيون وهم في منازلهم. ورأوا القاتل وهو يقتل بدوره.

ولكن، وبعد مضي ثمانية عشر عاما على مقتل جون كيندي مازال المواطن الأمريكي يسأل: من الذي قتل جون كيندي؟

وكما مر الزمن زادت الشكوك. وكل سنة تتكون لجنة جديدة لأنها عثرت على دليل جديد. والانقسام مستمر حتى بين الخبراء حول ما إذا

كانت رصاصة ازوالد هي التي قتلته، وما إذا كانت هناك رصاصة ثانية من جهة ثانية هي التي قتلته...

رغم أن القضية بحثها أكبر القضاة في أمريكا، ولكن المواطن ظل يعتقد أن «السلطة» تخفي عنه شيئاً! وأن جهات ما لا مصلحة لها في القطع بالحقيقة!

وسيضاف هذا إلى سؤال مشابه، معلق منذ حوالي مائة سنة، هو: من الذي قتل أبراهام لنكولن عشية انتصاره في حرب تحرير العبيد في أمريكا؟

وفي نظام آخر وحدث آخر يسأل العالم: من الذي قتل محمد تراقي الذي قاد الانقلاب الماركسي الأول في أفغانستان قبل أقل من سنتين؟

لقد قالت السلطة في عهد خلفه أنه مات بمرض مفاجئ، فلمّا وقع انقلاب آخر على خلفه - حفيظ الله أمين - وجاء برياك كارمل، قالت السلطة: إن حفيظ الله أمين أمر بقتله.. وإنه مات قتلاً، وليس مرضاً. ما هي الحقيقة؟...

الشك لدى الناس فيما يصدر عن السلطة إذن قديم. وهو مستمر. وبالتالي كان لابد أن يمتد الشك إلى كل مشروع تتولى فيه السلطة كتابة التاريخ.. أو إعادة كتابة التاريخ.. أو «إعادة إعادة» كتابة التاريخ...

ولذلك فانه من الحق أن يعجب المرء من كتاب ومؤلفين يطالبون الدولة بكتابة التاريخ!

لماذا لا يكتبون هم ما يرون وما يريدون من تاريخ.. ويلقون بما

يكتبون في خضم سائر الكتابات التاريخية؟..

ولا اعتراض طبعا على أن تقوم الدولة بكتابة ما تشاء من تاريخ، ولكن لا لكى يكون - كما يريد البعض - القول الفصل والحكم القاطع. ولكن لكى يكون مرجعا من المراجع لا أكثر ولا أقل.

إن الدولة - أى دولة - تساهم في كتابة التاريخ بقسط وفير.

فالدولة هى التى تكتب التاريخ الذى يدرس فى المدارس. أى تكتب المقرر الذى يقرؤه ويدرسه كل طفل منذ سن الطفولة حتى الشهادة الثانوية، وعلى الأغلب الجامعية.

والدولة هى التى ترعى المشروعات الكبرى كالموسوعات ودوائر المعارف وطبع كتب التراث وهو نوع من كتابة التاريخ بحكم الانتقاء، وبحكم النشر.

وهذا يكفى...

وما يمكن أن يطلب من الدول هو أن «تسهل» كتابة التاريخ. أن تمكن المؤرخ من ممارسة عمله. أن تعمل الحفريات والتنقيب والبحث. أن تنظم الوثائق الممكن نشرها وتضعها حيث الاطلاع عليها والاستعانة بها.

وفى أمريكا صار تقليدا أن كل رئيس دولة، بمجرد تركه الحكم، يضع كل أوراق عهده فى مكتبة مستقلة، وقد يسمح للباحثين بالاطلاع فورا على جزء منها، ويوصى صاحب الأوراق بإبقاء بعضها سرا عشر سنوات أو عشرين سنة، ولكنها تصير إلى ملكية الأمة على أى حال.

ولكن كتابة التاريخ بعد ذلك قضية شخصية...

فحتى إذا كانت «الوقائع» ثابتة ومتفقا عليها. فإن التاريخ ليس سرد وقائع. ولكن هو وضع الوقائع في إطار معين، وتحليلها في ضوء منطق معين. فالتاريخ في أرقى صوره وجهة نظر، الحقيقة فيه ملك القارئ؟ وجهة النظر ملك الكاتب المؤرخ. وهناك وقائع تاريخية كبرى ثابتة، يتخاصم المؤرخون على تحليلها طيلة ألف سنة!...

ومن الخواطر المتصلة بهذا الموضوع، أننا لو دققنا النظر فيما حولنا، وفي خضم الأدوات التكنولوجية المتاحة في العصر الحديث، وفي عصر ديمقراطية المعرفة بمعنى وصولها إلى الجميع حتى الأميين.. إن لم يكن بالقراءة فبالسماع أو بالمشاهدة.. نجد أن أمامنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تدبر، وهي ما يجرى كل يوم من إعادة لكتابة التاريخ!

نترك الآن جانبا الكتب والمؤلفات العلمية والوثائق والمذكرات، وكل ما يخطر على البال حين نتحدث عن كتابة التاريخ، أو لكي نستعمل عبارة أوسع «إعادة صياغة التاريخ»...

ما القول في أفلام السينما التاريخية، بالوانها والشاشة «السينما سكوب»، وجاذبيتها الهائلة على مئات ملايين المشاهدين في العالم من كل المستويات في الأعمار والمدارك والثقافة؟

ما القول في الحلقات التليفزيونية المسلسلة التي نتحدث عن التاريخ وتدخل كل بيت؟

ما القول في المسلسلات الإذاعية التاريخية؟

ما القول في الروايات المكتوبة؟

ما القول في مجلات الأطفال وكتب الأطفال ورواج ذى السطابع التاريخي منها؟...

القليل من هذا الفيض الهائل، هو الذى تتوافر له الدقة التاريخية.
وعدم التضحية بالنزاهة في سبيل التشويق، أو الربح، أو الدعاية لوجهة
نظر معينة..

والكثير غير ذلك...

كل الأفلام التى تنتجها السينما اليهودية عن قصص الانجيل...
كل المخرجين الذين يغريهم الربح بأفلام عن كليوباترا أو
سبارتاكوس أو غيرهما...

إلى آخره.. إلى آخره...

إن فيلما واحدا، بنجومه وأسمائه والوانه وموسيقاه، عن حقبة
تاريخية.. هو الذى يلصق بالذهن. ويمحو من الذاكرة أثر مائة كتاب.
فما بالنا وهو يتجه لملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات
السابقة، أو قدرة ادراك الخطأ أو التحريف؟

وجه الممثل الذى يقوم بالدور يصبح في ذهن العام وجه البطل.
كيرك دوجلاس هو سبارتاكوس. واليزابيث تايلور هي كليوباترا. وأحمد
مظهر هو صلاح الدين الايوبي! الثياب، والقصور، والجدران، وصور
المعارك، أو الحفلات... كلها تلصق صورة في ذهن الجمهور. ما هي
دقتها يا ترى. هل كانت حقا ثياب العصر، والوانه، وحركات الناس
وسكناتهم.. كما نراها على الشاشة؟

إنها نظرة المخرج، وتصوراتهِ والله أعلم بمدى قربها أو بعدها عن
الحقيقة. ولكن هذا هو ما يستقر في ذهن ويمحو سواه.

وأعظم كتاب تاريخ يقرؤه آلاف، في حين أن أى فيلم يراه ملايين.

وأى مسلسل تليفزيونى يراه مئات الملايين. وأى كتاب أطفال يقرؤه عشرات الملايين. وأى كتاب تاريخ مدرسى، وضعت الدولة يقرؤه شعب بأكمله، سنة وراء سنة وراء سنة!

إن ديمقراطية المعرفة، وأن التكنولوجيا الحديثة، كلاهما تحول عظيم فى حياة العالم. وقد رحبت بهما الانسانية مفتوحة الذراعين. ولكن الانسانية لم تجد بعد ما تعالج به مخاطرها ومحاذيرهما. لم نكتشف بعد المضادات الحيوية، لما يحمله الجديد من جراثيم!

إعادة كتابة التاريخ الإسلامى

ولقد تذكرت، وأنا أدير هذا الحديث فى نفسى، أننى دعوت، وعلى نفس هذه الصفحات إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى!

ومازال هذا المنبر الذى اخاطب القارئ منه، مؤمنا بهذه الدعوة، وملتزمًا بها. ومازلنا نحاول ممارسة ذلك فى حدود الطاقة..

فهل هناك تناقض، بين أول الحديث وآخره..؟

كلا. فالدعوة كما قصدتها، دعوة إلى الانفتاح على الحقيقة، وليست دعوة إلى الانغلاق دونها، كما توحى كتابات بعض المطالبين بإعادة كتابة التاريخ...

فالتاريخ الإسلامى، قد كتب جانب كبير منه فى ظل ظروف من تحكم السلطة.. وفى عصور مظلمة فكريا وثقافيا، واجتماعيا.. وبالتالي فلا بد من إعادة النظر فى كل هذا...

والبعض ينظر إلى التاريخ الإسلامى نظرة يخلط فيها بين التاريخ

الذى صنعه البشر، وبين الاسلام ذاته. فاسبغوا على البشر عصمة الدين. وبالتالي جعلوا التاريخ وكأنه كتلة مقدسة تتساوى في قيمتها. وكان الخليفة عمر في مكة في مقام الخليفة العثماني في اسطنبول!

ثم إن أمهات الكتب التاريخية الاسلامية ذات القيمة، صارت بعيدة عن متناول القارئ، وصعبة على فهم حتى المتعلم، الأمر الذى يبرز الحاجة إلى طرحها على الناس باعادة نشرها، مع حسن الانتقاء، وتبسيط بعضها، لتصل لجمهور أكبر...

ثم إن هذه الدعوة تنطلق مما نراه من إدخال أشياء على حياة المسلمين ليست من الاسلام. وأخطرها المذاهب المتعددة التى تنتمى إلى أحداث خاضها البشر. وصنعها البشر. ومزقت المسلمين تمزيقا. وأخذها الناس عبر آلاف السنين على أنها الدين وهى اجتهادات على أحسن الأحوال. فالنبي الكريم ترك اسلاما واحدا ومذهبا واحدا، ولم يترك عشرين مذهباً تفرق المسلمين حتى اليوم.

ولكن لن يكون هذا إلا باعادة طرح التاريخ. وإعادة تحليل أحداثه. وفرز الغث من السمين فيه. فتبقى للقداسة حرمتها. ويبقى ما هو من صنع البشر للبشر.

من... حضارة ذهبية قديمة إلى... حضارة جديدة لا مفر منها

■ كان الحديث يدور بين بعض «المثقفين»، في الكويت، وإن جاعوا من أقطار عربية مختلفة عن حريق دار الأوبرا في القاهرة، وما أعلن وقتها عن إعادة بنائها فوراً، ولماذا لم يتم شيء من هذا إلى الآن، وبقي مكان الأوبرا ساحة واسعة لوقوف السيارات. وذلك بوصف أنها كانت دار الأوبرا الوحيدة في العالم العربي، وأنها كانت أحد أبرز معالم القاهرة، ليس بمبناها، ولكن برمزها ومعناها، وما كانت تقدم فوق خشبتها من أعمال فنية، وفرق عالمية، وما كانت تقوم به بالتالي من دور كهزمة وصل بين عاصمة عربية وعواصم العالم المتقدم في مجال هام من مجالات الثقافة والفكر والفن والمتعة الراقية.

وتحمس فريق لضرورة إعادة بناء دار الأوبرا، مهما كانت ظروف الحرب وظروف الاقتصاد، فلا بد أن يقتطع لها نصيب من ميزانيات وزارات الثقافة والتعليم والتعمير، لأن الأوبرا حجر أساس في الثقافة والتعليم والتعمير جميعاً.

وتحمس آخرون لأن يتبرع الشعب في مصر — ومن يشاء بعد ذلك من خارج مصر — وخصوصاً المثقفون منه لبناء الأوبرا، ففي التبرع الشعبي معنى المبادرة العامة من المهتمين بارتقاء بلادهم في مجال يهتمون به.. وإذا كان غيرهم من أبناء الشعب يقاتل في ساعات أخرى، فتلك ساحاتهم التي يقاتلون فيها...

وطرح آخرون سؤالاً هاماً :

صحيح أن احتراق دار الأوبرا في القاهرة، كان خسارة فادحة بكل المعاني...

ولكن، أما وقد احترقت فعلاً وانتهى الأمر، وصار إعادة بنائها أمراً يكلف مبالغ ضخمة من ميزانية الدولة كانت أو من أموال التبرعات، فهل يا ترى بناء دار للأوبرا، بهذه التكاليف الضخمة، يأتي حقاً في هذه المرتبة المتقدمة من سلم الأولويات بالنسبة لأي شعب يواجه متطلبات أخرى أولى وأهم، حتى في ميدان الثقافة؟

إن دار الأوبرا في أي مكان لا يرتادها إلا الخاصة من المثقفين، وهم قلة قليلة بين مجموع أي شعب من شعوب بلادنا...

فهل إنفاق المال على بناء دار للأوبرا أهم، أم أن الأجدى إنفاق هذا المال في مكافحة الأمية مثلاً؟ أو في توسيع نطاق المدارس والجامعات؟ أو على الصحة العامة... إلى آخره.

واحتدم النقاش، دون أن يصل إلى قرار.

أثار هذا النقاش في خاطري قضية أساسية من القضايا التي تواجهها بلادنا وكل البلاد الأخذة في التقدم، وهي قضية: النخبة، وال جماهير...

كما أنه أثار في خاطري قضية أخرى هامة، هي قضية العلوم العلمية والتطبيقية.. كالهندسة والطب والكيمياء.. والعلوم الانسانية كالقانون والادب والفن والاجتماع والتاريخ...

وعلاقة الأمرين بحكاية الاختيار بين بناء دار للأوبرا أو الانفاق على محو الأمية، علاقة واضحة.

فبالنسبة للعلوم التطبيقية والعلوم الانسانية.. نجد أنه لو قام من يدعو إلى إنفاق الملايين لتوفير وسائل البحث العلمى من أجهزة ومعامل، لما اعترض عليه أحد، في حين أنه لو قام من يدعو إلى إنفاق هذه المبالغ على ما يشبه هذه المعامل بالنسبة لأهل العلوم الانسانية، لجادل في ذلك المجادلون، وذلك مظهر من مظاهر التصور الكاسح للحضارة بوصفها تتمثل في الجوانب المادية للحياة، دون الجوانب المعنوية. فالحضارة هي السيارة والطائرة والمصنع والمدفع، وأى شئ يساعد على التقدم في هذه العلوم أساسى ومفهوم وموضع حماسة الجميع. أما الجوانب المعنوية للحضارة التى تتمثل في «مجموعة القيم» التى يأخذ بها المجتمع المتحضر، وهى القيم التى تحرسها وترعاها وتطورها العلوم الانسانية، فهى أمور صارت في نظر الناس ثانوية، أو نوعا من أنواع الترف...

وقد نجد هذا الرأى قويا بين المجتمعات التى لديها ذخيرة قديمة من العلوم الانسانية. من فلسفة وعقائد وفكر وفن، ولكنها مع ذلك تشعر انها في الذيل من طابور التقدم.

وينطبق هذا مثلا على عالما العربى بتراثه الغنى في كل هذه الأمور، وفقره في أرياب القوة المادية.

ويختزل هذا الموقف، القول المأثور عن أمين الريحانى: أنا الشرق عندى فلسفات، من يأخذها ويعطينى دبابات وطائرات!

ومثل هذه الاتجاهات في حياة الشعوب، في فترات معينة، كثيرا ما تكون بمثابة «رد فعل»...

فالبلاد ذات الحضارات العريقة كالعرب والهند والصين مثلا، تجد أن

لديها تراثا عريقا كما ذكرت من الثقافة والتراث وكل ما يدخل تحت باب العلوم الانسانية... ولكنها مع ذلك تجد نفسها في عالمنا هذا الحديث مستضعفة. فهي لم تلحق بالثورة «الصناعية» التي هي نتيجة العلوم التطبيقية.. ثم لم تلحق بعصر «ما بعد الثورة الصناعية» الذي نعيشه الآن، فاتتها عصر البخار، ثم عصر الكهرباء، وبقوتها الآن عصر الذرة. وإزاء هذا يكون رد الفعل حادا، أحيانا يكون بالفرع من مواجهة مستقبل هذا وصفه، وبالهروب إلى الماضي، والدعوة إلى استرجاع عصر كان ذهبيا، في حين أنه كان ذهبيا في ظروفه وزمانه، وعودته برمته لا يعنى بالضرورة أنه سيكون ذهبيا مرة أخرى، وأحيانا يصل ببعض الشعوب إلى درجة كراهية هذا الماضي المجيد، والرغبة في تحطيمه، كأنه هو العقبة التي تحول دون تقدمها، كما حدث في الصين، خلال ما أسمته بالثورة الثقافية فقاموا بهاجمون كونفوشيوس، وينددون بكل الحكماء الأوائل، ويحطمون تماثيلهم وأثارهم الفنية الرائعة الجميلة!

ولاشك أن رد الفعل، في كلتا الحالتين، خطأ...

على الأقل لأسباب ثلاثة:

الموقف من الماضي

السبب الأول، أن تحطيم الماضي والثورة الشاملة عليه، ومحاولة محوه.. فوق أنه أمر غير ممكن عمليا، فإنه عمل غير منتج، لأن أي حضارة قديمة لا شك إنها تميزت بشيء، وخطت بالانسانية خطوة، وساهمت بدور في وضع أسس الحضارة الحديثة التي نراها، ليس فقط في جوانبها الفلسفية والفكرية، ولكن أيضا في جوانبها المادية والتطبيقية...

فنحن ننسى مثلاً أن اختراع الدبابة كان مستحيلاً، لولا سلسلة طويلة جداً، بدأت منذ آلاف السنين، على يد الفراعنة، حين اخترعوا العجلة الحربية. ونحن نرى اليوم أن العجلة شيء بديهي. ولكن كل شيء يبدو بديهياً بعد اكتشافه وصنعه بزمان. فمن يولد اليوم يجد أن الطائرة مثلاً شيء بديهي. ولكنه لم يكن كذلك قبل أقل من عشرين سنة، بل كان مجرد خيال علمي طريف.

ونحن ننسى أنه لولا اختراع الورق في الصين قبل آلاف السنين، لما أمكن اختراع المطبعة، والكتاب، والجريدة، وبالتالي انتشار العلم وجعله ميسراً وفي متناول الملايين...

ونحن ننسى أنه لولا اكتشافات علماء العرب في الرياضيات والفلك، كالبيروني وغيره، لما أمكن الوصول إلى النظريات الرياضية الحديثة، وأينشتين، والنسبية، وتحطيم الذرة.

إذن، فالذين يحاولون تحطيم حضارات الماضي القديمة بأسرها، ومحوها محواً.. ينسون مسألة بديهية، وهي أن تلك الحضارات، كان التقدم فيها يمشى على القدمين معاً: على التقدم والابتكار في العلوم العقلية والانسانية، وعلى التقدم والابتكار في العلوم التطبيقية. وكلمة التكنولوجيا كلمة جديدة. ولكن معناها قديم. وهو تحويل المعرفة العلمية النظرية إلى نتيجة تطبيقية علمية، يستوى في ذلك اكتشاف النار من الانسان الأول مع اكتشاف الالكترون من قبل الانسان الحديث.

ولربما كان السبب، في نسيان الناس لهذه الحقيقة، هو أن العلوم التطبيقية، سريعة التغير بطبيعتها ينسخ أحدهما الآخر ويلغيه ويستغني عنه، كالانتقال من السفينة التي تسير بالشرارح إلى السفينة التي تسير

بالبخار، إلى السفينة التي تسير بالطاقة الذرية. في حين أن العلوم الانسانية أطول عمرا وأطول بقاء، وأحيانا إلى درجة الخلود. لأن العلوم الانسانية في جانب كبير منها تتناول الانسان ذاته. وهو أكثر العناصر بقاء وأقلها تغيرا. في مشاعره وأحاسيسه وغرائزه، والعوامل المؤثرة في صفاته.

وليس أدل على القيمة الكبرى للماضي بهذا المعنى المتكامل، من أننا نجد أن أكثر الدول تقدما وتحضرا ورقيا بمعايير العصر الحديث، هي الدول التي تتميز بالمخترعات الحديثة والمظاهر المادية للتقدم، هي نفسها أكثر الدول اهتماما وعناية في التنقيب عن آثار الماضي، مهما كان بعيدا عنها في الزمان والمكان..

اكتشاف جمجمة إنسان ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين، في أقصى أنحاء الأرض، خبر هام ينشر في الصفحات الأولى من صحف أوروبا وأمريكا، ويتجادل فيه العلماء، وتحتدم حوله الاستنتاجات..

الجامعات الأمريكية والأوروبية الكبرى.. هي التي ترسل البعثات، وتعتمد الميزانيات، لعمل الحفريات والتنقيب عن آثار عمرها آلاف السنين في البحرين، أو في جزيرة فيلكا أمام شاطئ مدينة الكويت، أو في الكشف تحت تراكمت الزمن في مدينة قديمة كالقاهرة لدراسة نظم البناء والمعمار وشبكات الماء والمجارى في المدن الفاطمية القديمة التي اندثرت.

وحين جاء نابليون إلى مصر ومعه بعثة من أعظم علماء فرنسا، ليكشف عن آثار مصر، ويعثر على حجر رشيد، ويفك لغز اللغة الهيروغليفية، لتقهم أسرار حضارة بادت منذ آلاف السنين.. كل هذا

ليس ترفاً، ولكنه في جانب أثر من آثار غريزة الانسان في الحاجة إلى معرفة أمه وأبيه وأصوله، ومن أين جاءت، وفي جانب منها إدراك عميق أن الانسان كلما زاد معرفة بتاريخه زاد معرفة بنفسه، وكلما زاد فهمه لماضيه زادت قدرته على تصور مستقبله.

النقطة الثانية، أو رد الفعل الثانى، وهو الفرع من حضارة العصر الحديث، بتحدياتها العنيفة والجانب القاسى من ملامحها، ومواجهة ذلك بالهرب إلى الماضى، والاستكانة إلى القديم، والانسحاق لحلم غامض بالرجوع إلى عصر كان ذهبيا في أوانه، فهو بدوره رد فعل خاطئ، نفهمه في الحقيقة من خلال علم النفس، أكثر مما نفهم من خلال مصلحة المجتمع، والأمر هنا يبدو بديهيا لا يحتاج إلى أكثر من استخدام العقل السليم، رغم أنه في العادة — كالحال في بلادنا — محل خلاف شديد.

فلا يمكن لمجتمع يريد الحياة أن يرجع كلياً إلى الوراء. ولا يمكن أن يهرب مجتمع إلى كهف ينام فيه قروناً ثم يصحوا ليجد أن الأمور قد تطورت لصالحه أو أن الحياة قد توقفت عند لحظة إغفائه. فكل ترتيب وضعه الانسان قبل ألف سنة ليواجه ظروفًا معينة، لا يمكن أن يصلح لورثته بعد ألف سنة. ولا يمكن أن يعفيهم من واجبهم في ترتيب أمورهم من جديد، اكتفاءً بجهد الأجداد والأسلاف العظام. فهؤلاء الأسلاف كانوا عظاماً لأنهم لم يركنوا إلى ما وجدوه من قبلهم ولسكنهم تقدموا وصنعوا الجديد في عصرهم، وكل ماضٍ تندثر منه أشياء وتبقى منه أشياء.

الظروف تتغير باستمرار ولا بد من مواجهة الظروف الجديدة بحلول جديدة.

الواحة غير القرية غير المدينة الكبيرة. الرعاة غير الفلاحين غير العمال المحتشدين في المصانع والمحكومين بالآلات.

تبقى من الماضي قيم أساسية. وقسمات خاصة بكل شعب كانت له فترات حضارية عظيمة. وتكوين نفسى عام نتيجة الرسالة السماوية، وأحداث التاريخ، وحقائق الجغرافيا الباقية، والامتحانات التى مر بها. ولكن يتغير أسلوب الحياة وأنماط السلوك بتغير شكل الانتاج وأسلوب التجمع السكانى وقدرات العلوم والاكتشافات المتتالية.

ولو أننا احتكنا إلى المنطق المجرد، لقلنا إن الأمة التى كانت لها حضارة عظيمة وتاريخ مجيد، هى التى يجب أن تكون أسرع فى اليقظة من سباتها، والتخلص من عوامل تخلفها، والانتقال إلى التقدم. ولكن كثيرين من علماء وخبراء «التنمية» المعاصرين يلاحظون أن العكس هو الذى يحدث فى حالات كثيرة. فالمجتمع البادئ من نقطة ليس لها تاريخ، يتحرك بسرعة أكبر، لأنه ليس لديه ما يجعله ينظر إلى السوء. وليس له هوية قديمة يحرص على الاحتفاظ بها وهو يقتحم مغامرة التقدم.

والمثل على هذا فى العصر الحديث نجده فى المقارنة بين السرعة التى اندفعت بها الولايات المتحدة الأمريكية والبطء النسبى الذى سارت به أوروبا وهى الأم فى كل مجال تفوقت فيه أمريكا.

ذلك أن أمريكا بدأت بالمهاجرين. المهاجرون جاءوا إليها هرباً من ماضيهم فى أوروبا، كطريقة للفرار من سيئاته ومعوقاته. الاضطهاد الدينى، الحروب الوطنية، التعصبات الاقليمية، النظام الطبقي.. كل هذه الملامح الأوروبية فر منها مهاجرون، ارتادوا أمريكا، يعملون فقط، بغير

هذه العقد، كل فرد حر في دينه. الولايات التي تكونت هناك التحمت في
بساطة شديدة في وطن واحد كبير. البوتقة صهرت الفرنسي والألماني
والانجليزي والأسباني الذين ظلوا في أوروبا قبل ذلك وبعد ذلك
يتحاربون. امتيازات الوراثة لم توجد — وليس صدفه — ولادة أول نظام
جمهوري هناك. الفرصة المتكافئة كقاعدة في المجتمع بدأت هناك من
جديد...

واست أنسى دهشة ذلك الصديق من كندا كلما قلت له في القاهرة:
هذا المبنى عمره ألف سنة.. وقوله: عندما نجد في كندا مبنى عمره
خمسون عاما نعتبره أثرا تاريخيا عريقا!

فالبلاد ذات الحضارات الذهبية القديمة — مثلنا — تواجه في السواقع
معادلة لا بد من حلها.

فيإلغاء التاريخ عبث، والسكنى بين مقابره وأثاره انتحار. إنما لا بد من
الاسراع بإيجاد صيغة تجمع بين القدرة على استيعاب التراث ومواجهة
المستقبل.

وهذا لا يكون إلا بمعاملة التراث معاملة انتقاء، لا معاملة اكتفاء
وانكفاء. والتوجه إلى المستقبل في شجاعة وليس في خوف واتقاء.

يلعل مما يسهل علينا هذا، أن ندرك ما ننساه في نظرتنا إلى
الحضارات القديمة، من أن التقدم فيها كان إنسانيا وماديا على السواء.
كما ذكرت من قبل، تماما كأي حضارة حديثة.

وهذا ينقلنا إلى النقطة الثالثة... وهي أننا كثيرا ما ننسى أن
الحضارة الحديثة الراهنة، هي أيضا قامت كسابقاتها على أساس من

التقدم في الناحيتين: العلوم الانسانية والعلوم التطبيقية أو التكنولوجية على السواء.

لاشك أن الحضارة الحديثة، بحكم التقدم العلمى المتسارع، تبدي من نفسها للناس وجها طاعيا في ماديته. الأمر الذى جعل الكثيرين يظنون أن هذا الجانب المادى الساحق هو الحضارة كلها، فالتقدم التكنولوجى الذى تم في مائتى سنة لم يرث مثله في ألفى سنة قبل ذلك. ظل الانسان آلاف السنين مثلا يركب الدواب أو ما تجره الدواب، ولكن الانسان في خمسين سنة، أى في عمر متوسط الانسان، عرف الدراجة والسيارة والقطار والطائرة والغواصة والصاروخ والأقمار الصناعية!

هذا الوجه الطاعى في ماديته للحضارة الحديثة، كان من خصائصه أيضا إيجاد تسهيلات مباشرة للحياة اليومية للفرد العادى. فقصور الأباطرة والملوك والأمراء عبر آلاف السنين لم تكن فيها التسهيلات الموجودة في بيت أى فرد بسيط من مياه جارية وإضاءة سهلة نقية بالكهرباء ومساعد وثلاجات وسخانات وأجهزة تكييف الهواء وتغسل الاوانى والثلثاب وراڊيو وتليفزيون وأجهزة تنقل الأخبار والأصوات والصور عبر آلاف الأميال في ثوان.

هذا كله رسخ في أذهان كثيرة أن الحضارة الآن هي إعادة في كل مظاهرها. وأنها كلها خرجت من معامل الباحثين في العلوم التطبيقية والتكنولوجية.

وهذا خطأ كبير...

فهذه الحضارة الحديثة كغيرها من قبل قامت على العلوم الانسانية والتطبيقية معا. عصر النهضة عرف الرسامين العظام والأدباء والفلاسفة

الكبار جنباً إلى جنب مع العلماء. ولو اخترنا رمزاً لوجب أن نذكر ليوناردو دافنشى رسام عصر النهضة الذى كان يرسم أجمل اللوحات ويرسم نماذج علمية للغواصة والكبارى المعلقة وغيرها، الحضارة الحديثة صنعتها ريشة رافايللو وبيكاسو كما صنعتها موسيقى بتهوفن وكما صنعتها فلسفة ديكارت وهيغل وكما صنعتها تجارب اديسون وماركونى، ورياضيات اينشتين وصواريخ فون براون وقنابل اوينهايمر الأمريكى وزخارف الروسى الذرية والهيدروجينية، ومطبعة جوتنبرج وأدب فولتير والفكر السياسى لتوماس جفرسون وأبحاث فرويد ويونج فى نفس الانسان، مهما كانت محل خلاف أو اتفاق.

إن الحضارة كل لا يتجزأ. إنها تربة واحدة تنتج زهوراً مختلفة لكنها متسقة متكاملة. إنها مجموعة قيم، بخيرها وشرها، يفلسفها الفكر وترعاها العلوم الاجتماعية وتدعمها العلوم التكنولوجية، ولا يتصور قيام تحضر أعرج يعتمد على عنصر واحد دون سائر العناصر التى تعطى الظاهرة الاجتماعية اسم الحضارة. وتعطى كلمة الحضارة معناها، وترسم لها مسيرها، تموها أو اندثارها.

ولقد استنفدت فيما يبدو الصفحات التى لى، فى الحديث عن قضية واحدة من القضيتين اللتين أثارتها مناقشة عن بناء دار للأوبرا...

أردت أن أقول إن إقامة «مجمع فنى» رفيع لا يقل قيمة وأهمية عن إقامة «معمل أبحاث» رفيع، والظن بأن الثانى يعطى بمفرده نتائج ملموسة محسوسة مادية يمكن أن تكون وحدها حضارة، ظن خاطئ..

أما القضية الثانية، قضية «النخبة والجمهير» فيبدو أنه لابد من تركها لحديث آخر...

استعمار التاريخ.. والحوار بين الحضارات !

«عندما هزم شارل مارتل الفرسان العرب
في بواتييه سنة ٧٣٢. بدأ تراجع الحضارة
العربية أمام الهمجية الأوروبية،
أنا تول فرانس
في كتاب «الحياة بالزهور»

يبدو أنه لا يوجد في عالم اليوم مفكر واحد راض، أو متفائل.
ولا نتحدث طبعاً عن أولئك «الكتبة» لا «الكتاب» الذين يملأون
الصحائف كل يوم، إما بتملق حكامهم أو بتملق قرائهم أو بتملق
أنفسهم. هؤلاء الذين يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر. بالنقل لا بالعقل،
ربما كانوا أحد أبيئة الحضارة التي جعلت النشر سهلاً واسعاً ميسراً
ولم يعد «باباً ضيقاً» كما كان الأمر في الماضي عندما كان لا يظهر
إلا الجديرون، الذين يشقون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملاً بكلمة
الانجيل «اجهدوا للدخول من الباب الضيق».

وليست هذه الظاهرة ولا هؤلاء «الكتبة» هم موضوع حديثنا هذا.
ولكن العذر هو أن المرء يضطر أحياناً وهو يتحدث إلى أن «يهش
الذباب» ..!



ومن هذه الأرواح القلقة، التى يفيدنا قلقها خصبا ومعرفة وتساملا، مفكر فرنسى لأعماله صلة وثيقة بالعصر كله من جهة، وبالعالمنا العربى بالذات من جهة أخرى، وهو روجيه جارودى.

كان روجيه جارودى معظم حياته عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى، حتى صار أهم مفكره، وأشهر أعضاء قيادته المتمثلة فى المكتب السياسى، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العلم ودوار التغيير السريع.. بدأ يعيد النظر، ويقلب الفكر، ولم يكن هذا مما يتسق مع وضعه القيادى فى حزب حديدى، ففصل من الحزب الشيوعى الفرنسى، بعد محاكمة «فكرية» شهيرة..

وقد أصدر بعدها كتابا أحدث ضجة واسعة، إذ سجل نقطة خلافه الأساسية مع الفكر الماركسى التقليدى عنوانه البديل L'Alternative.

ولكن قضايا هذا الكتاب ليست موضوع هذا الحديث. ولكن موضوعنا هو ثلاثة كتب أخرى له، متكاملة أو متداخلة :

أولها : كلمات إنسان Parole D'Homme.

وثانيها : من أجل حوار بين الحضارات. Pour Un Dialogue Des Civilisation.

وثالثها (وقد صدر أخيرا) : كيف يصبح الانسان إنسانيا ؟ Comment L'Homme Devient Humain.

والكتاب الثالث لم يصلنا بعد. ولكن بين أيدينا أجزاء كثيرة نشرت منه، ومناقشات دارت حوله إلى جانب الكتابين الأولين...

ببساطة شديدة يقول الكاتب المفكر الفرنسى لجمهوره الغربى : إن كل

مصائب الدنيا مصدرها أن العالم الغربى يظن أنه صاحب الحضارة العظمى ومصدر كل التقدم فى هذه الدنيا لمجرد أنه - اليوم - هو الأقوى، وهو المصدر...

ويطلق جارودى صيحة أذهلت مواطنيه : إن الغرب مجرد صدفة !...
L'occident Est Un Accident ! فالغرب ليس تعريفا جغرافيا، ولكنه تلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التى تميزه كحضارة متقدمة فى عصرنا الراهن.

ولكن حضارة الغرب لم تولد من العدم. ولكنها كأتى شىء له أصل وله جذور.. ولو نظرنا نظرة صحيحة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب اليوم، وما يشعه على العالم من أفكار ومبادئ ونظم وفنون ومساديات، فسنجد له جذورا فى حضارات أخرى...

ثم إن الغرب - كحضارة حديثة - عمره لا يزيد عن مائتى سنة ! ومع ذلك فهو يبدو على وشك أن يجر العالم إلى الهلاك بمخترعاته الذرية واستخداماته للقوة الغاشمة.

فهو لم يثبت بعد قدرته حتى على البقاء زمنا طويلا. لأن حضارة المصريين القدماء، عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة. ولأن حضارة الصين عاشت ألفين - لا مائتين - من السنين !

وبالتالى فهو يرى أن الحضارة الغربية قد أثبتت أنها عاجزة عن قيادة العالم.

والحل هو :

أولا : أن تدرك هذه الحضارة الغربية حجمها الحقيقى بين حضارات العالم الأخرى.

والثاني: أن يقوم حوار بين الحضارات، تتبادل فيه مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها، وعلى قدم المساواة، حتى يصبح ممكنا أن يعيش العالم في سلام...

ولكن، متى بدأ روجيه جارودي الفرنسي، الماركسي، هذا الانعطاف الهام؟

يقول ردا على ذلك: إنه تدرج في نفسه طويلا وببطء. وبدأ بلقاءه الأول بالحضارة العربية الإسلامية.. «بدأ اهتمامي الأول بهذا الموضوع سنة ١٩٤٧ حين أصدرت كتابا صغيرا بعنوان «محاولة تاريخية لفهم الحضارة العربية».. وقد أسعدني أن أعرف أن بعض الشباب الوطني في مصر ترجمه وقدمه لجمال عبد الناصر. ولكن، سبق لي قبل ذلك حادث لا أنساه أبدا: في سبتمبر ١٩٤٠، خلال الاحتلال الألماني لفرنسا، كنت شيوعيا أعمل في المقاومة ضد حكومة فيشي، فألقي القبض علي وأرسلوني إلى معسكر اعتقال عند واحة «غرداية» في قلب صحراء الجزائر الكبرى. وبعد وقت قصير، قمنا بحركة تمرد في المعتقل، وأمر الضباط جنودهم الجزائريين بإطلاق النار علينا وقتلنا. كان عمري سبعا وعشرين سنة. ولكن الجنود الجزائريين العرب رفضوا إطلاق النار. فأنا عشت بعد ذلك بفضلهم».

ويقول جارودي: إنه ليس أول من قال بهذا الرأي، وإن كان هو قد عكف على شرحه وقرر جعله موضوع ما تبقى من حياته..

ثم يذكرنا بكلمة قالها الكاتب الفرنسي الشهير «اناتول فرانس»: «إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية، حين هزم شارل مارتل جيوش الوالي عبد الرحمن، قفى ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام البربرية الأوروبية!».

ويروى جارودى أنه استشهد بهذه الجملة في محاضرة له في تونس سنة ١٩٥٥. وكانت تونس ما تزال تحت الاحتلال الفرنسى. وفي اليوم التالى طردته السلطات الفرنسية من تونس بتهمة قيامه بدعايات مضادة لفرنسا!



ويشرح روجيه جارودى في إسهاب لماذا يعتبر «الغرب.. صدفه».. في كتابه «حوار بين الحضارات».

وإذا رجعنا إلى قول «بول فاليرى» أن الغرب قد صنعته ثلاثة عناصر:

أخلاقيا: المسيحية، والكاثوليكية بالذات.

سياسيا وقانونيا: روما وقوانينها.

فكريا وفنيا: الاغريق..

فإنه يمكن القول أن المسيحية ولدت في آسيا، وأن حضارة الاغريق والرومان ولدت في حجر البحر الأبيض، ويتأثير شديد جدا من شواطئ أفريقيا وآسيا.. فكلها عناصر «شرقية»، خارج «الغرب» بمعناه المعاصر..

ويقول جارودى إن حضارة أوروبا نبتت جذورها كلها لأول مرة في أفريقيا وآسيا: وبالتحديد في مصر، وبلاد ما بين النهرين (العراق)..
فروح حضارة الغرب ومنطلقها هو التوجه نحو سيطرة الانسان على

عوامل الطبيعة، وعلى ذاته وإعلانها..

ولكن في بلاد ما بين النهرين، ومنذ خمسة آلاف سنة قبل «اليانعة هوميروس»، يرفع الستار عن أسطورة «جلجامش». التي تتحدث عن مارد ثلثة إنسان وثلثاه إله، ظهر في مدينة «أور» بعد الطوفان، ورحل إلى أرض الأنهار الخمسة، حيث تجرى الأسطورة متحدثة عن كل أشواق الإنسان إلى تحدى الطبيعة والسيطرة عليها، وتجاوز إمكاناته كبشر.. فمنذ أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كان «فاوست» الذى ألفه «جوته» واتخذ رمزا لروح الغرب، قد ظهر في أسطورة «جلجامش».

وحين سنل جلجامش في الأسطورة العراقية القديمة «ولماذا تحاول المستحيل؟» رد قائلا «إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا انتقدت في نفسى نار القلق والرغبة فيه؟».

ذلك هو أساس كل حضارة الغرب، التي تناقلها بعد ذلك فلاسفة الاغريق حتى أوصلوها إلى أوروبا.

أما «الجرثومة» الأخرى للفلسفة الاغريقية التي ولدت في فينيقيا وكريت خصوصا عن طريق أفلاطون فنجدها في مصر.

فالفلاسفة والمؤرخون الاغريق تأثروا تأثرا كبيرا وأعجبوا إعجابا عميقا بمصر القديمة. وفكرة أفلاطون التي ألهمت أوروبا عن الدولة الفاضلة التي تجمع بين الاستقرار السياسى والديمقراطية الحية، كان وحيه فيها من مصر، ألهمت مصر كل تجارب الاغريق.

فلو فحصنا ما أنجزه الاغريق.. بدءا من فن النحت إلى الفلسفة إلى السياسة نجد تأثرهم العميق بمصر وتمثلهم الدائم بها.

ويضرب جارودى المثل بثلاث «مساهمات» مصرية قديمة أساسية في تراث الانسانية كلها:

الأولى: أسطورة أوزوريس الذى يقاوم الطبيعة فيمزقه أعداؤه إلى قطع ينثرونها فى الوادى كله، ثم تجمعه من جديد. موجهة بفكرة البعث، أخته إيزيس بحبها ودموعها عبر سنوات المعاناة الطويلة، فهى أول حديث عن رموز العلاقة اللانهائية بين الإنسان، والطبيعة والآلهة..

والثانية: «كتاب الموتى»، ثم صراع الفراعنة التاريخى ضد الموت بفكرة إقامة مبان تدوم إذا فنى الإنسان، وتسجل طابعه وعمله دهورا بعده، كالأهرامات وقبور وادى الملوك وهى فكرة جوهريّة فى حضارة الغرب.

والثالثة: إخناتون الفرعون الذى مات فى الثلاثين من عمره بعد أن اكتشف أول فكرة انقلايية فى التاريخ وهى عقيدة التوحيد، بعد تعدد الآلهة التى نجدها بعد ذلك فى فلسفة الاغريق وفى التوراة.

ويضيف جارودى فضلا ثالثا إلى إخناتون، فيقول: إنه أول من رفع المرأة، فبدت فى تماثيله جالسة على حجره، وقد نقش على الجرانيت أول قصائد حب.

«هكذا نجد جذور الغرب وقد تشكلت فى مصر وبلاد ما بين النهرين: صراع الإنسان ضد الطبيعة للسيطرة عليها، ونضاله لكى يتفرد من بين كل المخلوقات بصفاته، ويقدرته على التفكير المجرد.. وكل محاولة لقطع جذور الغرب عن جذوره الشرقية لا تؤدى إلا إلى افقار الإنسان».

أما ما تسميه كل المراجع «عصر النهضة» فى أوروبا، فهو عصر نمو الرأسمالية وبدء الاستعمار. هو بداية صعود الغرب ولكنه كان بداية تدمير هذا الغرب نفسه لحضارات أخرى أرقى من حضارة الغرب.. سواء فى علاقة الإنسان بالله، أو علاقة الإنسان بالطبيعة، أو فى علاقة

الانسان بالمجتمع.. وهى العناصر التى تحدد رقى أى حضارة...

وقد فعل الغرب ذلك عن طريق شىء أساسى وهو: تفوقه فى استخدام القوة العسكرية دون أى نوع آخر من القوى ذات العلاقة بالتقدم والرقى.

ويحلل جارودى حضارة الغرب الراهنة - السائدة - تحليلا فلسفيا طويلا، نحاول تبسيطه فى قوله أولا: إن تاريخ الانسان يتلخص فى ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة سيطرة الطبيعة على الانسان.. أى حين كان الانسان يصارع عن مركز ضعفه ضد قوى الطبيعة الأقوى منه.

الثانية: مرحلة سيطرة الانسان على الطبيعة.. وهى حين نجح الانسان فى التقدم بدرجة سمحت له باستئناس الطبيعة إلى أحد كبير بما أوتى من عقل وعلم وحضارة.

والثالثة: وهى التى نعيشها حاليا ويسمىها «مرحلة محاولة سيطرة الانسان على نفسه» ذلك أن الانسان بما وصل إليه من تقدم وعلم وصناعة أطلق قوى تدميرية هائلة من عقالها باتت تشوه حياته وتدمر بيئته ومقوماته وتهدد وجوده ذاته، والنتيجة فى هذا الصراع الأخير مشكوك فيها!

والمرحلة الثالثة، مسئولة عنها حضارة الغرب، بتخليها عن القيم المشتركة مع الحضارات الأخرى والمستلزمة منها.

وبأسلوب آخر.. ان حضارة الغرب قامت من ثلاثة منطلقات:

أولوية العمل كقيمة أساسية («والعمل» كما يقول تقليد بورجوازي وقيمة اشتراكية).

وأولوية العقل بوصفه أداة حل كل المشاكل والرد على كل الأسئلة.
وأولوية القيمة التي سماها هيجل «باللامتناهى».

ولكن هذه القيم تحولت وشوهت بحيث ركزت كلها على الذكاء.. ولم تترك مجالاً للحب، والشعور، والضمير..

والأولويات الثلاث صارت أثقالاً، لا حوافز..

قيمة العمل تحولت إلى خضوع الإنسان للاستهلاك.

قيمة العقل تحولت إلى خضوع الروح للذكاء.

وقيمة اللامتناهى تحولت من الكيف إلى الكم.

والسؤال الوحيد الذي يطرحه الآن الإنسان على نفسه كل ساعة إزاء
أى مشكلة أو موقف هو: «كيف؟»

ولم يعد أحد يسأل أبداً السؤال الأكثر أساسية وإنسانية وهو:
«لماذا؟».

وفي فصل هام عن «الفرص الضائعة» يتحدث جارودى في إسهاب عن
ضياع فرص تأثر الغرب باطراد وتواصل الحضارات الأخرى. وقد يكفى
هنا أن نضرب مثلاً بحديثه عن حضارتنا العربية.. وعن تزوير الاستعمار
الغربي للتاريخ بتصويره التوسع العربى، منذ القرن الثامن الميلادى،
على أنه موجة من موجات «البربرية الآسيوية» التى هددت الغرب!

هذا فى حين أن الغزاة الانجليز والفرنسيين والأسبان هم السذين

دخلوا أرض الاسلام مدمرين للحضارة العربية في كل أشكالها..

«... إن ما يسميه الغرب «بغزو أسبانيا» لم يكن غزوا عسكريا فقط كغزوات الأوروبيين، فأسبانيا كان فيها من السكان عشرة ملايين ولم يدخلها من الفرسان العرب أكثر من خمسين ألف فارس.. ولو كان الأمر حربا فقط لما نجحوا. ولكن تفوق حضارة على أخرى كان هو عنصر النجاح الساحق».

«وما فعله العرب في أسبانيا يجعلنا نفهم ما فعله ماوتسى تونج في الصين» !! أتى بنظام اجتماعي أرقى. حرر العبيد وأنهى الرق وسوى الحقوق ودعم النظام. وعلى أنقاض الفوضى الاقطاعية أقام العرب أعظم مساقط المياه في ذلك العصر وأغنى البساتين القائمة إلى الآن.

«وما رأيت في تونس.. من آثار عربية قديمة تدل على سابق الازدهار.. ومن واقع .. خلال الاحتلال الفرنسي — ينم عن الافقار والدمار.. يعطينا صورة ساطعة عن الفرق بين حكم الأغالبة في شمال أفريقيا، وحكم الفرنسيين.

«الحضارة التي زرعها العرب عندنا في أوروبا وبالقرب منا في أفريقيا تمتد جذورها إلى الشرق في آسيا. وحين سافر الفرنسي «جيرير» إلى معاهد الشرق وعاد حاملا علومه قال الناس في أوروبا إنه قد اتصل بالجن لكثرة معارفه ! وبعد قليل جعلوه بابا على روما باسم البابا سيلفيستر الثاني.

«ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب. وأولها كلية الطب في مونبليه الفرنسية. وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون في جامعات فرنسا وإنجلترا باسهاب علوم الطب العربية، ومؤلفات الرازي..

ولكن منذ انتصار شارل مارتل على العرب في بواتييه تكونت لدى أوروبا عقدة اسمها «حماية الحضارة الغربية من البرابرة!»

إن كتب التعليم تلقن الأوروبيين منذ طفولتهم أن معركة بواتييه كانت نقطة تحول إذ طردت الهمج عن أوروبا المتحضرة. وهذا هو استعمار التاريخ بعينه. فالواقع هو العكس. فهزيمة العرب ضيقت على فرنسا وأوروبا فرصة الالتقاط المبكر لحضارة العرب.. وأخرت أوروبا عشرة قرون على الأقل.. حتى بدأت أوروبا ترى النور بعد القرون الوسطى!



ولست هنا في مجال الاستشهاد بأقوال جارودي عن مآثر الحرب، وقلب أوروبا لحقائق التاريخ، أو استعمار التاريخ، كما قال بحق، فالأمثلة كثيرة..

ولكن المهم أنه يستشهد بنفس الأسلوب بحضارات أخرى غير الإسلام، أهمها الصين. وعدم الاستفادة منها. إنها فكرة عداء الحضارات لا تكاملها..

المهم هو المشروع الذي نذر جارودي ما استقبل من حياته له وهو:

نزع استعمار التاريخ، وتصحيحه..

وإقامة حوار بين الحضارات كلها.

ويكلماته «كيف يمكن بناء تاريخ لا تحتكره حضارة واحدة؟»

إنه يرى في هذا المشروع الخلاص الوحيد للبشرية من خطر الفناء فهل نشاركه هذا المشروع؟

بعد كتابة هذا الحديث، أنهى جارودي رحلته الفكرية المقلقة، باعتناق
الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام، وتغيير اسمه إلى «رجاء
جارودي».

نحن .. والآخرين

نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة!

■ نحن نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة!

استنتاج مؤسف، لا يتمكن من يقرأ التاريخ، ومن يدرس ويحلل الحاضر من منظور تاريخي، إلا أن يصل إليه...

وأبادر فأقول إن الكاتب إذا كان مضطرا إلى استخدام هذا التعبير الكريه، تعبير «الحروب الصليبية».. فلأن هذا هو الاسم التاريخي للحروب الصليبية الغابرة، ولأنه فعلا، وعندما بدأت قبل قرون من غرب أوروبا ضد العالم العربي والإسلامي، جاءت جيوش الغزو تحت راية الصليب، ويشعار استرداد الأراضي المقدسة من «المسلمين»، وتحصت رعاية البابا في روما، وحاكم ورئيس كنيسة الامبراطورية البيزنطية...

ولكن الصيغة الدينية لهذه الحروب، كانت تقل مع الزمن ويبرز من خلفها جوهرها الحقيقي، وهو بداية تحرك أوروبا إلى الاستعمار والاستقلال الاقتصادي، وتنافس ملوكها وأمرائها في هذا المجال..

ولا نحتاج إلى الغوص وراء أدلة كثيرة قد تجرفنا عن جوهر هذا الحديث، ولكن يكفي أن نحتكم إلى مرجع غربي واحد، دقيق، يزن الكلمة والسطر، ولا يتهم بالتحيز للعرب والإسلام، بل العكس، وهو «الانسكلوبيديا بريتانيكا»، أو دائرة المعارف البريطانية...

فهى فى مفتتح حديثها عن الحروب الصليبية تقول: إن السبب الأول هو اضطراب الأمن فى الأناضول (تركيا) مما كان يزعج قوافل الحجاج الأوربيين الذاهبين إلى القدس، وكان الأناضول فى ذلك الوقت، القرن الحادى عشر، محل صراع بين الأتراك والبيزنطيين.

والسبب الثانى، والأساسى، الذى تشرحه الانسيكلوبيديا هو أن أوروبا بعد أن انتهت من حروبها مع القبائل الغازية - المجيار والفايكنجز وغيرهم، وبعد أن تمت مسيحيتها، انتعشت فيها التجارة، وزادت حركة المال، وكان لابد من مجال «لاطلاق القوة الزائدة فى غرب أوروبا من عقالها»، تعبير مهذب عن الاتجاه إلى الخارج، وراء المستعمرات.

الدليل الثانى ما نجده فى صفحات تاريخ الحروب الصليبية من صراع بين ملوك وأمراء أوروبا الغزاة، لا على القدس وكنيسة القيامة كما زعموا، لكن على اقتسام أجزاء واسعة من المشرق العربى الاسلامى، صراع تضاعلت إلى جانبه الرغبة فى تحرير القدس وغيرها من الأماكن المقدسة...

والدليل الثالث أنهم حين دخلوا القدس مثلاً ذبحوا «المسلمين واليهود» كما تقول دائرة المعارف البريطانية أيضاً. ونضيف إلى ذلك أنهم حرّموا على اليهود سكنى القدس حتى حرّرها صلاح الدين الأيوبي بعد ما يقرب من مائة سنة. والأهم من ذلك قول دائرة المعارف البريطانية أن المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين اشتركوا فى مقاومة الغزو الأوروبى البيزنطى المشترك، ورفضوا الخضوع لهذه الكنيسة أو تلك، وحين سقطت إمبراطورية بيزنطة كلها «قبل المسيحيون الشرقيون حكم المسلمين».

وتعترف دائرة المعارف البريطانية في تحليلها لنتائج الحروب الصليبية كلها - الحملات الثمانى خلال خمسة قرون - بأن المشرق العربى الاسلامى لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين قط، قبل أن تداهمه أوروبا بهذه الحروب، وأن الحروب الصليبية، وتنكيلها الوحشى بالمسلمين واليهود وأحيانا بالمسيحيين العرب، هى التى تسببت فى حالات الاضطهاد الدينى بعد ذلك، كنوع من رد الفعل.

فأوروبا سعيا وراء مصالحها المادية، هى التى صدرت إلى بعض بلاد المشرق بعض صور التعصب الدينى، الذى كانت أوروبا تتوسل به كأسلوب لتبرير السيطرة والنقوذ.

وأىضا، وفي تحليل دائرة المعارف البريطانية لآثار كل هذه الحروب الصليبية طوال قرون، تقول إن أوروبا أخذت عن العالم الاسلامى الكثير من العلوم والفنون والصناعات التى كانت تجهلها، وحملت إلى أوروبا البضائع الشرقية والنظم الغربية عليهم على السواء. وازدهرت التجارة والملاحة عبر البحر الأبيض، ثم يقول نفس المصدر إن أوروبا لم تقدم للمشرق العربى الاسلامى أى شىء له قيمة حضارية، لأن أوروبا ذلك العصر لم يكن لديها ما تقدمه ! وإن كثيرين من الأمراء الذين جاعوا معتقدين أن المسلمين برابرة متخلفون، دهشوا حين وجدوا أن لديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التى لا تعرفها أوروبا !

المهم نعود إلى ما أسلفت ذكره من أن اهتمام أوروبا بالاحتفاظ بالقدس - وهو حجة الحروب الصليبية كلها - تضاعل إزاء اهتمامها باستعمار المشرق، بدليل أن كثيرا من الحملات - أو معظمها - استهدف إقامة ما يسمى «دولا لاتينية» فى المشرق، فاهتموا بغزو أنطاكية، وحلب، والموصل فى العراق، ودمشق، بل وحين وجدوا أن مصر

تلعب دورا في مساندة المشرق، شنت بعض الحملات الصليبية، بقصد الاستيلاء على الدلتا والوصول إلى القاهرة.

وفي إحدى الحملات تحالفوا مع المغول - السوثيين - ليحسروا المنطقة العربية الاسلامية من الشرق والغرب. واهتم المغول بعد ذلك - لأسباب خاصة بهم - بالاندفاع من أجل اكتساح العالم العربي الاسلامي، فدمروا بغداد، ودخلوا دمشق، حتى تجمعت كلمة العرب المسلمين وهزمهم في الموقعة التي غيسرت وجه التاريخ.. «عين جالوت»، بالقرب من مدينة الناصرة الفلسطينية الآن. وكان قائد المغول في تلك المعركة قائدا أوروبيا مسيحيا بعثه الأوروبيون إلى المغول ليحسن قيادتهم!

كانت أوروبا في ذلك الوقت تغل من حروبها الدينية الداخلية، وخلافاتها، وتزداد قوة، وتتجه إلى الخارج...

وكان العالم العربي الاسلامي على العكس، قد وصل إلى قمة الحضارة، ولكنه بدأ مرحلة التفكير والخلافات الاقليمية والصراعات...

ولهذا فكرت أوروبا في هدفها الذي لم يتغير من وقتها: غزو الشرق. أو في القليل إقامة دويلات أوروبية فيه، منها تتحكم في بقية تلك المنطقة الاستراتيجية، الغنية، القريبة منها..

في سنة ١٠٨٥، انهار الوضع الاسلامي في الأندلس، إذ سقطت طليطلة...

وفي سنة ١٠٨٧، احتل أهل «جنوا» الإيطالية مدينة «المهدية» في تونس...

وفي سنة ١٠٩١، طرد الأوروبيون المسلمين العرب من جزيرة صقلية...

«مد» أوروبي متصل.. و«جزء» عربي إسلامي.. وتأمل التسلسل التاريخي الذي أسلفت ذكره...

وقد كان طبيعياً، بعد ذلك أن تبدأ أول «حملة صليبية» لغزو قلب الشرق كله، سنة ١٠٩٥ ميلادية!

لقد استقر في كتب التاريخ كلها، أن الحروب أو الحملات الصليبية في التاريخ، عددها ثمانية...

وليس هذا مجال التأريخ لهذه الحروب الطويلة المعقدة المتشابكة، ولكن ربما لم يكن هناك مفر من سرد الحروب الثمانية، سرداً يوحى لنا بالعبرة فقط، ولكي نصل إلى الإضافات التي توضح كيف أننا نعيش الحرب العاشرة.

وسوف نلمح من هذا السرد كيف أن الأغراض الدنيوية كانت فيها أقوى من الأغراض الدينية، كما سوف نلمح أن هزائم العرب كانت مرهونة بخلافاتهم، وأن انتصاراتهم كانت تتوقف على تضامنهم.

لقد بدأت فكرة أول حرب صليبية من التقاء رغبتين: رغبة «الكسيوس الأول» حاكم بيزنطة في الاستعانة بجيوش غرب أوروبا ضد غزو الأتراك السلاجقة للأناضول وانتزاعهم أجزاء من بيزنطة.. ورغبة البابا أوربان الثاني في روما، في إعادة توحيد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية تحت رئاسته. فوجد أن إرسال جيوش أوروبا تحت شعار تحرير الأراضي المقدسة، سيكون وسيلة سهلة لعبور جيوش أوروبا الكاثوليكية إلى بيزنطة وما بعدها، وبالتالي ضم الكنيستين مع الوقت بعد أن يتم

«إنقاذ بيزنطة». فأوعز إلى ملوك وأمرأء غرب أوروبا بتجيش الجيوش والاتجاه شرقاً لهذا السبب...

١ - وتحركت أول حملة صليبية، بكل الحماسة الدينية لدى الأماة والجند، وكانت بقيادة «بوهيموند» أحد ملوك فرنسا.. ولكن ما إن وصل «بوهيموند» إلى «أنطاكية» - وهى ليست أرضاً مقدسة - حتى أقام ما سماه «أول دولة لاتينية» فى الشرق. وغضب بابا روما. لأن هذا سيثير مخاوف بيزنطة قبل الأوان، ولكن بوهيموند لم يلق بالاً إلى هذا الغضب، فالمهم هو وضع «مسمار» غربى فى المنطقة. وقد سقطت أنطاكية فى يوم ٥ يونيو آخر، سنة ١٠٩٨!!

وكانت المنطقة العربية الإسلامية تحكمها النزاعات بين الولايات والحكام. وقد تمزقت وحدة الدولة. وصار وجود الخليفة العباسى فى بغداد شكلياً..

وكان ثمة صراع - وقتال - بين المسلمين السنة فى الشام والمسلمين الشيعة - الفاطميون - فى مصر. وكان الفاطميون قد انتزعوا القدس لمدة سنة، ووصلت جيوش الحملة الصليبية إلى أسوار القدس والأمور على هذا النحو، وفى ١٥ يوليو ١٠٩٩ اقتحموا القدس، وقاموا بأكبر مذبحة رهيبة ضد المسلمين واليهود وبعض المسيحيين الشرقيين. ومرة أخرى أقاموا حول القدس - مثل أنطاكية - دولة لاتينية، ورفضوا أن يسلموها للكنيسة أو للحكومة الدينية، بل طبق الأمرأ الغزاة فيها نفس نظام الاقطاع الذى كان يسود أوروبا.

وبنفس المنطق، وإزاء تفكك المسلمين العرب، وتعاضم مطامع الملوك والأمرأء والتجار الأوروبيين، أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن إقامة

عدة دويلات لاتينية عواصمها أنطاكية — القدس — طرابلس.. شملت الشواطئ السورية واللبنانية والفلسطينية.

كانت إقامة هذه الدويلات — بمثابة إقامة أوروبا والغرب لدولة إسرائيل سنة ١٩٤٨: فأوروبا المسيحية هي التي أقامت إسرائيل اليهودية. ولكن الدين ليس هو القضية، إنما كانت القضية كما تعرف الآن سياسة استراتيجية اقتصادية: موقع متقدم للغرب، في قلب عالمنا، يتحكمون من خلاله في شئون المنطقة ذات الأهمية الفريدة في العالم.

٢ — ولكن العرب المسلمين، بعد أن استكانوا زمناً، ظهرت فيهم روح المقاومة من جديد، وبدأ نشاط عماد الدين زنكي وولده نور الدين من مملكة حلب يهدد ممالك اللاتين من الشرق، واستولوا على بعض أطرافها، فجاءت الحملة الصليبية الثانية بعد ما يقرب من سبعين سنة.. أرادت أن تحصن ممالكها بالاستيلاء على حلب ففشلت، وحاصرت دمشق حصاراً طويلاً، فلم تقدر على اقتحامها، ولكن ملك القدس انتهاز الفرصة فهجم في اتجاه مصر، واستولى على عسقلان وتوسع حتى آخر ما عرف بعد ذلك بفلسطين.

وقد ألهم هذا شعور المسلمين. وساد الاقتناع بأنه بدون تحالف نور الدين والسنة في حلب ودمشق من جهة، والفاطميين في مصر من جهة أخرى، فإنه لا يمكن التخلص من هذه الدويلات الدخيلة.

وكانت عبقرية نور الدين أنه بدأ التقريب بين العراق وسوريا ومصر. وأنه جعل أسد الدين شيركوه السنّي ليكون وزيراً للحاكم الفاطمي في مصر. فلما مات أسد الدين شيركوه، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. واستمر صلاح الدين بعد موت نور الدين ما يقرب من تسعة

عشر عاما يؤكد هذه الوحدة، ويستعد للحرب التي لا مفر منها...

كان دهاء صلاح الدين السياسى لا يقل عن عظمته العسكرية التى اشتهر بها. فقد وحد الممالك الاسلامية قدر الامكان. وقلب على الاوروبيين لعبة الايقاع بين أعدائهم فبعد أن كانوا يستعينون بتفريق صفوف المسلمين والتحالف مع بعضهم ضد الآخر، لعب صلاح الدين نفس اللعبة ضدهم، وأوقع بينهم سياسيا، مدركا بذلك لحقائق المصالح التى تحركهم. فأوقع بين بيزنطة وروما. واستمال تجار الدول الإيطالية بالتجارة المريحة مع مصر.

وفي ٢ أكتوبر ١١٨٧، سقطت القدس في يد صلاح الدين الأيوبي، ثم أسرع يكتسح معظم الدويلات اللاتينية. وكما تقول الكتب الغربية «هرب اللاتين الأغنياء وبقى الفقراء. أما اليهود والمسيحيون الأرثوذكس فقد عوملوا معاملة حسنة، وقبلوا بترحاب حكم المسلمين».

٣ - وأثارت هذه الأحداث أوروبا واستغلت دعائيا لبدء ثالثة الحروب الصليبية، وأشدّها، إذ جاءت جيوشهم سنة ١١٨٩، يقودها ريتشارد قلب الأسد، أشهر قادة الحروب الصليبية، لطول ما دار من سجال حربي وسياسي بينه وبين صلاح الدين الأيوبي. حتى كادت تقترب الحروب الصليبية كلها باسم الرجلين، رغم أنها دامت - حريا وسلاما - عدة قرون.

جاء في الواقع لأول مرة أهم ملوك أوروبا وأشهر محاربيها : ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، ووجستين ملك فرنسا، وفردريك برياروسه ملك ألمانيا. وقد نجحوا في استرداد عكا وحيفا وقيصريه ويافا. ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة عند أبواب القدس. فبقيت المدينة للمسلمين ولكن بقيت للأوروبيين سائر مملكة القدس.

لقد أسفرت الحرب الثالثة عن تقليص حجم الممالك اللاتينية، ولكنها أعطت هذه الممالك ما يقرب من مائة سنة أخرى من العمر قبل أن تنقرض وتجلو تماما.

٤ - ولأنها، كما ذكرنا لم تكن مجرد حروب دينية، ولأن الصفة الدينية لهذه الحروب بدأت تشحب لتزداد الأسباب «الاستعمارية» - بالقاموس الحديث - بروزا، فإننا نجد الحملات الصليبية التالية تتجه في الشرق العربي الاسلامي وجهات أخرى.

وكانت مصر - بعد الدور الذي لعبه فيها صلاح الدين - قد صارت القوة الأساسية، وبالتالي اتجهت محاولات الغزو إليها.

فالحرب الصليبية الرابعة أشرف عليها الكسيوس حاكم بيزنطة لغزو مصر سنة ١٢٠٤ بحجة إخضاع الأرثوذكس في مصر للبابا. ولكن الحرب كانت ممولة من مراكز المال والتجارة الكبرى في ثغور إيطاليا وإنجلترا وفرنسا.

٥ - وفي سنة ١٢١٨ شنت الحملة الصليبية على مصر أيضا، لحصار دمياط، بحجة الاستيلاء عليها، ثم المساومة عليها بتركها في مقابل استرداد القدس، ودام حصار الصليبيين لدمياط سبعة عشر شهرا. ثم توغلوا محاربين في الدلتا عشرين شهرا أخرى، ثم انهزموا وانسحبوا من دمياط في ١٢٢١، وعادت قلوبهم إلى عكا.

٦ - وبعد سنوات قليلة، انتهزوا فرصة شدة الخلافات بين ورثة صلاح الدين الأيوبي، والصراع بين الكامل في مصر وابن عمه الناصر في دمشق، فاستولى فردريك الثاني على القدس دون قتال، وظلت في أيديهم

حتى استردها جيش مصرى فى فبراير ١٢٢٩. وبقيت فى يد المسلمين العرب منذ ذلك الوقت.

٧ - ولم تخمد شهية أوروبا النامية للاستيلاء على هذا الشرق الغنى. فقاد لويس التاسع الحملة السابعة على مصر، واحتل دمياط فى ديسمبر ١٢٤٤، واندفع محاربا بقصد الوصول إلى القاهرة، ولكنه سقط أسيرا فى أيدي جيوش مصر، وسجن فى المنصورة فى أبريل ١٢٥٠، وبقي فى السجن حتى اشترى حريته وحرية قادته بمال كثير، وانسحب من مصر.

انسحب عائدا إلى إحدى ممالك اللاتين فى فلسطين. وبقي أربع سنوات يحاول الإيقاع بين المسلمين العرب ليسترد القدس. وتحالف مع هولاكو حين بدأ خطر الزحف المغولى الرهيب يلقى بظله على المنطقة.

ووصل المغول إلى بغداد ودمروها سنة ١٢٥٨، ثم اكتسحوا مملكة حلب، ثم مملكة دمشق. حتى تقدمت جيوش مصر ومعها جيوش سائر العرب المسلمين ودارت معركة عين جالوت التاريخية، فى سبتمبر ١٢٦٠، وانتهى بهذه المعركة خطر المغول بأكمله. وزاد ضعف الممالك اللاتينية، فتقدمت جيوشنا المنتصرة فحررت حيفا وصفد وأطاكية وغيرها.

٨ - فلما تحركت الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة من فرنسا، كانت قليلة الثقة، فآثرة القوى، فبعد أن أبحرت متجهة إلى الشرق، عادت فاتجة لاحتلال منطقة أقرب.. وهى تونس!

وفى الشرق مضى السلطان قلاوون يحرر ما بقى للصليبيين من ممالك أو ثغور.. صور وبيروت وطرطوس وصيدا.

وانتهت تلك الصفحة التى دامت قرونا، وسميت باسم الحروب

الصليبية، وقد انقضت ممالك اللاتين المصطنعة، وعادت البلاد إلى أصحابها. وإن ظلت مرارة تلك المرحلة في نفوسهم قرونا.. يؤلفون فيها ويعودون إليها، ويدرسونها في مدارسهم، من وجهة نظرهم طبعا.



ولكن هل انتهت القضية، عند هذا التاريخ؟

.. كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها في الحاضر.

ومن حقنا أن نضيف إلى الحروب العثمانية المسجلة في كتب التاريخ، حربين أخريين، ربما تحت نفس العنوان.

في فترة ما، ظهرت الامبراطورية العثمانية، التي كانت آخر إمبراطورية ضمت تقريبا كل بلاد المسلمين. وكانت الامبراطورية العثمانية بالذات غير ما سبقها من إمبراطوريات إسلامية، فقد قامت على الفتح والقهر، وكانت تنظر إلى البلاد الإسلامية نفسها نظرتها إلى «المستعمرات». كانت في الداخل إمبراطورية مستبدة ظالمة مظلمة، لم تساهم في الحضارة الإسلامية بشيء، ولكنها كانت ذات بأس عسكري منظم قوى، فبعد أن فرغت أوروبا من إخراج مملكة الإسلام المتحضرة المزدهرة من أسبانيا غربا، إذا بها تواجه، وبعد هذه الحروب الصليبية كلها، خطر الغزو الإسلامي أو التركي من الشرق، بعبور الأتراك من آسيا إلى أوروبا واحتلال البلقان بأكمله، والوصول إلى حدود إمبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها.

ومر وقت طويل، والامبراطورية العثمانية تشيخ، والعالم الإسلامي العربي يتدهور ويتحلل وتسدل عليه ستائر الظلم والاضلام. هذا بينما بدأت أوروبا عصر النهضة، وقضت على الاقطاع، وبدأ عصر الخروج إلى

مستعمرات أخرى بعيدة، وعصر الصناعة في أعقابه يغذيه ويقويه..
صارت أوروبا أقوى قوة في العالم، هي سيدة المال. وسيدة التجارة،
وسيدة الصناعة. وسيدة البحار.

ولقد وصلت قوتها وحضارتها إلى الهند وأستراليا شرقا وإلى أقصى
أطراف أمريكا وأمريكا الجنوبية غربا وجنوبا.

ولكن الجوهرة الثمينة، الشرق العربي، لم تفارق خيالها. وحفر قناة
السويس زاد من أهميتها. ومن هنا يمكن القول أن «الحرب الصليبية»
التاسعة بدأت منذ انحلال الامبراطورية التركية إذ بدأت إنجلترا وفرنسا
وروسيا تدعى كل منها حقا في حماية أقلية من أقليات العالم العربي،
انتحالا لأسباب التسلل والتدخل، ثم صراع إنجلترا وفرنسا على مصر،
وفوز إنجلترا بمصر وبقناة السويس باحتلالها مصر، الأمر الذي لم تقو
عليه الحملات الصليبية كلها.. ثم الحرب العالمية الأولى، وخداع
الانجليز للثورة العربية، واتفاقية سايكس - بيكو التي قسموا بها العالم
العربي سرا بينهم، ووعد بلفور لليهود بوطن قومي في فلسطين..

هذه السلسلة من الأحداث القريبة، والتي استغرقت في مجموعها
ما يقرب من قرن من الزمان، وتوجت بدخول لورد اللنبي القدس، ودخول
الجنرال غورو دمشق، تكون في مجموعها ما يمكن أن نسميه - استنادا
إلى التاريخ الذي سردناه - الحرب الصليبية التاسعة. وهي أول حرب
تحقق أغراضها كاملة منذ اندحرت آخر ممالك الصليبيين في الشرق قبل
ذلك بحوالى ستة قرون..

طبعاً، كثير من الظروف تغيرت، والأفكار الدينية لم تعد هي الحافز
في أوروبا، بل صارت المصالح الاقتصادية والسياسية هي الأساس

السافر لكل شيء. ولكن عندما دخل الجنرال غورو، قائد الحملة الفرنسية في الحرب العالمية الأولى، دمشق، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي، لم ينس أن يقول كلمته الشهيرة: «ها قد عدنا.. يا صلاح الدين!»..

فالجنرال غورو، حين نطق لسانه بهذه الكلمة وهو يقف أمام قبر صلاح الدين، كان يعرف طبعاً أنه جاء غازياً لاستعمار الشرق، ولكن غلب عليه ما تعلمه في المدرسة، وما وراءه من تراث، فحقق قلبه ونطق لسانه بما طاف بخاطره في تلك اللحظة. وسواء قالها بالمعنى الديني، أو بالمعنى العسكري، أو بالمعنى الحضاري، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة وهو يقول هذه الكلمة، وإن تغلب فيها عنصر على آخر.

دام هذا النظام الذي أسفرت عنه الحرب التي أسمىناها بالحرب التاسعة، دام هذا النظام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤٨..

كانت هناك حركات وانتفاضات. وشبت ثورات شتى في هذا القطر العربي أو ذاك. ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتفاضات لم تغير كثيراً من وضع المستعمرين الانجليز والفرنسيين وفي خضوع السلطات المحلية لحكمهم.



على أن الحرب العالمية الثانية غيرت الظروف الدولية تغييراً عميقاً.

لقد ظهر الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي ممثداً إلى منتصف أوروبا بالضبط، ومهدداً ما عرف باسم «الحضارة الغربية المسيحية» أو المعسكر الغربي، الذي انضمت إليه وتولت زعامته الولايات المتحدة..

وشبت حركات التحرر في العالم، وقامت الثورات، وشعرت أوروبا

بالنسبة للشرق أن وجودها فيه مهدد بالزوال، وأن المسألة مسألة وقت..

وكان هذا الشعور قديما، منذ احتلوا الشرق سنة ١٩١٩. ففي وثائق مؤتمر فرساي بعد الحرب العالمية الأولى مذكرة ينصح الانجليز فيها أمريكا بالموافقة على فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لأن وجود مثل هذا الوطن (على نمط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام، وسوف يكون خير وسيلة لحماية قناة السويس لحساب الغرب.

فهى نفس فكرة إقامة دولة في قلب الشرق تحرس مصالحهم ويمسكون منها بخناق العالم العربى.

نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكى السابق سيمنجتون حين وصف إسرائيل بأنها بمثابة «حاملة طائرات غير قابلة للغرق».

لقد وجدوا في ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية، لأنهم صاروا في عصر لم يعد ممكنا أن يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والذهاب تحت اسم الحروب المقدسة. والقدس مفتوحة للحجاج إليها من كل مكان. والحروب الدينية لم تعد مقبولة. ولكن ها هو مجتمع أفرزته أوروبا، وإن كانت قد اضطهدته أوروبا. ولديه حافز قوى للرجوع إلى مملكة القدس القديمة. فالفرصة سانحة لإقامة قاعدة غربية في قلب الشرق.

لقد ذبحوا اليهود في القدس ومنعوا من الإقامة فيها قبل قرون. وقد اضطهدوا اليهود في بلادهم الأوروبية بشتى أنواع الاضطهاد، ولكنهم الآن صاروا يرون في إقامة دولة يهودية دينية، هدفا أساسيا وساميا!!

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة، وبموقعها الاستراتيجى الخطير، خصوصا بعد ظهور الاتحاد السوفيتى في الشرق.

وفوق كل هذا طبعاً، البترول، الذى لو انتقل من يد إلى يد - كما قرر
كيسنجر صراحة - لانقلبت كل موازين القوة في العالم.

وربما كان من أكبر الأخطاء، التى وقع فيها العقل العربى العام، بعد
نكبة ١٩٤٨، أنهم كانوا يفكرون دائماً في الصراع العربى الاسرائيلى،
بمنطق قصير الأجل. في حين أننا لو كنا تأملنا الأمر في إطاره التاريخى
الطويل، ومن منظور الأهداف السياسية والاقتصادية لشتى القوى في
عالم اليوم.. لأدركنا أن احدى تلك المواجهات الحضارية الطويلة التى
تأخذ أشكالاً شتى من الحرب ومن السلم ومن الفضال العسكرى
والسياسى ومن السباق في ساحة التقدم والتفوق، ومن نجاح في ضم
شعوب الأمة العربية تحت حد أدنى من التكافل والتكامل والتنسيق..

وإننى لا أسمح لنفسي بأن أقول إننى حين كتبت قبل حرب ١٩٦٧ -
حوالى سنة ١٩٦٥ تقريباً - أنه لا يوجد حل سحرى للصراع ولا معركة
واحدة تنهى المشكلة، لأن الصراع ليس مع إسرائيل وحدها، ولكنه
صراع حضارى طويل ستتخلله أحداث طويلة ومريرة، وامتحانات سوف
تنجح أو ترسب فيها.. هاجم الكثيرون قولى هذا، ولكن يخيّل لى أن
الاقتناع بأن المواجهة الحضارية طويلة، وأن العالم العربى «مستهدف»
- بفتح الدال - من قوى عالمية كثيرة، ولأسباب معقدة، أقول إن هذا
الاقتناع فيما أظن بدأ يتسع.

ولعل هذا الكلام يصدم الكثيرين..

ولكن الدواء «المنبه» في هذه الأمور، خير من الدواء «المنوم» على
أى حال!

الحركات الإسلامية والغرب

من أكبر المآسي التي عرفناها منذ الحرب العالمية الثانية، أن الولايات المتحدة القوية ذات الامكانيات الهائلة، كانت دائما تفهم العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة في العالم الثالث، متأخرا.. أحيانا بعد فوات الأوان، ودائما بعد ضياع وقت ثمين جدا وإهدار جيل أو جيلين على الأقل من الصراع العقيم.

وطبعاً يأتي بعد ذلك من يسأل في أمريكا: من المسئول عن ضياع الصين؟ من المسئول عن ضياع إيران؟.. الخ.

ورد هذا على خاطري منذ فترة، وإن كان المثل خارج الموضوع، عندما فوجئ العالم في انتخابات زيمبابوي روديسيا، بفوز روبرت موجابي فوزا ساحقا، وفجأة انقلب موجابي في الصحف البريطانية من «الشیطان» إلى «رجل الاستقرار»، حتى إيان سميث رحب بفوزه.

تذكرت أنني عرفت موجابي سنة ١٩٥٧ أو سنة ١٩٦٠ في غانا، عندما عقد أول مؤتمر للأحزاب الأفريقية في أول دولة تستقل في أفريقيا السوداء. كان هناك موجابي. ونكرومو، ونكروما، ولومومبا، وكان جومو كينياता مسجوناً فحل محله توم بويما.

لم يكونوا شيوعيين. ولا ماركسيين. بل وليست لهم أي صلة بالعالم أو ببعضهم البعض. كانوا وطنيين يريدون زوال الاستعمار في تعاون مفيد مع الدولة المستعمرة، ولم يكونوا قد حملوا السلاح بعد. باستثناء جومو كينياता، الذي كان مسجوناً كما قلت، وكانت الصحف الغربية

تصور حركة المقاومة المسماة «ماوماو» في كينيا على أنها حركة متوحشين. وقد رأينا كينيياتا بعد ذلك غاية في الاعتدال، وكان هناك الشاويش الذى يحارب مع الانجليز ضد ماوماو، ويكافأ بالترقية بعد الترقية على عنفه ضد الثوار، اسمه عيى أمين.

هل لم يفهم الغرب حقا العوامل السياسية في أفريقيا مثلاً.. فطال العذاب عشرين عاما؟ أم أن القوى المسيطرة في الغرب كانت ببساطة لا تحب أن تفهم، وتتصور أنها قادرة على البقاء بالقوة أطول فترة ممكنة؟

وأحيانا يحدث العكس!

فترى الباحثين الأكاديميين في الغرب، يركزون على تفاصيل صغيرة جدا، ربما تثبت تعمقهم في البحث ولكنها لا تثبت قدرتهم على الحكم الصحيح، إذ ينسون في خلال هذا البحث الميكروسكوبى العوامل الكبرى الأساسية في منطقة ما.

وهذا النوع من التصور، يجعل الرأى العام الغربى يعتقد أن ما يجرى في بلد ما سببه أن أهل هذا البلد أناس مختلفون عن البشر. وأن ما يحدث عندهم لا يقاس عليه. وأنهم شواذ.

وأخر مثل على ذلك، ما حدث في إيران، كانت ثورة إيران مفاجأة تامة في عنفها، وجماهيريتها، ونوع قياداتها، وكان أول رد فعل تحليلى ما رأيناه من عكوف الباحثين على تحليل المذهب الشيعى الذى يدين به أغلبية الايرانيين. وأنواع الشيعة. ومذاهب الشيعة.

هنا أيضا يمكن أن نقول إنه لا شك أن العوامل الاجتماعية لها صفاتها الخاصة في كل قطر. أو في كل كتلة حضارية مثل العالم

الاسلامى، أو أفريقيا السوداء، أو جنوب شرق آسيا.

ولكن ما أعترض عليه هنا، هو: الاسراف في تجسيم هذه «الخصوصية»، لأن الاسراف والاحتصار فيها خطأ مثل خطأ تجاهلها تماما.

إن، فلكى يأتى حديثنا هذا متوازنا يجب أن نتعرض لأمرين:

الأول - العوامل الديناميكية التى يشترك فيها العالم العربى، والاسلامى، ومنطقة الخليج، مع ثلثى العالم كله تقريبا. وهى فى إيجاز قضية الفقر والتخلف.

والثانى - العوامل الخاصة بالمنطقة العربية الاسلامية.

هذا العنصر الأول المشترك جوهرى جدا وهام. لأنه العنصر المشترك فيما يسمى العالم الثالث كله. وأحيانا ما تكون الفروق بين المناطق مجرد خلاف فى طريقة التعبير المناسبة لكل بيئة.

وكلنا على علم بقضية العالم الثالث. ارتفاع نسبة الأمية. انخفاض مستوى الصحة العامة. بدائية وسائل الانتاج. اعتماد الاقتصاد على الخامات أساسا. قرب عهدنا بالاستقلال والمسئولية عن نفسها. وبالتالي عدم قيام مؤسسات دستورية ثابتة تحقق لها درجة من الاستقرار. انعدام وجود طبقة وسطى كبيرة تكون هى أساس الاستقرار الاجتماعى، واتساع الفجوة بين نخبة قليلة العدد وقاعدة فقيرة وغير متعلمة.

تلك بإيجاز هى ملامح العالم الثالث كله، مع فروق طفيفة. وهى بالتالى ملامح كل بلاد العالم الاسلامى أو أغليبيتها الساحقة.

ولابد أن نضيف إلى ملامح العالم الثالث التى سبق ذكرها عنصرا

آخر، هو ما أدت إليه سهولة وسرعة وسائل الانتقال والاتصال والاعلام من قيام ما سماه مارشال ماكلوهان «القرية العالمية»، أو ما أدى إليه هذا التقدم من حقيقة سماها يوجين بلاك بحق ثورة الآمال الكبيرة، في كتابه الذي يحمل هذا الاسم والذي يعتبر فيه أن هذه الثورة هي أخطر الثورات، وهو حقيقة كبرى بالفعل. فالفرد في أفقر قرية الآن يرى في السينما وعلى شاشات التلفزيون أنواعا من الحياة الباهرة، وعالما مسحورا لم يكن يعرف بوجوده من قبل، ومتعا متاحة لملايين غيره من البشر. وقد لا يصل طموح هذا الفلاح إلى أن تكون له مثل هذه الحياة. ولكنه بالتأكيد يشعر شعورا عارما أن من حقه أن ينال نصيبا منها، حتى ولو طرفا صغيرا من ذيلها. والشباب بالذات يرفضون ظروفهم التي تبدو لهم غير مؤدية على الإطلاق إلى نيل أيسر قسط من هذا.

بل إن مجرد الانتماء المعنوي أمر هام. وفي السريف المصري تجسد الفلاح في جيبه عادة غلبتي سجاثر. غلبة سجاثر مصرية - وهي سجاثر جيدة - لاستعماله. وغلبة سجاثر أمريكية باهظة الثمن، يقدم منها لأي زائر «أفندي» من القاهرة، وهو يعطيك السيجارة الأمريكية، ثم يخرج غلبة سجاثره هو ويأخذ منها، ولكنه يشعر أنه أثبت وجود خيط بينه وبين ابن المدينة الزائر.

الفقر المدقع يحبس ملايين الناس من جهة، وإعلانات السلع الاستهلاكية المثيرة تطارده من جهة أخرى. فيكون شعوره بمأساته أعمق وبالظلم الواقع عليه أقبح.

من احتكاك هذين العاملين تخرج شرارة الانفجار.

وهذا العنصر المشترك في العالم الثالث، هو نفسه الموجود في معظم العالم العربي والإسلامي.

وبالتالى فإن أهم عنصر استقرار هو في إيجاد صيغة نظام إقتصادي جديد. وعلاقة جديدة بين ما يسمونه دول الشمال ودول الجنوب.

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص، ومن العالم الثالث بوجه عام إلى العالم الاسلامي بوجه خاص، فسوف نجد في هذا العالم الاسلامي، بالإضافة إلى الظروف التي ذكرناها، ظروفًا أخرى خاصة به، تجعل الموقف أصعب وأخطر. وربما أعنف.

إن منطقة الخليج، التي لا يمكن فصلها عن العالم العربي والاسلامي، إذا أردنا تحليل مصادر التوتر فيها.. فإن فيها بغير شك أسبابًا أخرى للتوتر فوق الأسباب التي لدى العالم الثالث كله.

المنطقة تعتبر من العالم الثالث، بمواصفاته السابقة. ولكن الظروف شاعت أن تتفجر فيها ثروة هائلة في قيمتها المادية والاستراتيجية معاً، وهي البترول، حتى صارت صورة البترول في العالم مقترنة بصورة العربي والمسلم.

إن هذا الواقع المفاجئ أضاف إلى توتر الفقر في العالم الثالث توتراً آخر، وهو تجاوز الفقر والغنى.

كان طبيعياً أن يسبق المال نفسه، الآثار التي يمكن أن تترتب عليه.

فالمال في صورة البذخ الشخصي، والسفر إلى الخارج، والشراء الفوري لما هو متاح من طائرات خاصة وسيارات وكل أنواع الرفاهية الموجودة في العالم.. كان يصل أسرع من أشياء أخرى تستغرق وقتاً أطول مثل شق الطرق، وإقامة البنية الأساسية، وبناء المساكن، والمدارس والمستشفيات وإرسال البعثات إلى الخارج. الأمر الذي خلق خلخلة عنيفة في الهيكل الاجتماعي التقليدي للمجتمع.

بعض الدول أحسنت التصرف في هذا الثراء الجديد بشكل أو بآخر، وكان هذا سهلاً بحكم قلة عدد السكان في هذه الأماكن الصحراوية النائية.. وبعض الدول لم يحالفها نفس التوفيق.

إن الإحصاءات الدولية تضع بعض دول البترول على رأس دول العالم من حيث متوسط دخل الفرد، ولكن هذا مضلل تماماً. فالفقر في بعض مناطق دول البترول ما زال أشد مما نراه في بلاد فقيرة كمصر. فطهران عاصمة الشاه السابق، ليست طهران البذخ والثراء الذي كانت تنشره المجلات الغربية الفاخرة، ققى قلبها وضواحيها أماكن تقارن بأى عاصمة فقيرة في العالم، فضلاً عن سائر أطراف الدولة.

وكما أن ظهور الثروة بهذا الحجم الهائل خلق توترات في داخل كل قطر بترولى على حدة، فإنه خلق توترات من نوع آخر، بين البلاد العربية على الأقل. تمتد الآن إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامى.

فالعربى بوجه عام مهما كانت خلافاته يشعر بنسوع من الانتماء والمشاركة في المصير. وبالتالي فالعربى في بلد غير بترولى، لا يشعر بشيء إزاء ظهور البترول في بحر الشمال مثلاً. ولكنه يشعر إزاء ظهوره في بلد عربى مسلم آخر بشعور مختلف. يشعر بأن له نوعاً من الحق عليه، لاعتباره فكرة وحدة الإسلام والعروبة، بالمعنى التاريخى والحضارى وإن لم يكن بالمعنى السياسى. خصوصاً وأنه يرى حكامه وزعماءه لا يكفون دون استثناء عن المناداة بالوحدة العربية. وهو يرى صراعاتهم على أنها صراعات حكام وليست تصادم مصالح بين الشعوب.

فالبترول بعد أن يصل إلى صاحبه يجب أن يصل شيء منه إلى أبناء عمومته. وهو أمر يخلق توترات أخرى في المنطقة. بمعنى أنه لا يمكن

الحديث عن فلسطين دون التفكير في ردود فعل في الخليج. كما أنه لا يمكن الحديث عن الخليج دون ردود فعل في كل أنحاء العالم العربي والاسلامى.

الفارق الآخر القوى، بين عالم الاسلام وبين معظم بلاد العالم الثالث. هو أن ضغوط العصر الحديث لم تأت هنا من فراغ حضارى، ولكن في مجتمع له تاريخ معقد طويل، فخور بدينه وبتراثه، رغم كل المحن التى مر بها..

خصوصية عالم الاسلام

ان الانسان يمكن أن يتصور نظريا أن عملية التحديث يمكن أن تمضى بشكل أسرع - لو توافرت لها الظروف - في مجتمع بدائى حقا، ليس لديه أى تركة ضخمة من ماض أو دين أو تراث.

ولكن في العالم الاسلامى والعربى يدرك الناس تمام الادراك أن أرضهم كانت مهدا للديانات الثلاث العظيمة. فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة مركزهم الجغرافى المتميز، والحضارات القديمة التى قامت في منطقتهم، وجدنا أن كل هذه العوامل مجتمعة جعلتهم محط الانتظار على مدى التاريخ، إما كمصدر إشعاع للآخرين خلال أيامهم المجيدة، وإما كهدف لأطماع الغير أبان قرون الانحطاط والتدهور.

وفي الوقت ذاته، نجد أن الاسلام، كديانة سائدة في المنطقة، كان له دائما الأثر البالغ القوة على الشعوب عبر أربعة عشر قرنا. فقد أعلن الاسلام عن نفسه كوريث لكل الأديان السالفة، وأخر هذه الأديان، ونبيه، خاتم الأنبياء والرسل، وكتاب المسلمين المقدس «القرآن» منزل

من عند الله، وليس كتابات منقولة عن المسيح مثلا بعد قرن من وفاته.
كل هذا أعطى المسلمين والعرب شعورا بأن الاسلام فريد في نوعه.

ولأن الاسلام - عبر القرآن والرسول - لم يقف كسائر الأديان عند حدود شرح الفضائل والرياضات أو وصف العبادات بين الله والإنسان، ولكنه جاء بنظام كامل للحياة، وكيان كامل للدولة.. متحدثا عن نظام الحكم إلى قضايا الزواج والطلاق، فقد جعل هذا مهمة دعاة التحديث عسيرة جدا. ومع ذلك فالـتـحـديث ذاته مطلب للجميع، ومن هنا فإن أهم صراع في العالم الاسلامي هو الصراع بين دعاة التحديث، والـسـراـقـضـين له بحجة أن مثل هذه الدعوة تعد خروجا على الدين أو أنها تشكل خطرا يهدد بفقدان الهوية. ومع أن المسلم يرى أن الكلام السوارى في القرآن هو كلام الله مباشرة، وأن هذا القرآن وضع قواعد وأحكاما لكل شيء. إلا أن هذا لم يمنع من أن يختلف المسلمون اختلافات عنيفة بمجرد وفاة الرسول. وبعد خمس وعشرين سنة فقط من وفاة الرسول، دارت أول معركة حربية كبرى وقف فيها على، ابن عم الرسول وأقرب أصحابه، في صف، وعائشة زوجة الرسول المفضلة في صف آخر. ووضعت بذور أول وأكبر انشقاق في الاسلام بين أهل الشيعة وأهل السنة. انشقاق قامت به دول وامبراطوريات وانهارت به دول وامبراطوريات، وتعددت المذاهب السياسية والفكرية والفلسفية تعددا هائلا، مع انتشار الاسلام خلال مائة سنة فقط من الهند والصين شرقا إلى الاندلس غربا.

وكانت آخر إمبراطورية، جمعت كل بلاد الاسلام تحت سلطتها هي الامبراطورية العثمانية، وقد كانت سنوية متطرفة. وكانت امبراطورية بكل معانى الامبراطورية الاستعمارية فاضطهدت العرب اضطهادا شديدا.

واضطهدت الشيعة بالذات اضطهادا أشد.

هكذا دخل الاسلام القرن العشرين وبين أهله حسابات لم تصف بعد. ورغم أن أهميتها قلت كثيرا، إلا أنها تظل برأسها في الوقت المناسب، حتى نجد دائما أناسا يحاربون معارك انتهت منذ ألف وأربعمائة سنة.

على أن القرون المتعاقبة، باعدت بين حقائق الحكم والسلطة والفكر وبين حقائق الاسلام، خصوصا فترة الظلام العثماني التي دامت أكثر من ثلاثة قرون.

وعندما بدأت النهضة الأوروبية تواجه العالم الاسلامي بحقائق جديدة من جهة، والظلام العثماني يقيده في الاغلال من جهة أخرى، كان لابد أن ينشأ نوعان من رد الفعل.

رد فعل ينادى بالتحديث إلى أقصى الحدود كوسيلة وحيدة للحاق بالعصر..

ورد فعل ينادى بالعودة إلى الأصول والأشكال الأولى للإسلام..

وليس الخميني هو أول من نادى بالعودة للأصول في تاريخ الاسلام الحديث.. ولعله لو لم تكن ثورته في أغنى بلاد العالم بالبترول، لما حظيت بكل هذا الاهتمام.

فهناك المهدي الكبير في السودان، الذي ربما هزم عسكريا ولكن قتاله أسفر عن إيجاد كيان السودان الحديث، وقد كان هدفه تحرير السودان ومصر من حكم الأتراك والانجليز معا.

وهناك المهدي السنوسي، الذي أثر ألا يحمل السيف ولكنه عن طريق

نظام الزوايا جمع العدد القليل من السكان في هذه الصحراء الليبية الشاسعة في شعب واحد...

وهناك الحركة الوهابية التي نشأت في شبه الجزيرة العربية، وكانت الأساس الفكري لحركة الملك عبد العزيز آل سعود في ضم أطراف المملكة العربية السعودية وحكمها حكما مركزيا موحدا بعد تمزق طويل. وقد اقترن هذا بكلام كثير في صحف الغرب، صحيح في جوهره، عن صحة إسلامية في كل مكان.

وهذا صحيح، والبعض يرجع هذا، كما حدث في حالة إيران، إلى أن الشاه حاول التحديث أسرع مما يجب، وهو تبرير غير صحيح... ويكفى أن نقول بصده نقطتين..

ان التحديث لم يكن سريعا. ولكن المشكلة أنه كان أولا مشوها. كان أخذا بقيم الغرب بل والسطحي منها، دون شعور بقيم المجتمع الأصيلة، واقترن بالظلم والفساد.

التحديث ليس تقليدا للآخرين

ومن أهم الأسباب الدفينة لعنف هذا التيار، ان الاسلام دخل القرن العشرين مهزوما ومخدوعا، وقليل الثقة بالغرب.

فقد بدأت يقظة الشرق مع اتجاه أوروبا للاستعمار. محمد علي الكبير في مصر هزم الخلافة العثمانية، فلما وصل إلى أطراف إسطنبول، تحالفت عليه القوى الكبرى وقتذاك - إنجلترا وفرنسا والنمسا وروسيا القيصرية، وهزمته. إذ كان يناسبها أكثر دوام وضع الامبراطورية العثمانية المريض، أكثر من قوة شابة تنفخ فيها الروح.

وعندما قامت الثورة العربية منطلقاً من الحجاز، شجعها الانجليز مقابل وعد لهم بالاستقلال ولكن كانت إنجلترا وفرنسا وفي نفس الوقت توقعان معاهدة سرية لتقسيم العالم العربي بينهما.

وبعد الحرب العالمية الثانية أقيمت بالقوة دولة إسرائيل على أشلاء شعب فلسطين الذي طرد من أرضه بكل الوسائل الوحشية.

وبذلك بلغ التحدي مداه، وبلغت الإهانة أقصى حدودها.

ومن هنا فالقول بأن سبب أحداث إيران هو سرعة التحديث، خطأ، إنما السبب هو أن المسلم الإيراني رأى من التحديث جوانبه السوداء. رأى القهر، والظلم الاجتماعي، والحكم الاستبدادي، ورأى التطور السريع يتجه نحو تقليد أعمى للغرب، وتذهب خيراته إلى قلة قليلة بغير حق.

وقد أسمى أحد المؤلفين (الدكتور جلال أمين) هذا الأسلوب، في إيران وغيرها، The Modernization of Poverty أي «تحديث الفقر».

ولعل الأصح أن نقول إن مشكلة التحديث في العالم، هي أن البعض اعتبر التحديث هو التقليد الحرفي للغرب، إلا في حرياته واحترام حقوق الإنسان فيه.

فالانتباه إلى التصنيع بشكل غير مدروس والتمركز في المدن دون وجود وجوه رزق كافية فيها، أدى إلى إهمال الزراعة والريف والصناعات الصغيرة.

الأصح أن نقول إن العالم الثالث عليه أن يجد أسلوباً مناسباً له للتحديث لأن تقليد الغرب لا نتيجة له، إلا اللهث المستمر وراءه، والبقاء دائماً في المؤخرة.

فإذا أخذنا في اعتبارنا، كل العوامل التي سبق ذكرها كمؤثرات في العالم العربي والاسلامى، فمعنى ذلك أنها تنطبق بالتالى على منطقة الخليج. وإن كان هناك مجال لتسجيل بعض خصوصيات الوضع في منطقة الخليج، وفي علاقة هذه المنطقة بالغرب أو بالولايات المتحدة بشكل خاص..

هنا نجد مصادر محددة واضحة للتوتر يمكن تركيزها كما يلى :

١ - اعتماد الغرب المطلق على بترول الخليج وتزايد مطالب الغرب من هذا البترول، دون بذل أى جهد جدى من ناحية الغرب في تقليل الاستهلاك، أو في التنقيب في أماكن أخرى أو في البحث عن مصادر بديلة للطاقة.

هذا الاعتماد الساحق يجعل الغرب متوترا إزاء منطقة الخليج باستمرار، وهذا التوتر والانزعاج الغربى يزعج أهل الخليج أيضا، فهم يخافون أن يقدم الغرب على حركة طائشة. ولا يسمعون منه إلا تبرعا بالدفاع عنهم. وهم يكرهون أن يروا أنفسهم محاصرين بأساطيل القوى الكبرى والمنطقة مرشحة لأن تكون محل صراع دولى.

٢ - ظهور رأى عام شامل في منطقة الخليج لا يوافق على هذه العلاقة غير الصحية بالغرب وهم يرون أنها علاقة غير صحية من زاويتين :

- ضغط الغرب المستمر على المنطقة لتستخرج أكبر كمية من البترول تلبية لحاجات العالم الصناعى، لا تلبية لحاجات دول البترول. إنهم يعتقدون أن لديهم ثروة ناضبة ويفضلون الاحتفاظ بها أطول مدة في باطن الأرض وألا ينتجوا إلا بقدر ما يحتاجون لمشروعاتهم. ولكن الغرب

يرغمهم إرغاماً على استنزاف البترول تمديداً لرفاهيته على حساب فقرهم الطويل.

— هذا الرأى العام نفسه لا يوافق على أساليب الغرب في استيراد ما يدفعه ثمناً للبترول كما يحدث مثلاً عن طريق صفقات سلاح هائلة يعلم الكل جيداً أنها لن تستعمل وأنها مجرد تصدير حديد ميت مقابل البترول. أو مشاريع باهظة التكاليف قليلة الجدوى.

هذا الرأى المزدوج في علاقة الغرب غير الصحية بالخليج، ستجدونه عند السعودى المتخرج في جامعة جورج تاون أو عند البسوى الذى لم يترك «أبو ظبى» على السواء.

٣ — ان الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، ليس مستعداً لدفع أى ثمن سياسى في مقابل ما يرى أهل البترول العربى أنه ظلم اقتصادى. والثمن السياسى بات معروفاً واضحاً، وهو القضية الفلسطينية. والمطلوب هنا هو إعطاء الشعب الفلسطينى حق تقرير مصيره فوق أرضه، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتتالية. فهو يطلب الانصاف. ويطلب عدم الاعتراف بشرعية الغزو بالقوة.

٤ — إن الأبنية السياسية في المنطقة ليست قوية متماسكة بعد، ففي داخل دولة الامارات المتحدة مثلاً ست إمارات، كل إمارة لها علم وأمير وقبيلة. وفي الخليج كله لا مبرر لعدم إقامة كيانات أكبر، أو روابط أكبر كتوحيد العملة أو خلق سوق خليجية مشتركة.

٥ — في ظل هذه الظروف كلها لابد أن تظهر تيارات أكثر تطرفاً يميناً ويساراً وحركات إسلامية أكثر تطرفاً، استجابة لحلم غامض بالتخلص من تركة القرون الحديثة وإقامة عالم عربى إسلامى قوى جديد. وهو

تيار سيكون سليا إزاء روسيا ولكنه لن يكون إلا سلبيا إزاء الغرب. حيث
يقتزن الغرب في ذهنه بجوانب الفساد والاستغلال في التحديث وبالعلاقة
الاقتصادية غير الصحية في البترول ومصنفات السلاح ووجوه صرف
المال، وبالظلم السياسي في رضاء أمريكا باحتلال إسرائيل لأراضيها
وتشجيعها عليه.

الأخلاق والسياسة.. ومعركة حقوق الإنسان

● السياسة والأخلاق؟..

ألم يحسم هذا السؤال منذ أقدم العصور؟...

هل هناك من نازع - أو ينازع - في أن الأخلاق في السياسة، هي «المصلحة»؟

ألم يحدثنا «ابن المقفع» عن هذه الأمور، سواء برموز كتابه «كلیلة ودمنة»، أو بصراحة عباراته في «الأدب الكبير والأدب الصغير» قبل قرون وقرون؟...

.. ألم يأت بعد ذلك «مكيافيلي» في كتابه «الأمير» لكي يجعل الدس، والمخاتلة أو القسوة والتحايل، كلها في ميدان السياسة «فضائل» يجب أن يتحلى بها الحاكم، إذا أراد حقا أن يكون حاكما؟..

ألم يعرف القاموس السياسي الحديث، وما زال يعرف، تعبیر *raison d'état*، وأقرب ترجمة له «سبب يتصل بمصلحة الدولة العليا»، يقبل في تفسير أى عمل يقدم عليه «رجل الدولة» ويكون «غير أخلاقي» بالمعنى السائد لكلمة أخلاق؟

ثم.. ألا يزال الاغتيال، والانقلاب، والشراء بالمال، من الأساليب التي تجرى ممارستها أمام أعيننا إلى الآن، في عالم اليوم، مبررة بالأهداف السياسية التي يراود تحقيقها؟..

.. طبعا، لا شك أنه قد دخل «بعض التحسن» على علاقة الاخلاق بالسياسة، عبر آلاف السنين من التقدم الانسانى.. بحكم تغير معنى «المصلحة»

.. كانت «المصلحة» التى من اجلها تصبح التضحية بالأخلاق مسألة طبيعية، مقبولة، هى مصلحة «الدولة» أى الاطار الممثلة فيه الجماعة الانسانية..

.. ثم تطورت الامور مرة أخرى فصارت «المصلحة» المقبولة فى هذا المجال هى مصلحة «الشعب».

ولم تكن كل «نقلة» فى هذا المجال تؤدي إلى اختفاء ما كان قبلها تماما. كلا. فنحن اليوم مثلا نعيش فى عالم واحد، ولكن الشعوب أو المجتمعات الانسانية، تعيش فى قرون مختلفة، بل ومتباعدة جدا، من حيث نظم الحكم، والقيم السائدة، وحقوق المواطن.. إلى آخره. وبالتالي «فالمصلحة» — بمعنى انصرافها إلى مصلحة الفرد، أو الدولة، أو الشعب، تعيش بتفسيراتها الثلاثة فى عالم واحد، وفى اقطار متجاورة .. استطاع العلم الحديث أن يختصر الزمن بينها جغرافيا، فلا يبعد قطر عن قطر أكثر من ساعات بالطائرة، ولكنه بحساب القيم السائدة تفصل بين القطرين عدة قرون!



ولكن، ما هى مناسبة الحديث عن الأخلاق والسياسة؟...

وهل هى مجرد محاولة لأعمال الفكر فى بحث نظرى؟...

كلا!...

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية – أقوى دولة في العالم وأكثرها تأثيرا في حياة عالم اليوم بخيرها وشرها – وصل إلى مقعد الرئاسة فيها، فجأة وعلى غير توقع، سياسى مجهول، هو جيمى كارتر. جاء على موجة فحواها أنه اخلاقى أكثر مما هو سياسى، أو هو سياسى غير «سياسى». بل ولم يتردد أحيانا خلال معركته الانتخابية من التلميح إلى أنه يتصرف بناء على رسالة نزلت عليه من السماء، وأن هناك علاقة خاصة بينه وبين الرب!

وبعد أن تولى جيمى كارتر الرئاسة بالفعل، أراد أن يثبت ويسرعه، أن ما كان يقوله خلال الانتخابات لم يكن دعاية فقط. فلم يلبث أن قام بعدة تحركات وتصرفات وتصريحات، تركت ردود فعل متباينة..

استقبل في البيت الأبيض «بوكوفسكى» أحد المتمردين الروس، بعكس ما فعل جيرالد فورد حين رفض مقابلة «سولجينتسين» حتى لا يسىء إلى سياسة التهدة بين روسيا وأمريكا...

ثم أرسل خطابا شخصيا منه إلى «زخاروف» العالم الذرى السوفيتى وزعيم المتمردين في الاتحاد السوفيتى، بما يعنى تأييده في نضاله ضد السلطة السوفيتية وقوانينها...

وقد رد بريجنيف الرجل الأول في روسيا على ذلك ردا عنيفا في خطاب علنى أعلن فيه أن روسيا لن تقبل أى نوع من التدخل في شئونها الداخلية. وأنه ليس من حق دولة أن تعلم دولة أخرى كيف تدير أمورها الداخلية.

وحين ذهب سيروس فانس وزير خارجية أمريكا في أول رحلة له إلى موسكو، واجهه بريجنيف بضروة تسوية هذه القضية أولا. ولعلمهم

تعمدوا أن تتحطم مهمته الأولى تماما في موسكو، حتى يقضوا على
الفكرة التي ردها كارتر من أن الروس لن يضحوا بفوائد الوفاق ونزع
السلاح، من أجل تصريحاته !

وحتى لا يقال عن كارتر - وقد قيل طبعاً - إن الأمر ليس أمر
مبادئ وأخلاقيات إنسانية بقدر ما هو سلاح جديد من أسلحة الحرب
الباردة، تحدث عن بعض البلاد «المحسوبة» على أمريكا. وأعلنت
حكومتها أن مساعداتها الاقتصادية والعسكرية سوف تدخل في اعتبارها
من الآن نوع النظام الداخلي ودرجة القمع والعدوان على حقوق الإنسان
في أي قطر. الأمر الذي جعل بلادا مثل البرازيل والارجنتين ترفض أي
مساعدة من أمريكا. طالما هي مقرونة بأحكام ليست أمريكا هي الجهة
التي تصدرها.

وذهب كارتر إلى الأمم المتحدة ليلقى خطاباً تقليدياً، اعتاد أن يلقيه
كل رئيس أمريكي جديد. وفي هذا الخطاب أعلن عن مبدأ بالغ الأهمية.
قال ما خلاصته : إن كل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة قد وقعت على
وثيقة إعلان حقوق الإنسان. وأنه من تلك اللحظة لا يعتبر انتهاك دولة
ما لهذه الوثيقة في بلادها أمراً داخلياً خاصاً بها. بل إنه أمر يهم العالم
كله.



مبدأ، فيما أعتقد، صحيح تماماً...

وحجته، فيما أرى، يجب أن تكون مقبولة في عالم اليوم. وإلا فما
معنى المؤسسات الدولية، والمواثيق الدولية، والكلمات الواردة فيها،
والخاصة بحقوق الإنسان !

وذلك طبعا بشرط ألا يكون «حقا يراد به باطل»، كما يحدث كثيرا، في عالم السياسة.

وبالتالى فإن الأسئلة – ونحن أمام وقائع حياة ولسنا في مجال بحث نظرى – تبقى كثيرة. وقد جاءت من العالم كله. ومن داخل أمريكا ذاتها. حول كارتر. ووداقعه..

هل هو ساذج؟

هل هو صادق؟

هل يستهدف مكاسب داخلية سياسية فحسب؟

هل يستطيع أن يمضى إلى آخر الشوط؟

ثم.. هل هذه السياسة، التى سماها الكاتب الأمريكى الأول جيمس رستون، ساخرا، باسم «سياسة الفم المفتوح»، هى السياسة المثلى لتحقيق هذا الغرض، إذا كان هذا الغرض جديا؟..

طبعا. هناك سوابق في أمريكا وغير أمريكا للسياسة المثاليين. كان «وودرو ويلسون» الرئيس الأمريكى الذى دخل ببلاده الحرب العالمية الأولى مثاليا، حين اعتقد أنها الحرب التى ستكون آخر الحروب. وحين دعا إلى إنشاء «عصبة الأمم». وحين وجد أن السياسة هى السياسة، قرر عدم دخول أمريكا في عصبة الأمم.

وكان فرانكلين روزفلت – أعظم رؤساء أمريكا – مثاليا أيضا..

ومن الأسئلة التى ستبقى مثلا معلقة: لو كان انجاز صنع القنبلة الذرية قد تم في عهده، هل كان يلقيها على هيروشيما، قاتلا مائة ألف كما فعل ترومان؟

دفاع ترومان — الأخلاقى — أنه يقتل مائة ألف نسمة، أوقف حربا لو استمرت لقتل فيها مليون... .

ولكن، ألم يكن ممكنا، مثلا، مجرد إخطار اليابان بالسلاح الرهيب الجديد واذارها باستخدامه، لكى تستسلم كما فعلت؟ وهل وارد أن يسلك روزفلت هذا الطريق، لو أنه لم يمت قبل إنجاز القنبلة الذرية بقليل؟

على أى حال. لقد مات روزفلت وهو مصمم على تأييد تصفية المستعمرات القديمة، ولكن بقى بعده تشرشل وغيره واستغرقت تصفية الاستعمار ربع قرن زيادة، ومات وهو يعمل لسياسة الوفاق بين الشرق والغرب، ولكن الحرب الباردة انطلقت بعده.. ومات وهو يرفض إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين لأنه كان أقوى من أى فئة فى بلاده، وكان مدركا لمستقبل المنطقة العربية وخطورتها، ولكن ترومان كسياسى صغير أثر الرضوخ للقوى الانتخابية الداخلية، ولو خلق بذلك إحدى أعقد مشكلات العالم ومأسية.

.. ولعل هذا الاستطراد قد اخرجنا قليلا عن مجرى الحديث.



طبعاً، قضية احترام حقوق الانسان، ليست قضية سهلة، بل إنها أعقد القضايا على الإطلاق. ولربما تحل معظم مشاكل البشرية — إذا أمكن ذلك — قبل أن تحل هذه القضية. وقبل أن يحظى كل إنسان، فى كل بلد، وتحت كل نظام، باحترام حقوقه.

لقد نزلت الأديان كلها. وجوهر رسالتها احترام حقوق الانسان.

وقد زعمت الثورات والمذاهب والايديولوجيات كلها، إنها إنما تريد احترام حقوق الانسان.

ومع ذلك، قلو أردنا تلخيص تاريخ البشرية كله، لوجدنا أن السمة الغالبة فيه، هي عدم احترام حقوق الانسان...

وأبسط الاسباب الداعية لذلك تصور كل مجتمع إنسانى لما يرى أنه احترام لحقوق الانسان. ولما يرى انه حقوق الانسان.

ثقافة الغرب وأوروبا السياسية كلها، تقول إن أثينا كانت مهد الديمقراطية، وإنها ما تزال النموذج الفذ الذى لا يتكرر.

ولكن أثينا – بساستها وفلاسفتها – لم يجدوا فى تقسيم الشعب إلى أحرار وعبيد، وبالتالي قصر حقوق الانسان على الأحرار دون العبيد، لم يجدوا فى ذلك أى تعارض مع ديمقراطية أثينا.

والجاهلية، قاومت دعوة الاسلام أعنف مقاومة، بسبب ما يدعو إليه الاسلام، وبدا لهم أنه أمر بالغ الغرابة والشذوذ، وهو محاربة الرق. لطول ما اعتاد المجتمع هذا الوضع...

فالمجتمع نفسه، حتى بحكمائه وعقلائه. قد يرى فكرة حقوق الانسان فى صورة نراها اليوم غريبة وبالغة الغرابة...

وقد احتاج الأمر إلى دهور طويلة، ورسالات من السماء، وثورات على الأرض، حتى تطور مفهوم حقوق الانسان..

ثم إن هناك عصرا آخر، داس حقوق الانسان عبر التاريخ بقدميه، وهو صراع الحياة العنيف ذاته.

كان فى البدء صراع أفراد.. ثم صار صراع قبائل.. ثم صار صراع

شعوب وأمم.. حتى صار الصراع دوليا.. فالحروب عالمية.. والمذاهب المتصارعة ترى أن مجالها العالم كله.. والأزمات المالية أو الاقتصادية أو حول السلع الأساسية، أزمات عالمية...

صراع لا يعرف الرحمة...

وتحت هذه العناوين الواسعة، تندرج مئات الأنواع من الصراع، مما يعرفه الجميع.

وما يهمنا من هذا التاريخ هنا، هو مرة أخرى كيف أن أقسى المظالم كانت ترتكب باسم «حقوق الإنسان» وأحيانا باقتناع من المرتكبين أنفسهم..

كان الشعب يستعمر شعوباً أخرى، ويمتص ثرواتها. وكان الشعب الحاكم يرى في رجله الذي يحقق له هذا بطلا. كان بطلا بالنسبة له. فهو يوفر له مستوى عالياً من المعيشة، على حساب شعوب أخرى. وكان هذا مقبولا «أخلاقياً» لدى الشعوب المستفيدة... وكان المعارضون على هذا هم الشواند...

كان الساسة ورجال الدولة يعرفون ما يفعلون...

فحين كان نابليون يحلم باحتلال مصر، ثم بالقفز إلى الهند التي يحكمها الانجليز، قال لخلصائه: «سنفاجئهم، لصوص يهاجمون لصوصاً أقل منهم جرأة!» ويفوزون بالجائزة...

وكان هناك من المفكرين من يبررون هذا ويفلسفونه. فاستعمار أوروبا لآسيا وأفريقيا كلها، عاش أجيالاً يحمل اسم «عبء الرجل الأبيض». وكان هذا مقبولا أخلاقياً. فالإنسان هو الرجل الأبيض. أما استغلال الأسود والأسمر فكان أمراً مقبولا.

ومعظم تماثيل «الأبطال» و «العظماء» التي تملأ ميادين أوروبا مثلا هي تماثيل غزاة، أو طغاة، أو مستعمرين.. ولكنهم عند شعوبهم أبطال...

وكان المعترضون قليلون..

كانت إنجلترا، وهي أكبر إمبراطورية، تسمى وما تزال «أم الديمقراطية في العالم»، ولكن برناردشو كان يقول: إن كلمة الديمقراطية يتغير معناها بمجرد أن تترك الجزر البريطانية وتعبّر المحيط!

وهذا صحيح. فالديمقراطية للانجليز. تغذيها وتجعلها ممكنة الموارد المستنزفة من شعوب أخرى. ولكن كان هذا مقبولا أخلاقيا على الأقل لدى «الشعوب الراقية»..

كانت إنجلترا تفخر بثورتها التي أرست قواعد الديمقراطية. وفرنسا تفخر بثورتها التي حققت شعارات الحرية والائاخاء والمساواة. ولكن ثورة من هذا النوع، في أي مستعمرة تابعة لهما، كان لابد من قمعها قسرا، وبكل عنف.

وكان لهذا المنطق كله صحافته، وثقافته، وكتابه، وفلاسفته.

أما المسحوقون، فلم يكن لهم شيء من هذا. لم يكن لهم صوت يسمع. ولا فكر يقرع الأذان. لأنه لم يكن لهم مدافع ولا بوابج ولا طائرات...

وقد تغير الكثير من هذا بحركات التحرر في العالم التي أدت إلى استقلال كل شعب تقريبا...

وصار هناك برلمان عالمي اسمه الأمم المتحدة، يفترض أن لكل

شعب فيه له صوت كأي شعب آخر، مهما كان لونه أو عدده أو قوته..
ولكن هذا بالطبع ما زال بعيدا عن الواقع بسكثير. وإن كان
المستضعفون في الأرض يكسبون أرضا جديدة..
وكان طبيعيا بعد حقوق الشعوب. أن تبدأ وتتسع معركة حقوق
الأفراد، حقوق الانسان.



وحن تلقى نظرة على العالم. نجد أن كل شعب يحاول أن يخوض في
بلده، معركته الخاصة، من أجل كسب حقه في حقوق الانسان... وإن كان
الصراع ليس داخليا دائما. فالقوى الخارجية ذات التأثير، ما زالت
تتحالف مع القوى المحلية المتخلفة، لاطالة أجل استبدادها، إذا كان
يناسب تلك القوى الخارجية لسبب أو لآخر.

وقد مر زمن ، قريب، ساد فيه الصراع المذهبي واختلفت المذاهب
بالتالى خلافا حادا حول تعريف حقوق الانسان، أو على الأقل على
أولويات حقوق الانسان.

مذاهب تقول: الحرية فحسب، ويعد ذلك فليتنصارع الناس ليأخذ كل
ما يستطيع.

ومذاهب تقول: لقمة العيش أولا. وحقوق الانسان الاجتماعية...
التحرر من الجوع ومن البطالة ومن عدم المساواة.. هي حقوق الانسان
الأساسية.

ولكن التيار السائد، والذي يتحول مع الزمن في تقديري إلى موجة
عارمة في كل مكان وتحت كل نظام هو : الخبز مع الحرية، العدل مع

الكرامة، وبغير ذلك يظل حق الانسان ناقصا.

وفي هلسنكى، منذ ما يقرب من سنة، اجتمع أقطاب المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى. وفي محاولة معقدة لتكريس الأمر الواقع الذى أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية من تقسيم لأوروبا وتثبيت الأوضاع الدولية بينهما، وقعا على معاهدة شملت بنودا سياسية كثيرة، ومن بينها نصوص عن حقوق الانسان، كأساس لسياسة الوفاق.

وفي بلجراد، بعد مدة، يجتمعون مرة أخرى لمراجعة ما تم فى شأن التزام كل طرف فى هذه المعاهدة.



وفجأة، شن كارتر حملته دفاعا عن «المعترضين» فى الاتحاد السوفيتى، وهاجم فى الوقت نفسه جوهر النظام السوفيتى...

وقد بدأ الأمر... أثناء حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة..

وتفسير هذه الظاهرة قد يكمن فى أمريكا نفسها...

ففى خلال الجيل الذى سبق وصول كارتر إلى الحكم، تعرضت أمريكا - أقوى دول العالم - لامتحانات صعبة، خرج منها الشعب الأمريكى، والضمير الأمريكى، متخنا بالجراح...

لقد اغتيل رئيس الجمهورية (جون كنيدي). وخرج خليفته من الرئاسة (ليندون جونسون) تحت ضغط نقمة عارمة من الشعب بسبب حرب فيتنام. وطرد رئيس ثالث (نيكسون) بتهمة اعتداء على حقوق الانسان فى أمريكا وتجسس على الأفراد وإخفاء جرائم. وخرج نائب رئيس (أجنيو) بتهمة رشوة صريحة. واغتيل مرشح للرئاسة على وشك

الانتصار، (روبرت كنيدى). واغتيال زعيم حركة تحرير السود (مارتن لوثر كنج).

وصاحب هذا كله حرب فيتنام. حين استخدمت أمريكا قوتها العسكرية الهائلة في محاولة سحق شعب صغير فقير في فيتنام دون جدوى. ومرة أخرى نجد في رواسب بعض النفوس أن ضرب «الصفير» وتدميرهم، أو «إعادتهم إلى العصر الحجري»، كما قال قائد طيران أمريكي، أمر مباح لأنهم «صفير» فلم يكن متصورا أن فظائع حرب فيتنام يمكن أن تقع في بلد أوروبي مثلا.

وصاحب هذا كله كشف أدوار رهيبة للمخابرات الأمريكية في تنفيذ انقلابات، واسقاط حكومات، واغتيال زعماء.. ثم جاءت موجة الفضائح المالية. وسيل اعترافات الشركات الكبرى برشوة أكبر الشخصيات من اليابان شرقا إلى هولندا غربا..

وهذا كله وقع وارتكب في أكبر «مجتمع مفتوح»، وأصيب الضمير الأمريكي بجرح دام عميق وصارت كلمة السياسة كلمة قذرة، وحقوق الانسان نكتة. وأدرك كارتر الموجة، فخرج من المجهول، رافعا راية الفضيلة. وسخر السياسة منه، لكن الرأي العام أعطاه مقعد الرئاسة.

وكانت أحد تعهداته التي أرضى بها المواطن العادي، هي السطهارة واحترام الانسان، وحقوقه، وحمل نفس الرسالة إلى ما وراء الحدود..

وفي بلاد المعسكر الشرقي جماعات من السرافضيين، أو المطالبين بحريات أكثر، بعد أن حققت تلك المجتمعات التقدم المادي المطلوب، وصارت تجد أن من حقها أن تحظى بالقسم الآخر من حقوق الانسان وهو الحرية، فالتقط كارتر ورقة تأييدهم، كسلاح يبرر دعوته

«التبشيرية» ويقلب معركة الدعاية ضد المعسكر الآخر، ويعطى الأمريكي من جديد شعورا برسالة عالمية هي الدفاع عن حقوق الانسان ولو في أماكن بعيدة.



ومهما كان الامر فيما يتعلق بدوافع كارتر، أو بأساليبه، أو بردود فعل المعسكر الآخر.

فالقضية في ذاتها — مجردة من اعتبارات الصراع الدولي — عادلة. وقد تتحول إلى قضية العصر. والامتحان الحقيقي سيكون حين يتبين إذا كانت مجرد سلاح جديد في الحرب الباردة، أو إذا كانت الدعوة سوف تعم، فلم تثور أمريكا لمنع مواطن في روسيا من السفر وتسكت عن اختفاء آلاف في تشيلي أو في غيرها!

ولم يرفع كارتر راية حق تقرير المصير، ويسكت على طرد إسرائيل للفلسطينيين من ديارهم واحتلال أرضهم بالقوة!

وهل حقوق الانسان مطلب يرفع شعاره حيث يلائمه هذا، وينكسه حيث لا يلائمه احترام حقوق الانسان.

وإذا كان لابد أن تشغلنا أمور أنفسنا كما تشغلنا أمور الانسانية. فإن المواطن العربي في كل مكان من أنحاء الوطن الكبير، لديه الكثير مما ينتقده في حياته. ولديه الكثير من أسباب الشكوى في كثير من مجالات فقدان حقوق الانسان.

ولكن هنا أيضا. وصلت الشعوب العربية إلى مرحلة من النضج، صار لابد معها أن يكون تأكيد حقوق الانسان فيها أمرا أساسيا، ولا مجال للتساهل فيه.

إن انعدام هذه الحقوق في أماكن، وضعفها في أماكن، هو علة العلل.
وأساس كل داء. وسبب كل بلاء في ظروفنا العربية الراهنة.

ولا بد أن يتحمل كل من تسمح له ظروفه ومكانته وثقافته جانباً من
مسئولية تأكيد هذا المعنى. ونشره فيما حوله.

إن التعذيب الجسدي، أو السجن بدون قضاء، أو منع ابداء الرأي
إذا كان سليماً، أو رفض فكرة تبلور إرادة الشعب بسأى صورة من
الصور، إن هذه كلها أشياء لا بد أن تزول.

إن زوالها أهم في معركة التقدم من استيراد أحدث الآلات وإقامة
أحدث المباني، فقد كان التقدم دائماً رهناً بالإنسان، وشعوره بكرامته،
ويحريره العقلية. فهو إن عجز عن استخدام فكره وعن ممارسة كرامته،
فقد عجز عن ممارسة ما يجعل الإنسان إنساناً.

إن حقوق الإنسان التي رأت النور يوماً مع مشرق الإسلام في هذه
الأرض، لا بد أن يعود لها بريقها من جديد مهما كانت الفلسفات
والادعاءات.

ويغير الاحترام الكامل الخالي من أي تحفظ لحقوق الإنسان العربي
لن نخترق الحلقة المفرغة من التخلف ومن المأسى ومن شتى أنواع
الاحباط التي تكاد تزهق روح الإنسان العربي. مهما حاولت بعض
الماديات من تغطية ذلك لبعض الوقت.

إن معركة حقوق الإنسان على المستوى العالمي ستكون معركة آخر
هذا القرن وأول القرن القادم.

وعليها أن تكون من المناضلين فيها...

لاتفستنا أولا.

ويعد ذلك لغيرنا...

الوحدة عندنا وعندهم

الخبر الذى لم تهتم الصحافة العربية بإبرازه، وأحيانا ولا حتى بنشره، فضلا عن التعليق عليه.. كان قادما من بروكسل، عاصمة السوق الأوروبية المشتركة. وكان يقول إن دول السوق التسع، بعد مباحثات مضنية معقدة دامت سنوات، قد توصلت أخيرا إلى قرار بأن يتم تكوين أول برلمان أوروبى، منتخب عن طريق الانتخاب المباشر. وأنه قد تم الاتفاق على أن تجرى أول انتخابات أوروبية عامة مباشرة فى موعد قريب.

وكانت المشكلة التى اعترضت القرار طوال سنوات، هى الوصول إلى توزيع لعدد المقاعد فيه درجة من العدالة، بين الدول الكثيرة السكان كالمانيا وفرنسا، وبين الدول القليلة السكان مثل الدانمارك. فى حين أن كل دولة مهما كان حجمها لها إرادتها المستقلة كدولة. وإيجاد برلمان موحد منتخب انتخابا مباشرا، مهما كانت اختصاصاته قليلة فى البداية، فيه درجة من تنازل كل دولة عن جزء من إرادتها الوطنية، تخضع فيه لارادة مجموعة أكبر، هى مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة.

وكانت هناك دول تطالب بمقاعد أكثر، كإنجلترا، لكى تضمن تمثيل أهل اسكتلندا وويلز وغيرها من أجزاء إنجلترا ذات الأصول المختلفة نسبيا، ودولة مثل إيطاليا تطالب بمقاعد أكثر لكى تمثل أحزابها الكثيرة العدد. وهكذا، وأخيرا توصلوا إلى أن يكون المجلس النيابى الأوروبى المنتخب انتخابا مباشرا من ٤١٠ أعضاء: ٨١ مقعدا لكل من إنجلترا

وفرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية. ثم ٢٥ مقعدا لهولندا، و٢٤ مقعدا لبليجيكا، و١٦ مقعدا للدانمارك، و١٥ مقعدا لأيرلندا، و٦ مقاعد لدوقية لوكسمبرج.

وإذا كان هذا سيكون بمثابة برلمان لأوروبا، فسيكون رؤساء حكومات الدول التسع بمثابة مجلس وزراء لأوروبا.

.. وإذا كنت قد سريت كل هذه التفاصيل، فلم أسردها لذاتها، ولكن لكي أوضح الطريقة التي يتوصل بها الأوروبيون إلى حل مشكلة الوحدة بينهم، أخطر مشكلة يمكن أن تواجه مجتمعا ما، في صبر وأناسة، وبالمناقشة والمثابرة والدأب، سنة بعد سنة، منذ سنة ١٩٦٠، أي منذ سنة عشر عاما، ولكنهم رغم كل الخلافات، يتوصلون إلى حلها، طالما أنهم قد اقتنعوا بأن الوحدة هدف ضروري لمستقبلهم، وبالتالي فإنهم يرتبون عملهم ليسير في اتجاه ما توصلوا إليه من اقتناع، مهما كانت الظروف.

إن هذا القرار الذي توصلت إليه دول السوق الأوروبية المشتركة قرار تاريخي، لقد سبقته قرارات وخطوات هامة وطويلة، خصوصا في المجالات الاقتصادية، من إلغاء الرسوم الجمركية، إلى توحيد بعض السياسات الاقتصادية، إلى اندماج بعض شركات الإنتاج التي تعمل في مجال واحد، إلى محاولة الوصول إلى درجة من التنسيق في بعض المواقف السياسية وإن ظل هذا من أصعب الأمور عليهم إلى الآن، بحكم تنوع مصالحهم الخارجية من جهة وبحكم وطأة النفوذ الأمريكي عليهم من جهة أخرى.

ولكن هذا القرار الجديد، قرار تكوين برلمان موحد يتم انتخابه على

مستوى الدول التسع بالاقتراع العام المباشر، يعتبر من أهم وأخطر ما اتخذوه من قرارات إلى الآن. ذلك إن هذا، كما ذكرت سابقا، خطوة في طريق التنازل عن جزء من «السيادة الوطنية» لسيادة «قومية» أعلى...

طبعاً، واضح أن هذا الحديث كله، القصد منه أن يسوقنا إلى المقارنة بين حال الأوروبيين في مجال السعى إلى الوحدة، وبين حالنا نحن العرب.

وقد أريق مداد كثير لاثبات وتوضيح أن ما يربطنا نحن العرب أقوى وأعماق بكثير مما يربط بين شعوب هذه الدول الأوروبية التسع. قلن أضيف إلى القول في هذا المجال جديد، إلا لمجرد التسجيل فقط.

لقد بنيت «فكرة» الوحدة الأوروبية على أساس من المصلحة الاقتصادية في الدرجة الأولى والمصلحة السياسية في الدرجة الثانية. هذه الدول الأوروبية التي قضت القرون في حروب مدمرة بين بعضها البعض، أحيانا على أرضها ذاتها، وأحيانا صراعا في قارات أخرى على المستعمرات، وجرت العالم كله معها مرتين إلى «حربين عالميتين» هذه الدول وجدت نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تضاعلت بين عملاقين جديدين، شابيين، هما الاتحاد السوفيتي شرقا والولايات المتحدة الأمريكية غربا. صحيح أنها - دول أوروبا - استردت صحتها وعافيتها الاقتصادية إلى حد كبير. ولكن أين لها، وهي منقسمة، أن تنافس في معركة المستقبل روسيا وأمريكا؟ ثم الصين الآتية بعد قريب؟.. أي دولة منها، بمفردها، لديها الأعداد البشرية الضخمة التي لدى العمالقة الجدد؟ ومن أين لها الثروات الطبيعية الهائلة المتوافرة لدى العمالقة الجدد، خصوصا بعد أن خسرت - أوروبا - مستعمراتها؟

وأين لها الميزانيات الضخمة والأعداد الكبيرة من الفنيين التي تسابق في ميادين هائلة للتكنولوجيا المتقدمة والتي تصنع الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية بالآلاف، فضلا عن السلع التجارية المألوفة؟

من هذا المنطلق، الأمنى، العسكرى، الصناعى، ولدت فكرة الوحدة الأوروبية بمعناها الحديث، غير معناها في العصور الوسطى، وبدأ الخطو إليها بإقامة السوق الأوروبية المشتركة، ثم التدرج بها خطوات، فبهذا قد يوجد يوما كيان سياسى اقتصادى تعداديه الحالى ٢٥٠ مليوناً، يحفظ لها مكانها بين العمالقة الجدد.

وليس هذا على أى حال بالمنطلق البسيط، «فالحاجة» هى أقوى الحوافز، والتطور الاقتصادى السياسى من العوامل الحاسمة في التحولات التاريخية الكبرى.

وفي حالتنا نحن العرب، فإن عنصر «الحاجة» هذا نفسه الذى كان العنصر الأساسى في قيام الوحدة العربية، موجود في حالتنا، وإن كان عنصر «الحاجة»، في حالتنا ليس العنصر الأساسى ولا الوحيد، كما هو الحال في أوروبا..

ألا يستشعر العرب أنهم في عالم اليوم المتغير المضطرب، عالم اليوم الذى تنهار فيه كيانات وتقوم فيه كيانات جديدة، وتتغير موازين القوى، وتتشابك فيه المصالح الدولية، وينهض فيه عالم بأكمله كان «مخصوصاً» من حسابات القوى الدولية، وهو العالم الثالث.. ألا يشعر العرب في عالم هذا شأنه، أنهم من الناحية «الأمنية» في حاجة إلى التقارب والتماسك والتناسق، ولا نقول الوحدة؟

في هذا العالم الذى يقفز فيه العلم والتكنولوجيا وبالتالي الاقتصاد

و«نوعية» الحياة، قفزات هائلة كل يوم بل كل ساعة.. في عالم هذا شأنه ألا يشعر العرب بحاجة «اقتصادية» إلى السير جدياً وحثيثاً نحو درجات من التكامل الاقتصادي، والتكامل الصناعي الانتاجي، والتنسيق والتكامل في مجالات البحث والعلم؟ ألا يشعر العرب أن المال بغير بشر لا ينتج الكثير، والبشر بغير مال لا ينتج الكثير، وأن الكفاءات العلمية هي أغلى عملة في عالم اليوم، وأن تجميعها، وتسويقها إلى قنوات البحث ذات الصلة بظروف العالم العربي.. هي الوسائل التي لا مفر منها إذا أردنا أن نكون أمة عربية، لها قدرة على المنافسة الاقتصادية والانتاجية، وليست مجرد أرض غنية مؤقتاً بالخامات، وأنه بدون هذا لن يكون لنا خلال سنوات قليلة فرصة الرقي والحياة في المستوى اللائق؟

إن عنصر «الحاجة».. الحاجة إلى «الأمن» إزاء عناصر التهديد الخارجي والحاجة إلى التقدم والقدرة على المنافسة وتحسين قيمة الحياة.. عنصر «الحاجة» هذا العنصر «الغريزي» قبل أن يكون سياسياً ولا فلسفياً.. هذا العنصر الذي هو الدافع للوحدة في أوروبا.. إنني أراه موجوداً في حالتنا نحن العرب بدرجة أقوى وأشد إلى حد كبير، وإذا كنت أركز عليه فلأنه العنصر البديهي، العملي والواقعي جداً، والذي لا يحتاج إلى مناقشة أو تدليل أو دخول في نظريات وفلسفات يمكن الخلاف عليها.

فما بالنا، إذا كان هذا العنصر الغريزي، ليس هو العنصر الوحيد في حالتنا نحن العرب.

نحن العرب نتكلم لغة واحدة ودول السوق الأوروبية المشتركة تتكلم سبع لغات، ونحن العرب تراثنا واحد، فلو سألت فرداً عربياً في أي مكان عن شاعره المفضل مثلاً فسيقول لك المتنبي أو أبو العلاء أو أحمد

شوقي.. بصرف النظر عن كون هذا الفرد مغربيا يطل على المحيط أو كويتيا يطل على الخليج. في حين أنك لو سألت الأوروبي لاختلف الأمر قطعاً.. فالإنجليزى سيقول لك أن شاعره هو شكسبير.. والألماني سيقول لك «جوته»، والفرنسي سيقول لك «فيكتور هيجو» وهكذا..

وإلى جانب وحدة اللغة والتراث توجد عشرات من وشائج الوحدة المعروفة التى لا تتوافر في مكان آخر. ويوجه عام فالوحدة في أوروبا «فكرة» عملية طارئة، في حين أن الوحدة العربية حقيقة عاشت قروناً ولربما تقطعت أوصالها سياسياً في مراحل لاحقة ولكن ظلت الحقيقة على مستوى الشعوب قائمة وجذورها عميقة.

ولكن الأوروبيين بدأوا مسيرتهم سنة ١٩٦٠ وقطعوا فيها أشواطاً طويلة.. والجامعة العربية قامت سنة ١٩٤٥، ولم تقطع بعد معشار الشوط الذى قطعه الأوروبيون دون ضجة ولا مضاريات.

ربما لأن الأوروبيين يتناولون أمورهم بأسلوب عقلاني مطلق ليس للعاطفة فيه مكان. وهذا ليس نقياً لقيمة العاطفة، فالعاطفة عنصر حافز ودافع قوى بالتأكيد. ولكن الاعتماد عليه وحده دون درجة كافية من العقلانية، يبدو أنه لا يوصل إلى شيء. لأن العاطفة بطبيعتها متقلبة، سريعة التأثير، يتراوح عليها المد والجزر، والحساب العقلى ليس كذلك.

أو ربما لأن الأوروبيين لهم علينا ميزة أن المستوى الحضارى بين دولهم التسع مستوى متقارب، ونظمهم السياسية والاقتصادية متماثلة أو شديدة التشابه، وقيمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم واحدة. وهذه أمور تسهل التكامل والتوحيد كثيراً. وهى أمور يجب أن نعترف أنها ليست متوافرة لدينا.

ولكننا في نفس الوقت نعرف من تجارب كثيرة أن عدم توافر هذه الظروف ليس بالعقبة التي لا يمكن تجاوزها.

ولكن المشكلة أن كل مشروعاتنا في مجالات الاقتصاد وتسهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، نحطمها دائماً على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا بين الشعوب، فلا تمضي هذه المشروعات إلا وتتوقف. ولا تتصل هذه الشرايين في الجسد الواحد إلا وتتقطع.

ولو فصلنا بين الخلاف السياسي وبين المجالات الأخرى، التي تزيد في تلاحم جسد الأمة العربية لتغيرت أمور كثيرة.

ولكن... ماذا أقول؟؟..

إننا نعيش ما هو أسوأ، نعيش في مرحلة حروب أهلية عربية!!..

فهل ما نزال في المرحلة التي مرت فيها أوروبا بهذه الحروب؟

أي نعيش القرون الوسطى؟!

عالم من سياحة.. وبترول.. وفضول..!

منذ عشرات السنين لا أكثر، كانت «السياحة»، ميزة لا تسدرکها إلا القلة، وكانت كلمة «السائح» مقصورة على صاحب الثروة الواسعة. وحتى هؤلاء كانت الحركة بينهم بسيطة.

كان الملك أو رئيس الدولة يقضى عشرات السنين متوجا ربما لا يبرح بلده أبدا أو يبرحه مرة واحدة، إذ كانت الرحلة الملكية حدثا هاما يستعد له، وإجراءات طويلة معقدة.

وكان السفر للسياحة له ناس قليلون مشهورون به. أنكر في مصر مثلا أن موسم السياحة كان يعد ناجحا إذا جاء «أغساخان» و «البيجوم» زوجته.. وعشرات مثلهم.. وامتلأت الغرف القليلة في فندق «كاتساراك» ونتر بالاس، الاقصر، وكان «وصول سائح» من هذا النوع خبيرا تنشره الصحف في صفحاتها الأولى، ونقرؤه ونحن صغار وكأننا نتابع أخبار نوع نادر من البشر، يقضى الصيف في مكان والشتاء في مكان آخر!

وأیضا كانت صورة السائح في ذهننا ونحن صغار هي صورة رجل عجوز أو امرأة طاعنة في السن، لأنهم في العادة أصحاب القدرة المالية، وأصحاب الفراغ وقلة العمل، لأن السياحة نفسها كانت مقترنة في ذهننا بالمال الموروث دون عمل..

وعندما اكتشف الانجليز مثلا شاطئا دافئا على البحر الأبيض المتوسط هو مدينة «نيس» على الريفيرا الفرنسية، يهربون إليه أحيانا من برودة

بلادهم وضبابها، كان يعتبر هذا في فرنسا نفسها أنه «من غرائب الانجليز». وسمى كورنيش نيس باسم «شارع الانجليز AVENUE DES ANGLAIS»، حتى الآن.. برغم أنه صار شارع العرب.. وجلا عنه الانجليز منذ زمن!

وبعد الحرب العالمية الثانية، نشر الأمريكان كلمة السياحة بتدفعهم الهائل على أوروبا. أيامها كان الدولار هو الملك. وسائر العالم فقير بانس. وحتى وقتها كان الشائع أن هؤلاء الأمريكان القادمين من خلف المحيط وكأنهم من كوكب آخر، كانوا ظاهرة فريدة لنا اكتشفوا الكرة الأرضية ويريدون معرفة أصولهم التي هاجروا منها.

كانت الفنادق قليلة في أكبر العواصم، وفاخرة جدا، وكانت حجرة الفندق في حجم شقة واسعة من أيام ما قبل المباني الجاهزة التركيب والعمال الكوريين! وكان السفر أساسا بالبواخر. والرحلة تستغرق في البحر لا أقل من أسبوع، ومع نهاية الحرب العالمية كان التقدم الهائل قد جعل الطيران من أوروبا إلى أمريكا يستغرق ستا وثلاثين ساعة فقط (أربع ساعات تقريبا بالطائرة الكونكورد الآن) وكانت لندن منذ عشرين عاما فقط خالية من المطاعم إلى بيوت الشاي التابعة لشركة «الليونز» ومطاعم السمك والبطاطس المقلى FISH AND CHIPS برغم أنها كانت عاصمة الدنيا.

وكان هناك أدب من أعظم الآداب الانسانية وهو «أدب الرحلة» سواء قبل قرون، عندما كان رجال مثل «ابن بطوطة» يرحلون إلى آخر بلاد الله. متجشمين الاهوال، لا يعرفون إذا كانت ستكتب لهم العودة أم لا، ليكتبوا عن العالم الذي لا يعرفه الناس، والبلاد التي تركب الأفيال. ولكنهم كانوا عبر التاريخ قلة نادرة.

واستمر هذا حتى العصور الحديثة. من كتب الفرنسى «ليوتى» عن الشرق أو المصرى رفاعة الطهطاوى عن باريس...

وحتى الأربعينات من هذا القرن العشرين «كسب بعض أعظم الكتاب شهرتهم الأولى من أدب الرحلة.. سواء ما كتبه أندريه مالرو عن الصين وكمبوديا أو إرنست همنجواى عن مصارعة الثيران فى أسبانيا أو مقهى «الكلازيرى» فى باريس...

ولكن السفر انقلب انقلابا تاما فى العشرين سنة الأخيرة. لم يعد السفر للمليونير ولا الأديب أو التاجر والمستكشف. بل كان يصبح «حقا جماهيريا» من «حقوق» الانسان يتطلع إليه كل فرد. وعرف العالم سياحة جديدة تماما..

ماذا حدث؟..

أشياء كثيرة نذكر بعضها لا بترتيب الأهمية ولكن بترتيب تداعى الخواطر...

الثورة الصناعية التى حشرت الناس بالملايين فى المدن الصاخبة. والرغبة بعد «التشبع بحياة المدن» التى لا ترحم، ورد الفعل إزاء «العمل الشاق الممل الرتيب» فى المكاتب والمصانع وتحول الناس إلى أرقام وإلى تروس صغيرة فى آلات هائلة.. جعلهم ساعة الاجازة يركنون إلى الفرار.. إلى الطبيعة، إلى تحكم الانسان فى نفسه ومزاجه ولو لأسابيع كل سنة..

اكتشفوا شواطئ البحار وقمم الجبال وقيمة الخضرة وأنفاس الغابات.. وأذكر دائما فى هذا المجال كلمة لزوجة رئيس وزراء انجلترا الأسبق «هارولد ويلسون»، وهى أديبة شاعرة لها عدة دواوين، عندما

سألها صحفي عن شعورها حين تركت بيتها خارج لندن وسكنت لأول مرة في قلب لندن، وفي مقر رئيس الوزراء «رقم ١٠ داوننج ستريت» فقالت: «في قلب المدينة أشعر أن كل نسمة أتففسها قد تنففسها قبلى عشرات!». .

ثم جاءت زيادة السرعة، واختصار المسافات وانخفاض النفقات (وسنعود إلى أسبابها بعد قليل).. كان عبور الأطلسى يستغرق أسبوعا في أسرع السفن.. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع ظهور الطيران وانتشاره، كانت نفس الرحلة بالطائرة من باريس إلى نيويورك تستغرق سنا وثلاثين ساعة (الآن تقطعها الطائرة الكونكورد في أقل من أربع ساعات. والاعلانات تقول: افطر في أوربا مع عائلتك وتغد في أمريكا مع أصدقائك!). .

ثم انكسر أهم حاجز وهو التكاليف، تنافست شركات السفر بالبحر والبر والجو. ومنذ سنة مثلا جاء رجل أعمال إنجليزى اسمه — لاکر — فالغى من الطائرة كل التفاصيل: المضيعة الجميلة والطعام الفاخر والحجز المسبق، مقابل «مجرد نقل المسافرين إلى مقصده، بأقل من نصف التكاليف!». . وأعطته ملكة إنجلترا لقب «سير» مكافأة له على هذا الانقلاب....

هذا كله أوصل السياحة إلى متناول يد الطبقة المتوسطة في العالم، والطبقة العاملة في البلاد المتقدمة، حيث امتلأت الطائرات ومجموعات شركات السياحة بالبروليتاريا، وتدفق الشباب ذكورا وإناثا في نهى شديد على السياحة والسفر.

فضول الإنسان الغريزى ، هذا الفضول الذى هو إحدى مميزات

الانسان على الحيوان، هو أحد أهم محركات التقدم من قديم الأزل. إن الفضول لمعرفة الأفكار والفلسفات.. هو نفس الفضول لمعرفة الأجرام السماوية.. وأسرار الفلك منذ آلاف السنين. هو نفس الفضول الذى يطلق الأقمار الصناعية بتكاليف خرافية لمعرفة القمر والمريخ.. الفضول الذى كان يشبه لدى الناس عالم الفلك أو كاتباً رجالة.. صار مع هذا التطور فى العالم فضولا يجب أن يرتاد كل إنسان أفاقه بنفسه.. أفلام السينما وحكايات الصحف وشاشات التليفزيون التى ترينا كل أرجاء المعمورة زادت الرغبة فى المعرفة والمعاشية، ولم تطفئها... وصارت القيمة الثقافية لزيارة بلد ومعرفة مجتمع، كالقيمة الثقافية لقراءة أهم كتاب أو عشرات من الكتب.. ولعلنى استطردت...

ولكننا ونحن مجتمعات نامية.. وربما كانت تطلعاتنا حتى الآن أكثر تواضعا.. فإتنى أريد أن أغرز معنى هاما هو حاسر بعض الناس ومستقبل لباقتهم.. وهى أن السياحة صارت ضرورة وتزداد ضرورة.. وإن الانسان الحديث إنسان مسافر.. إما للدراسة، أو لزيارة المتاحف، أو للجلوس على مقهى فى بلد غريب...

وأقل الناس حيلة فى أمريكا وأوربا مثلا يسافرون بالسيارات.. أو بالدراجات.. أو سيرا على الأقدام وينامون فى الفنادق الرخيصة.. أو الخيام التى يحملونها.. أو فى العراء، المهم أن يتحرك. أن يعبر حدودا ماء، أن ينسى - لشهر - مكابدة أحد عشر شهرا...

والصيرورة إلى عالم متحرك مستمر وفى ازدياد.. حتى يعرف المسئولون عنا، والرواد فينا وقادة الطريق.. أن هذا مستقبل لا بد من الاستعداد له.. بل والعمل من أجله..

طبعاً لا يمكن لمتأمل عربى، إلا أن يذكر سبباً هاماً حرك الكثير من

هذه الاسباب وجعل كل هذه الوسائل متاحة.. اكتشاف وقود محرك رخيص.. هو البترول..

وهو السبب الذى أشرت منذ قليل إلى أننى أؤجله إلى آخر الاسباب...

فغنى عن الإشارة، أن كل هذه العجلات التى تتحرك.. من الدراجة إلى السيارة إلى الحافلة إلى الطائرة .. والمحركات التى تدور فى جوف البواخر.. إلى الآلات التى تنتج فى المصانع كل هذه الوسائل.. كل هذا .. كله.. يدور بطاقة محرك.. وكانت الطاقة المحركة إما بامهظة التكاليف.. وإما نادرة – وإما غير ممكن إطلاقا استخدامها فى مجالات هامة (هل كانت ستطير طائرة بالفحم مثلا؟).. حتى عرف البترول فاختر كل هذا.. وسهله.. وتجاوزته.. ثم تدفق بكميات هائلة، وحتى الآن بأسعار هى أرخص من أى وقود آخر.. فكان، بعد العقل البشرى صاحب الفضل الأول فى خلق العالم الجديد.. فى رفع حدود الانسان وتوسيع آفاقه آلاف آلاف المرات. وأنا أضعه بعد العقل البشرى لأن عالم الانسان، إذا تحدثنا عن التطور، أداته الأولى الحاسة هى العقل، وإذا كنا نقول: «الانسان بأصغريه: قلبه ولسانه» ومجموعهما هو التعبير عن العقل. فإننا نستطيع أن نقول: إن العالم.. برغم كل جيوشه وصواريخه وناقلات النصف مليون طن، يصدق عليه تماما، ودائما «إن العالم بأصغريه: قلبه ولسانه».

وأنا لا أتحدث هنا عن البترول، برغم كل الاغراءات، حديث سياسة أو حديث اقتصاد. والدنيا من حولنا لا حديث لها إلا عن «البترول سياسة واقتصاد». إنما أتحدث عنه كجانب حضارى، إنسانى، أثر ويؤثر

في فكر الانسان، وأفق الانسان وتكوين الانسان، ونسيج كل خلية حية في الانسان.

ناحية قلما تحدث عنها أو اهتم بها أحد، ولعلها تكون مجالا لحديث مستقل...

ويعد ذلك يستكثر الانسان «المتقدم» علينا.. ثمن البترول! والانسان في الرحلة قد يكون آلة تصوير صماء. ولكنه لا يكون إنسانا من النوع الذي نريده، إلا إذا وجد نفسه ... تلقائيا ودون قصد يتذكر ناسه، وبلاده، ويقارن ويتمنى الأمنيات فهذا وحده هو حقا «الانسان المسافر».

وأنا أتحدث عن انقلاب السياحة.. فأتذكر بلادنا العربية...

كما يرى الانسان منا الصاروخ فيتمناه لبلاده. والرخاء فيتمناه لمجتمعه. وحرية العقل والفكر والضمير فيتمناها لشعبه وقومه.. ويرى نفس الانسان السفر وهو موضوعنا في هذه الصفحات فيتمناه لبلاده..

لاشك أن شعوبنا العربية أيضا تمر في هذا المجال بانقلاب واسع «مرض الحنين إلى السفر»، كما أسميه مستخدما عنوان مسرحية فرنسية قديمة، مرض صحن يعالج أعراضا أخرى كثيرة، وإذا كان يجتاح شعوبنا.. من أقدر الناس إلى زهور الشباب التي تكتظ بها حقولنا ويراريننا.. فهذه علامة صحية. ولكن تقصير المسؤولين فينا في هذا المجال، كبير.. وهو تقصير نحو أنفسنا...

اتطلع إلى خريطة وطننا العربي.. فأجد فيها كل ماتتوق إليه النفس الراغبة في المعرفة والتغيير.. والترفيه... وكل ما يشبع أي نوع من أنواع الفضول...

الجبال الشامخة والغابات السامقة الاشجار، والجليد في جبال أطلس
والجزائر وشمال العراق ولبنان وما فوق شواطئ سوريا!...

الشواطئ البالغة الجمال؟.. مصر وليبيا وتونس.

صيد البحر؟ في البحر الأحمر والخليج....

صيد البر؟ في الصحاري وفي غابات السودان!

الدفء في الشتاء؟.. في جنوب مصر وفي الخليج طراوة الصيف؟ في كل
الساحل العربي من سوريا إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي...

آثار إسلامية وعربية؟.. القاهرة الألف مؤذنة والمسجد الأموي
والكاظمية والأعظمية والفن العربي الاسلامي الرفيع في تونس والمغرب.

آثار حضارات أقدم؟.. وادي ملوك الفراعنة في طيبة.. بابل القريية
من بغداد.. تدمر وبالميرا في بادية الشام، ومسارح الرومان في اسبراطة
وغيرها...

سياحة دينية؟ صحية ثقافية؟.. ترفيهية؟ إن السياحة الآن سياحات.

ماذا بقي وليس موجودا عندنا؟ بكثرة وغزارة.. وتنوع.. وجمال؟

إنني لا أدعو إلى «الاكتفاء الذاتي» في السياحة ولا إلى ألا نعرف
سوى أنفسنا فهي معرفة ناقصة.. ولكن أليست معرفة هامة؟... بل
أليست معرفة أنفسنا هي أول خطوة على طريق المعرفة كله...

فماذا فعلنا؟

إننا لسنا في حاجة إلى اختراع البخار وقد صرنا في عصر الذرة.
فلنفعل ما فعلوا...

لقد انتبهت كل الدول إلى أهمية السياحة الداخلية. ثقافيا وحضاريا بل واقتصاديا...

فجزء كبير من مال السياحة في تلك البلاد، ينفق داخلها ينميها يجعلها، يوسع دائرة رخائها، ويربطها ببعضها البعض.

والسياحة الداخلية عندى ليست داخل القطر، بل داخل الوطن العربى...

والمفتاح هو أن تعاملها على هذا الأساس بالأفعال لا بالأقوال. فقد صارت السياحة في أمم شتى كأمم السوق الأوروبية المشتركة سياحة داخلية.. لو اعتبر الطيران العربى طيرانا داخليا لهابت التكاليف إلى النصف.

لو سهلت تأشيرات الدخول السياحية لتضاعف السائحون..

ول فصلنا تماما بين سياسات الحكومات - وأحيانا امزجتها - وبين تنقلات وعلاقات الأمة الكبرى.. لزال المخاوف..

لو رصدنا أموالا نشجع بها رحلات الطلبة والشبان والشابات إلى «الخارج» ورتبنا رحلات بسيطة التكاليف وبسيطة المظاهر في «الداخل» بين أرجاء الوطن الواحد.. لزال معلومات خاطئة، وصفت نفوس مضلة، وحق علينا القول الكريم: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».

لو وضعت الدول العربية استراتيجية لشبكة طرق ومواصلات عربية، ينفق عليها من المال الوفير غير المستثمر، من الأيدى العاملة المعطلة، لتبدلت شرايين الحياة في الجسد العربى تبديلا.

أين الطريق البرى من بور سعيد إلى طنجة؟

أين خط السكة الحديدى الغابر من دمشق إلى الحجاز؟
أيعقل ألا يكون بين مصر والسودان إلا طرق القوافل التى انفتحت
من مئات السنين دون إضافة واحدة؟
هل وضع خطة استراتيجية لشبكة مواصلات عربية؟ مسألة صعبة،
كوضع استراتيجية موحدة لحل قضية فلسطين؟
نحن نطلب الأساسيات والبدیهیات، ولا نعثر عليها..
أين وأين وأين وأين.. وألف أين؟
والى متى لا نجد ما نكتبه إلا أن نقول: أين؟!

وجه جديد للعالم صنعه البترول !

● كان حديث الفصل السابق عنوانه «عالم من سياحة وبتترول.. وفضل»..

ولعلنى اعطيت بعض جوانب الحديث حقها، وذكرت أن عنصرا هاما لم تتسع الصفحات لأن يستوفى حقه، وهو البترول..

وكما ذكرت، فيما احسب، فإننى لا أتحدث عن مشكلة البترول من زواياها المعروفة : لا مشكلة الطاقة، ولا أسعار البترول، ولا الصراع بين دول «الايبيك» والدول المستهلكة.. ولا الصراع السياسى الذى يستتبعه هذا الوضع الاقتصادى.. إلى آخره.

ولكننى أحاول أن أتأمل، فى سلسلة من الاستطرادات، الآثار الاجتماعية التى ساهم بها البترول فى هذا العالم كما نعرفه.. وحتى الآثار التى ساهم بها فى تشكيل نفسية الفرد نفسه.

وبغير كثير من المبالغة، كانت هناك اكتشافات قليلة غيرت وجه حياة الانسان على الأرض. اختراع الورق خلق أول صلة مدونة بين الناس. اختراع الطباعة مثلاً جعل المدونات فى متناول عدد أكبر وخلق شيئاً اسمه التعليم والقراءة على نطاق واسع. اختراع البارود نقل الحروب من لقاءات عدد من الفرسان فى ساحة وغى بعيدة، إلى الحروب التى تشترك فيها وتقاسى منها الشعوب كلها، إذا ارادت طبعاً أن تكسب حرياً.

من هذا المستوى اكتشاف البترول.

فالبتترول هو الذى وضع العالم على طريق الحركة الهائلة والانتاج الوفير.

صحيح إن اكتشاف البخار ثم الكهرباء كانا خطوة على الطريق. وصحيح أن اكتشاف الصحافة والاذاعة نقل صورة العالم إلى الانسان حيثما كان.

ولكن لو وقف الامر عند هذا لما حدث ما حدث. ولما رأينا العالم الذى نعرف.

كان البخار سيقف عند حدود، وكذلك الكهرباء. فالفحم — الذى كان مصدر تلك الطاقة — يمكن أن يدير مصنعا أو يسير سفينة. ولكنه ما كان ممكنا أن تطير به طائرة ولا تسير به سيارة ولا تحارب به دبابة. وما كان أن ينتشر استخدام الطاقة هذا الانتشار.

فالنقلة الانسانية، في مدى انتشارها، من عالم الفحم إلى عالم البترول، اشبه بالنقلة التى تمت من عالم الكتابة إلى عالم الطباعة. نصار ممكنا أن يطبع من المخطوط ملايين النسخ. وصار ممكنا أن تصدر ملايين الصحف كل أربع وعشرين ساعة..

أولا، لخص تكاليف البترول. ثانيا لسهولة استخدامه في ملايين الوحدات الصغيرة — الطائرات والسيارات مثلا — هذا إذا قصرنا اثره على عنصر «الحركة» وحده في حياة الانسان، لا على عناصر تأثيره في شتى نواحي الانتاج.. من الانسجة إلى المطاط إلى بروتين الطعام...

صحيح أن العقل الأوربي كان هو القائد للتقدم العلمى في القرون الأخيرة. وصحيح أن اكتشاف البارود أو الطباعة أو البخار، كان أثر «العقل الانسانى فيها» أهم من أثره في اكتشاف «خام» البترول.

ولكن الغريب أن مادة التطور العلمى - سواء فى مؤلفات المؤرخين أو فى مقررات المدارس - حينما تتعرض للخطوات - أو المنعطفات الحاسمة - فى طريقة الثورة العلمية الصناعية تذكر ظهور البخار، ثم اللاسلكى، إلى آخره.. ولكنها لا تذكر بنفس السدرة من الأهمية: اكتشاف البترول.

مع انهم، فى النهاية، أى الأوربيين، هم الذين اكتشفوه.

ولكن هذا الإهمال - أو الإغضاء - ربما كان مصدره أن معظم الاكتشافات السابقة يمكن إنتاجها فى أى مكان من العالم، ماعدا كل ما هو عائد إلى البترول، فهو مخزون أساسا فى مناطق محددة فى العالم. فهو مصدر الطاقة الوحيد الذى تتحكم فيه عوامل الجغرافيا السياسية إلى حد بعيد. وفى حين ظهر الفحم مثلا فى بلاد الصناعة - إنجلترا وألمانيا مثلا - ظهر البترول فى «المستعمرات» التى لم يشأ الغرب وقتها أن يعلم إبنائه أن شريان حياته الحديثه مربوط بتلك البلاد. وأن ما يأتى الغرب من هذه البلاد أهم كثيرا من الشاي، والتوابل، والعطور، والحرير الفاخر المصنوع بالأيدي.

إن الجوانب الإنسانية كثيرا ما يجرى إغفالها عند تعداد العوامل المؤثرة فى الأحداث.. وهذا هو أحد أكبر جوانب النقص فى الفكر البشرى، وأحد أهم أسباب الصراعات..

لقد صار البترول عنصرا حاسما فى حياة العالم منذ الحرب العالمية الأولى. ومنذ قال «لويد جورج» رئيس وزراء إنجلترا قبل خمسين سنة: «لقد سبج الحلفاء إلى النصر على بحر من النفط». ولكن المرء يلاحظ - فى حدود ما يعرف - أن الأجيال الغربية لم تتعلم قط فى برامجها

ومدارسها ولا في وسائل إعلامها، أى شيء عن قيمة البترول. وبالتالي لم تتعلم تلك الأجيال إن حضارتها مرتبطة في تطورها بأماكن بعيدة في القارات الأخرى «التي ظلت بالنسبة له مستعمرات»، سواء بالمعنى المادى أو بالمعنى المعنوى والنفسى..

لم يتعلم العقل الأوربي العام أن تقدمه مربوط بدرجة حيوية — لا كمالية — بقرارات أخرى وشعوب أخرى. وحتى حين انسحبت جيوشه واسلحته، ظل يحس «نفسيا» أن باقى العالم مستعمر، تابع له.. وأن سلعة كالبتترول متاحة — بديهيا، وبلا مقابل تقريبا — كماء المحيطات التى ليس لها مالك. وبالتالي تأخرت الذهنية الأوربية والأمريكية كثيرا في إدراك ضرورة قيام علاقة جديدة، أكثر احتراما وتوازنا، مع «الآخرين».. الذين هم بالنسبة لهم: بقية البشر!

ولذلك عندما «فوجئ» الرأى العام الغربى بحكاية «أزمة الطاقة»، رأينا ردود الفعل العجيبة الغربية، وكأن الأمر مفاجأة. واستطاع الحكام الغربيون وأصحاب المصالح الغربية — سياسية واقتصادية — أن يستخدموا ذلك المزيج من الرعب والمفاجأة والذهول ويوظفوه لمصالحهم السياسية، ويسندوا تهديداتهم العسكرية.

فالعالم الغربى «نفسيا وذهنيا» مازال في حاجة إلى أن يتعلم أن سائر الكرة الأرضية ليست مستعمرة له، ولا هى مكرسة لخدمته. وأن علاقته بالغير هى علاقة «حاجة متبادلة»، وليست علاقة «قوى يتصدق على ضعيف».

وقد جرغنى موج الحديث إلى بعض شواطئ السياسة، برغم أنني أحاول هنا أن أسبج بعيدا عنها.. لأنها شواطئ مطروقة كل يوم وكل ساعة..

إنما أريد أن أتحدث عن الأثر الحضارى للبترول. ولكثرة الآثار وتشعبها الرحيب لابد من اختيار خيط واحد. وليكن: الانتقال والحركة..

إن الكل متفق على أن أهم تطور في حياة العالم خلال نصف القرن الأخير، هو أن العالم صار «صغيرا». أو صار «قرية كبيرة» كما يقول «مارشال ماكلوهان». وقد صار العالم صغيرا بفعل أشياء كثيرة: البريد والبرق والتليفون واللاسلكي والصحف والاذاعة والتلفزيون..

ولكن أهم ما جعله «صغيرا» بكل ما لذلك من نتائج، هو سرعة وسهولة النقل والانتقال..

نقل الأفكار، ونقل الجيوش، ونقل الأفراد، ونقل السلع والبضائع..
النقل السيء والنقل المفيد..

النقل السيء، الذى صار ممكنا معه إلقاء آلاف القنابل على أقصى البلاد، وخلف خطوط القتال بمئات الأميال (دعك من الصواريخ) وبالتالي لم تعد الحروب مقصورة على الجنود، بل شاملة لأبعد البشر عن الصراع. فلم تعد هناك «قرية آمنة»! وكان هذا مستحيلا بدون البترول بالذات..

والنقل البرى..

فبعد أن كان الرسول يسافر من بلد إلى بلد في شهور ليبلغ رسالة.. صار عاديا أن يجتمع ممثلو مائة وخمسين دولة - العالم كله - في الأمم المتحدة طوال السنة وفي أى وقت من السنة. فالطائرات النفاثة - ووقودها البترول - اختصرت الشهور إلى ساعات.

ولسنا في حاجة إلى تفصيل أى مثل من هذين المثلين فقط. فآثارهما

على العالم معروفة ولمموسة وظاهرة كل يوم. لسوا أن الانسان ينسى.
وسرعان ما يالف الجديد الغريب ويعتبره عاديا ويديهيا ومفروغا منه !
ولكن لندخل إلى طريق اضيق، وننسى الطائرة، ونكتفى بالسيارة..
ومرة أخرى: السيارة كأداة ما كان لها أن تقوم وتوجد، دون اكتشاف
البترول. وما كان لها أن تنتشر دون رخص سعر البترول - حتى الآن !
ولنأخذ مجتمعا واحدا، هو المجتمع الأمريكى. لنرى كيف أعادت
«السيارة» تشكيله حتى على المستوى الفردى..

وسنأخذ المجتمع الأمريكى نموذجا، لا لأنه حالة فريدة، ولكن أولا
لأنه سبق غيره في هذا المضمار. ولأن ما يحدث فيه، يتكرر في كل مكان
من العالم تقريبا وإن اختلفت الصور والدرجات.
ولأن أمريكا بحكم اتساعها تكاد تكون قارة كاملة..

في المشهد العام، لأول وهلة، نجد أن السيارة أعادت توزيع السكان
تماما، وفي اتجاهين معاكسين في نفس الوقت :

فالسيارة هي التي خلقت المدن الكبيرة. أى التركزات السكانية
الكثيفة. مدن العشرة ملايين سكان أو أقل أو أكثر، مثل نيويورك ولوس
انجلوس ولندن وباريس وطوكيو.. إلخ. من الواضح أنه كان مستحيلا
ظهور «المدن الكبرى» بهذا الحجم في العالم كله، بخيرها وشرها دون
وجود السيارة. ونحن نعرف أن ظهور هذه المدن الكبيرة، وتزايدها،
حتى يومنا هذا، خلق الكثير من القيم والعادات الجديدة، وأوجد من
المزايا ومن الشرور على السواء، ما يعكف المفكرون على دراسته
وما وضعت من أجله آلاف الكتب.

وفي عكس هذا الاتجاه، جعلت السيارة قيام التجمعات السكانية الصغيرة ممكنا في أى بقعة من الأرض. فكما قامت مئات المدن الكبرى، انتشرت آلاف القرى. لأن ساكن القرية في أبعد أماكن أمريكا التي كانت مهجورة، صار يمكنه أن يعيش وأن يصل إليه كل شىء على مدار السنة. من طعام وشراب وثياب وأى أدوات موجودة في المدينة. بل إن ولايات صحراوية تماما - مثل أريزونا - صارت ولاية مأهولة مسكونة، بل وفيها أفخم أماكن الترفيه واللهو والفنادق (لاس فيجاس مثلا).. قامت هنا في قلب الصحراء تماما. لأن السيارة وضعتها على الخريطة لأول مرة.

ذلك أن وجود السيارة بأعداد كبيرة - من الشاحنات الكبرى، إلى الحاويات المبردة، إلى السيارات الفردية - خلق صناعة ربما كانت أكبر صناعة في العالم، وغير خريطة الجغرافيا، وهى: الطرق.. بكل أنواعها! وبكثرة كان مستحيلا أن تقوم بدلها خطوط السكك الحديدية مثلا.

انظروا إلى الطرق الكبرى في بلادنا وفي العالم كله. الشاحنات المحملة بالخضر والفاكهة واللحوم تقطع الطرق من غرب أوربا إلى الخليج وفي أمريكا من المحيط إلى المحيط. متفرعة إلى كل مدينة وكل قرية. لأنها يمكن مدها في السهول والصحارى، وفوق الجبال، وفي الأنفاق.. فلم يعد هناك مكان معزول. ولم يعد هناك حاجز طبيعي يحول دون تدفق الحياة وتثبيت جذورها في أى أرض. وكان لهذا أيضا الكثير من الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية..

خلقت الحياة في اشد المناطق برودة.. بالتدفئة، وأشد المناطق حرارة بالتبريد..

السيارة خلقت المدن الكبرى.. وخلقت الضواحي.. وفتحت أراضي جديدة للسكن والاقامة.. وللزراعة والانتاج.. وضاعفت حجم التجارة والتبادل حتى في داخل القطر الواحد.. ومئات ملايين الأفدنة في العالم ما كان يمكن زراعتها إلا بطرق تشق إليها، وسيارات تجرى عليها، وجارات وموتورات تزرع وتحصد وتروى..

وكل هذا في النهاية بمادة أساسية في هذه الشرايين والأوردة، هي البترول..

وعندما نتأمل «ثورة الطرق» التي نتجت عن استخدام السيارة وتزايد الاعتماد عليها، نجد أنها من أهم الأشياء التي غيرت معالم الحياة، وأوجدت أشكالاً جديدة للحياة. لم تعد الطرق هي تلك المسالك الضيقة غير الممهدة. وفي التاريخ نجد أن «يوليوس قيصر» كان أول من انتبه إلى شق الطرق — بمنطق ذلك الوقت — ولكن لأسباب حربية، حتى يسهل مرور عجلاته الحربية إلى حيث تنتجه أهدافه في الغزو. ولكي تكون أبعد مناطق الامبراطورية في متناول يده، يجمع أي تمرد بعيد في أسرع وقت. وتنبه لها هتلر، في ألمانيا التي تنافس أمريكا في سرعة إنتاج السيارات بكثرة ويأرخص التكاليف. فأوجد السـ «أوتويان» أو الأوتوستراد «أو» الهاي واي «حسب اللغة. وهي الطرق الكبرى، التي تتجاوز زحام المدن، وتمهد بأدوات ومواد صلبة قوية، وتسمح للسيارات بالاندفاع فوقها بأقصى سرعة.

وتنبهت لها أمريكا، ليس لأسباب حربية فقط. ولكن لأسباب تتصل بتطور الحياة وتوسيع الرخاء كما ذكرنا من قبل. وهذه الطرق الكبرى أوجدت بدورها أشياء جديدة أوجدت محطات البنزين. أوجدت «الموتيلات»، أو الفنادق الصغيرة، والمطاعم السريعة. وأعيد بناء فروع

للبنوك تسحب منها المال وأنت في السيارة. ومطاعم تأخذ منها ما تريد وأنت في السيارة. وحتى سينما السيارات وغيرها مما يسهل السفر بالسيارة في بلد يصل حجمه إلى حجم قارة مستقلة.

ويسهولة الحركة والانتقال — بسبب السيارة — قل ارتباط الفرد بالمكان. فقبل ذلك، كان الإنسان يعيش مع أسرته منتصيا إلى بلدة أو إلى ولاية بعينها. وتتوالى الأجيال من بعده في نفس المكان. ولكن السيارة جعلت الوطن. بالمعنى المحلي، هو حيث يوجد الرزق، وفرصة الحياة الأحسن. فالبيت الأمريكي أكثر البيوت تنقلا. حتى أطلق البعض على الشعب الأمريكي صفة أنه «أمة على عجل»!

وشيء من هذا يتسرب بالتدريج إلى سائر أنحاء العالم، تبعا لدرجة التقدم ونسبة عدد السيارات إلى السكان، وكمية الطرق المتوافرة.

وقد يمكن الانعطاف إلى حديث أدبي قصير..

فكما أن «القطار في الأدب الروسي» صار موضوعا للبحث الأدبي في فترة ما، بسبب طول المسافات الهائل، وأن الناس يعيشون في القطار أحيانا أياما طويلة متوالية، تسمح بتصوير مئات من الصور الدرامية. كذلك فإن قارئ الأدب الأمريكي لا يمكن إلا أن يجد أثر «السيارة» في الفن الأمريكي.

وأضرب المثل بقصة واحدة هامة في الأدب الأمريكي. هامة لأن مؤلفها هو «جان كيروان» أول أديب عبر مرحلة القلق في الروح الأمريكية في الستينات وما بعدها. ولأنها أهم أعماله (وقد مات شابا من فترة قصيرة) والرواية اسمها «على الطريق On the road». والاسم وحده يكفي للدلالة على الموضوع. وفي إيجاز شديد، فإن بطل القصة صعلوك

شاب حائر ضائع مضيق لمن حوله. ولكن روحه كأنها ليست في صدره بل في موتور السيارة التي يملكها أحياناً، ويستعيرها أحياناً، ويسرقها أحياناً أخرى. إنه يطوف بأمريكا من المحيط إلى المحيط. على متن سيارة. وليس موضوعنا هنا هو القصة، فقط أشير هنا إلى شعور القارئ بأن السيارة هي البطل الآخر في القصة. هي المرض والشفاء. هي المشكلة وهي الحل.

وأذكر أنني عندما فرغت من قراءة تلك الرواية، قفزت إلى ذهني مقارنة بين السيارة اليوم وبين الجواد بالنسبة لفارس الأمس.

إنها — كالجواد — أداة الحركة. ولكنها أكثر من ذلك. إنها علامة «القروسية» و«حافز» السرعة والانطلاق». ورمز الجسارة.. إلى جانب أنها رمز المكانة الاجتماعية..

وليتأمل القارئ أفلام «الكايوبى» الأمريكية ودور الجياد فيها. ثم ليتأمل أفلام المغامرة الأمريكية الحديثة، فسوف يجد السيارة تلعب نفس الدور: المطاردات المثيرة. والسرعة الجنونية والسيارة المندفعة أداة للجريمة. والسيارة الناعمة أداة للحب!

نصف الأفلام الأمريكية نجد أن السيارة فيها تلعب دوراً أساسياً بشكل أو بآخر..

ولعلني استطردت..

ولكننى أعود لأقول: إنها جولة حرة وراء جانب من جوانب البترول وتأثيره في حياة العالم.

فبغير وجود البترول- وبأسعار رخيصة (حتى الآن) لكانت الدنيا غير
الدنيا التي نعرفها اليوم.

ومثل هذا الجانب البسيط، يوجد ألف جانب آخر.

محاولات «صد»... الغزو الحضارى!

● صحيح هناك غزو حضارى تتعرض الامة العربية له. ولكن الحديث عن «صد» هذا الغزو أمر غير وارد وغير ممكن. وإنما المطلوب شيء آخر تماماً.

لست أدري بالضبط أى «غزو حضارى» تحدث عنه وزراء الثقافة العرب، فى أول اجتماع لهم فى الأردن، وتنادوا للحديث عنه، وللبحث - بالتأكيد! - فى وسائل التصدي له، ودرء مخاطره، عن الامة العربية...
... لست أدري بالضبط، لأن الصحف ووسائل الاعلام مع الاسف لم تعطنا صورة كاملة عنه.

وبالتالى، فمع الترحيب الشديد بأن نفكر لأول مرة فى ايجاد تنسيق ثقافى بين البلاد العربية، فإننى لا أريد أن أظلم وزراء الثقافة بأن أنسب إليهم، ربما ما لم يقولوه أو يفكروا فيه. ولكن لأن الأمر مهم جداً على أى حال، فهو يحتاج إلى هذه الوقفة، ويحتاج إلى كل الفكر العربى فى بحثه، وليس إلى وزراء الثقافة العرب وحدهم...

وأغلب الظن أنهم بحثوا موضوع «الغزو الحضارى» من زاويته الثقافية أو الفكرية فحسب. ولعل هذا هو اختصاصهم. ولكن «الغزو الحضارى» أوسع من ذلك بكثير جداً. وقبل أن نسميه «غزواً» ونسأثر بالمعنى المباشر للكلمة، ونشرع فوراً فى إقامة المتاريس من حولنا لصد

هذا « الغزو »، علينا أن نفهم بالضبط... حتى نعرف كيف يمكننا ليس « صده »، والصد وحده أمر سلبي، ولكن كيف يمكننا « مواجهته » و« التعامل معه ».

في البدء يجب أن نتذكر أن الغزو الحضارى - وفي صورة مخففة التأثير الحضارى أمر عرفت الإنسانية خلال عصورها جميعا. الجماعة الإنسانية المتقدمة تؤثر على الجماعات الأقل منها تقدما بصورة أو بأخرى. إن لم يكن في الفكر والثقافة ففي القانون وطرق الحكم. أو في عادات الملابس والمأكّل. أو في أى أسلوب من أساليب الحياة، بل وحتى عندما تنتصر أمة ما، بالقوة العسكرية، على أمة أعرق منها تقدما، تتأثر الأمة المنتصرة بالأمة المهزومة عسكريا، ولو في أشياء أخرى بالغة الأهمية.

لقد حطمت الامبراطورية الرومانية، مثلا، حضارة الاغريق، ولكن تأثر روما بحضارة الاغريق، كان عميقا لدرجة أن حضارة روما صارت إلى حد كبير امتدادا لحضارة اليونان القديمة.

ولو نظرنا إلى قصة نزول الاسلام ثم انتشاره السريع المذهل، لوجدنا ظاهرة مشابهة ومختلفة. فقد خرج أهل الجزيرة العربية غير مزودين بأى شيء إلا بإيمانهم، وطلبهم للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والمبادئ الإنسانية التى جاء بها الاسلام. وبهذا وحده هزموا وحطموا امبراطوريات عريقة، مثل إمبراطورية الفرس وامبراطورية بيزنطة، ثم لم تلبث الحضارة الاسلامية أن تأثرت بالكثير من أنماط حياة الذين هزمتهم. في الثياب. في الطعام. في أساليب تنظيم الدولة وإدارة الحكم. أثرت وتأثرت. وكان عصر قوتها الكبرى أيام الخليفة المأمون هو أعظم عصور الترجمة في الفلسفة والعلوم والآداب عن الحضارات الأخرى.

كانت قد صارت من القوة الحضارية ومن الثقة بنفسها بحيث لم تخش هذه الترجمة، بل أقبلت عليها في نهم شديد، لأنها كانت قادرة على استيعابها وتطورها، وليس الاستسلام لها أو الخضوع أمامها. فالحضارة الإسلامية لم تصبح امتدادا لحضارات فارس وبيزنطة كما حدث لروما مع اليونان القديمة. ولكنها كانت حضارة جديدة تماما، كانت هي صاحبة التأثير الأكبر، ومصدر «الغزو الحضارى»، وإن كانت قد تأثرت ودرست واستوعبت ما سبقها من حضارات.

ولكننا الآن - في هذا المجال - أمام وضع يختلف تماما عن كل ما سبقه في مجال الغزو الحضارى.

وضع جديد تماما، يختلف في أمرين أساسيين:

الأمر الأول: إن ساحة التأثير أو التعرض للغزو الحضارى هذه المرة هي العالم بأكمله. الكرة الأرضية كلها. بسبب ما نعرفه من تقدم وسائل الاتصال والانتقال. حتى صار العالم كما قال «مارشال ماكلوهان»: قرية كبيرة واحدة.

الأمر الثانى: أن الحضارة الأوروبية (وأمرىكا وروسيا على السواء استمرار لها)، وهى الحضارة الغازية، لا تقدم للعالم دينا سماويا، ولا رسالة روحية سامية، ولكنها تقدم حضارة وقيما مادية في الدرجة الأولى، مهما صاحبها من أفكار وفلسفات ونظم، ما زالت محل نزاع، لتنظيم هذه الحضارة المادية.

حين خرج المسلم من صحرائه إلى الدنيا الواسعة لم يكن يحمل إلا القرآن وسيفه!

الآن تهجم الحضارة الحديثة بأسلحتها، وأفكارها - حسب جهة

الغزو — وأنماط حياتها وطعامها وعلاقاتها. تهجم ببطائرات لا بد أن نركبها وبضائع لا بد أن نشترىها. وأفلام لا بد أن نراها على شاشات السيما والتلفزيون. تصل بهجومها حتى حجرة نوم الفرد في أبعد مكان، تطل باغراءاتها عليه من شاشة التلفزيون الملون، فتؤثر فيه من حيث لا يشعر، في كل نواحي حياته، توحى له بما يأكل وما يشرب وما يحب، وما يكره، وترسم له طموحاته وتحدد له أحلامه التي يجب أن يسعى إليها، وتشرح علاقاته بزوجه وبناته وأولاده.

فالهجوم الحضارى المعاصر، هجوم ساحق ماحق، تهب رياحه من كل اتجاه، وتتسرب ذرات تراهيه من خلال أكثر النواقيذ والأبواب إغلاقا واحكاما. تحمله إلى أنحاء الدنيا الكتب والصحف والسفن والطائرات.. وتحمله أمواج الاثير، التي لا يمكن منعها ولا الحيلولة دون أن يلتقطها أى إنسان، في أى مكان، بجهاز «ترانزيستور» صغير، لا يتجاوز حجم الكف الواحدة.

وهناك من يتصورون أن «صد هذا الغزو الحضارى» ممكن. وهناك من ينادون بذلك، مكتفين في حديثهم هذا عادة بالعموميات، والعبارات الانشائية، دون أن يقولوا لنا: كيف؟

ولو نظرنا إلى الواقع، ولم ندفن رؤوسنا في الرمال، فإنا نجد أن «صد» هذا الغزو الحضارى، والاحتواء منه، مستحيل... لأنه كما قلت يدخل من ألف باب وياب، ويتسلل مع الريح، ويطير على أمواج الاثير...

لقد «احتمت» دولة اليمن، مثلا، في فترة من الفترات من هذه الحضارة بالعزلة الكاملة. ويرى المؤرخ الفيلسوف الراحل ارنولد توينبى في أحد كتبه، أنه ناقش، قبل ثلاثين سنة، أحد حكام اليمن في ذلك

الوقت عن هذا الموقف، فقال له : إنه لا يريد من حضارة الغرب شيئاً يعدي بلاده... «لا الويسكى ولا البرلمانات»!.. فهو رأى الحضارة الحديثة بكل حسناتها وشروطها، ووجد أنه لابد من المنع الشامل... وكانت النتيجة ما نعرف.

واليوم... لا يوجد أحد في منجاة عن «الغزو الحضارى» إلا بعض قبائل العراق في وسط افريقيا، وقبائل «البابوا» في جزر جنوب شرق آسيا، وحتى هؤلاء، اكتشف العالم وجودهم. وثارت مناقشة منذ سنوات، طريفة وأليمة، بين من رأوا ضرورة تمدينهم بالتدريج، ومن رأوا الابقاء عليهم كما هم، نموذجاً حياً مستمراً لانسان العصور الأولى.. أى كالاحتفاظ بأنواع بعض الحيوانات وحمايتها من الانقراض!

بعد ذلك، لنأخذ نموذج أى بلد، كأننا ما كان، على الكرة الأرضية، يريد أن يحيا بشكل أو بآخر.

إنه بالتأكيد سوف يحتاج - مهما ضيق على نفسه - إلى أشياء أساسية من العالم الصناعى المتقدم. طائرات مدنية. سيارات. معدات لرصف طرقه. درجة من التصنيع والآلات. مطبعة وورق وجريدة.. مواء بناء.. أجهزة راديو تلتقط أنباء العالم كله.. إلى آخر السلسلة حسب درجة رخاء كل بلد...

ومع هذا كله سوف يرى الناس ويسمعون وسوف تقوم مدن. والمدن - حتى لو سكنها أهلها فقط - غير الريف والبادية. بمعنى إنها تفسر أنماط الحياة. الأسرة الكبيرة مثلاً تتحول إلى أسر صغيرة بحكم المساكن الحديثة الضيقة. عادات الأكل والملبس تتغير. المدارس تفتح. تعرض الأبناء لمؤثرات غير البيت، بل وغير المدرسة، يحدث أثره في

عقلياتهم وطريقة تفكيرهم ونوع تطلعاتهم. ولكن مع هذا كله يأتى الأجانب كخبراء لا مفر منهم، ولا مفر من تأثيرهم فيمن يحتكون بهم، والدولة ذاتها لا بد أن ترسل أبنائها إلى الخارج لكي يتعلموا إدارة هذه الأمور في شتى مناحى الحياة.. وبالتالي يتعرضون لكل الغبار الذرى المتساقط من جو الحضارات السائدة في البلاد التى يذهبون إليها. ويعودون إلى بلادهم مشبعين بدرجات متفاوتة بهذا الغبار، ناشرين له من حولهم.

هذا تصوير بسيط ومتواضع لحظ أقل البلاد شأنًا وأبعدها موقعًا، من وجوه التعرض للغزو الحضارى المعاصر. وقد ذكرت بعض الأولويات التى لا مفر منها. ولم أذكر ما يحدث فعلا من أضعاف أضعاف ذلك. فأين المفر من هذا الغزو؟ وكيف يمكن «صدّه»، بمعنى إحكام الأبواب والنوافذ دونه؟ وما بالنا إذا كنا نحن العرب بالذات لسنا شعبا بدائيا، ولا نقع على هامش الدنيا، بل إننا أمة تتوسط العالم جغرافيا واستراتيجيا، ووثيقة الصلة بمصالح عالمية كبرى، ولها أكثر من ماض وأكثر من تراث. ولها سابق عهد بانوار الحضارة والمعرفة والاحتكاك بالعالم والنصر والهزيمة والاحتكاك بالحضارات الأخرى وتحديدها؟

أين المفر؟

وهل يمكن - كما يظن البعض - أن الحضارة الغازية، يمكن «تعقيمها» عند الحدود، كالشخص الذى يجب أن يحمل شهادة تطعيم ضد الكوليرا، بحيث تدخل الحضارة دون «أمراضها»...؟

هناك طبعا أشياء يمكن إيقافها عند الحدود بهذا المعنى. ولكن هناك ما يعتبر جزءا لا يتجزأ منها بحيث لا يمكن معالجتها بأى مصل كان.

كأثر الانتقال إلى المدن الكبرى في تكوين العلاقات الأسرية، أو كأثر برامج الاذاعة الملتقطة عبر موجات الاثير.

إذن، فما العمل...؟

إن الانغلاق مستحيل، لأن معناه أن ندير ظهورنا للحياة، ونعزلها تماما. ثم إنه حتى لو أردناه فهو غير ممكن لأننا إذا اعتزلنا الحياة فإن ديناميكية الحياة المعاصرة لا تعزلنا وليست مستعدة لذلك. وأسباب عملها مع غزونا حضاريا كثيرة. فهي إما - عقائديا - تريد أن تنتشر بيننا مذاهبها، وإما - تجاريا - تريد أن تباع في أسواقنا بضائعها. وإما - اقتصادية - فهي تستورد أو تشتري أو تحصل على ما لدينا من خامات تريدها.

إذن، فما العمل...؟

يجب في البداية أن نستبعد من لغة القول عندنا عبارة «صد الغزو» الحضارى، لما توحى به من معنى سلبي، إنغلاقى، وغير ممكن تحقيقه. وإنما من الأنسب أن نستخدم في هذا العنوان «مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه».

وليس الامر طبعا تغيير جملة بجملة، أو عنوان بعنوان. وأهمية العنوان ليست إلا في أن يعطينا - نفسيا وذهنيا ووجدانيا - المؤشر الصحيح، إلى الاتجاه الصحيح.

مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه معناه:

* أن نفتح عقولنا تماما للتحديات الحضارية بكل صورها. يجب أن نقرأ كل شىء، ونسمع كل شىء، نناقش كل شىء. ويجب - في الجانب

المادى — أن نتعلم وندرس كل فروع المعرفة الحديثة، واستخداماتها التطبيقية العملية، ابتداء من السلاح العسكرى وانتهاء إلى السلع التى تسهل حياة المواطن فى العصر الحديث.

فى الجانب المادى، لا يكفى أن نكون «مشتريين» فقط. إنما يجب أن نتقن الفنون والعلوم المتصلة بجوانب الحضارة المادية، وهو الجانب الطاغى، حتى نطوعها لأرادتنا، ونشارك فى التحكم فيها. وإننا لنرى أمامنا كيف أقبلت إسرائيل مثلاً على جانب العلوم الالكترونية، علوم المستقبل بالذات. فركزت عليها حتى استطاعت أن تكون منتجة لأجهزة التحكم والتصويب المطلوبة الآن فى كل قطاع.. وبالتالي استطاعت أن تصنع الطائرة الحربية، والصواريخ الصغيرة، والزوارق البحرية، وبعض أنواع الطوربيد. وعلى نطاق أوسع، رأينا كيف عكفت اليابان على دراسة كل علوم الحضارة، ثم لم تلبث أن تفوقت، وسبقت.

وفى الجانب الفكرى، لا يجوز أن يكون هناك أمام مراكز البحث والجامعات والمعاهد جدار، ولا أن يكون هناك ممنوع.

وإذا اتفقنا على هذا المبدأ الأولى العام، فإنه بعد ذلك يظل لنا دائماً حق الانتقاء، فى كافة المجالات، فقد تضطر دولة إزاء ظروفها الاقتصادية أن تحظر استيراد سلع كمالية معينة مثلاً.. ولكن السلع هى نتاج العلم وليست العلم ذاته.. وحظر استيراد السلعة أو تحديده لا يعنى حظر استيراد العلم نفسه أو تحديده.

* ولكن إذا فتحنا صدورنا وفكرنا للحضارة الحديثة، فمن أين يأتى عنصر المقاومة لما هو ضار منها أو غير مناسب لنا، ومن أين تسأتى الحصانة؟

هذا يقودنا إلى الركن الثانى اللازم والضرورى من أركان «مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه».

هذا الركن الثانى قد تفتقده بلاد نامية غيرنا، ليس لها تراث، ولكن فى حالتنا بالذات، فإن لنا فى أرضنا جذورا ضاربة إلى أعماق بعيدة جدا، من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات والتقاليد.

إن عملية إحياء هذه الجذور، هى هذا الركن الثانى. هى سلاحنا الحقيقى فى مواجهة «تحديات الحضارة». السلاح الأعمق والأقوى من سلاح الانغلاق بجدران الواهية التى لا تمنع شيئا.

هذه الجذور الضاربة إلى أعماق بعيدة فى أرضنا، قد طال بها الجفاف. لم تشرق عليها الشمس ولم يرو عطشها الماء منذ أزمان وأزمان.

لا شىء يجعل هذا كله يورق من جديد، إلا تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد. فيتجدد شباب الشجرة الوارفة كلها. تسقط منها الأوراق الميتة التى علقت بجوهر تراثنا فى عصور الاضمحلال والظلام. وتزهر الغصون والأوراق الأصلية، المليئة بالحياة.

هذا الاحياء المستنير المتفتح الواعى، هو الذى سيجعل الحصانة من بعض أمراض الحضارة كامنا فى كل نفس، وجزءا من تكوين مجتمعنا الذهنى والنفسى. حصانة لا تقاس بها أبدا حصانة مصطنعة من الأبواب والنوافذ المغلقة، ودفن الرعوس فى السرمال، فى عصر تتسرب فيه ذرات الحضارة — كما قلنا — على موجات غير مرئية من الأثير. ولكى ننتقل من مجال التعميم إلى مجال التخصيص والتحديد.

خصوصا أن الحديث قد بدأ باجتماع وزراء الثقافة العرب، وفي رعاية المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلوم، فإن هناك مثلين محددين، أرى أنه من الضروري أن يرى كلاهما النور، وهما يعبران — كمجرد نماذج — عما أقصد إليه...

في مجال الاحاطة بكل عناصر المعرفة الحديثة، ماذا نجد؟

نجد أنه ليس لدينا إلا دور للنشر، قامت أساسا كعمل تجارى، وهذا حقها. فهي تختار الكتب التى تتوقع رواجها. والتى لا تكلفها كثيرا، فتقبل عليها وترجمها وتطرحها فى الأسواق. وهناك حكومات تنافس دور النشر الفردية فى هذا الأسلوب.

ولكن المطلوب فى مجال الترجمة، أمر آخر تماما، لو يتم فإنه لن يقل قيمة عن فتح عشر جامعات ضخمة بأكملها.

إن الشاب فى إنجلترا — مثلا — يشب فيجد كل أمهات الكتب، كتب النصوص الأساسية، موجودة ميسرة له فى لغته حتى ولو كانت مكتوبة فى أصلها بالألمانية أو الفرنسية أو الروسية... ولغات أخرى كثيرة، إنه سيجد فكتور هيجو بالانجليزية مثل شكسبير تماما، وفلسفة شوبنهاور وكانت الألمانية بالانجليزية، مثل فرانسيس بيكون. ودستوىفسكى الروسى فى لغة شارلز ديكنز. ولا أستطيع أن أضرب أمثلة بكتب سائر العلوم. المهم أنه لا يجد أن اللغة عقبة فى طريق توغله فى العلم الذى يختار وفى سن مبكرة. هذا يجده الطالب والباحث الأمريكى والانجليزى والفرنسى والألمانى والروسى. ومنذ سنوات كانت اليابان قد أرسلت شابا إلى القاهرة يقضى سنوات لتعلم اللغة العربية بهدف أساسى هو: ترجمة «ابن خلدون» إلى اللغة اليابانية.

في بلادنا العربية لا نجد هذا. لا يحيط بهذا إلا أحد اثنين. أما ذلك الذي تفوق وأرسلته بلده إلى بعثة في الخارج، وهو نوع نادر في عدده. أو ذلك الشديد الإصرار، الذي يقضى سنوات لاتقان لغة أجنبية واحدة ليعرف كنوز وفكرها، عن طريق مباشر.

وقد ناديت كثيرا بأن هناك ألف كتاب أساسي - مثلا - في شتى العلوم والفنون، يجب أن يجدها الشاب العربي في لغته. وترجمة هذه الكتب تكلف كثيرا. نعم. ولكنها حتى على المستوى التجارى ستكسب. لأنها هي الكتب التى ستقرأها الأجيال مئات السنين. وهى مع ذلك تكلف أقل من مبانى كلية جامعية واحدة! ولكن أثرها - كما قلت - يفوق إقامة عشر جامعات جديدة!

ولو فعلت وزارات الثقافة أو التربية العربية - مجتمعة - هذا الجهد، لحققت قفزة هائلة في استيعاب شبابنا لجوهر الحضارة، في سن مبكرة، سن التشجيع وما قبل الإبداع وقبل بلوغهم سن التعب والعقم.

انتقاء الترجمة حاليا - مما يفرق الأسواق - يتم إما لأغراض تجارية أو سياسية، أو غيرها. لأن هذا الجهد المطلوب، نقل الحضارة الحديثة إلى اللغة العربية مرة واحدة وإلى الأبد، يحتاج إلى جهد آخر، ودافع آخر وأسلوب آخر في الانتقاء...

وبالمقابل، في باب إحياء التراث...

مرة أخرى، نجد أحيانا بعض جهود مشكورة. ولكننا نجد على الأغلب أن نشر التراث أخذ طابع التجارة. أو طابع عدم التمييز. فكل كتاب مرت عليه السنون وعلاه التراب، فهو تراث، يعاد تحقيقه ونشره على الناس.

في حين أن هذه عملية يجب أن تتم من خلال انتقاء شديد، يفرق بين

السمين والغث، بين فكر عصور النهضة وبين فكر عصور التخلف، فتاوى عهود العدل وفتاوى عهود الزلفى والملق والانتفاع، قالى جانب الواجب الاصلى وهو أن نفهم ديننا وتراثنا على وجهه الصحيح ،فإننا نريده غذاء نفسيا وعقليا قويا، يواجه به شبابنا رياح «الغزو الحضارى» يستوعبونها ويستخدمونها، فلا تجرفهم ولا تستخدمهم...

يبقى الركن الثالث الذى لا يتجزأ فى ضرورته، عن الركنين السابقين معا.. وهو، ضرورة البحث عن إجابة ما، لسؤال هام، وهو : أى صيغة حضارية نريد الوصول إليها، ونراها مناسبة لنا، ونساهم بها فى الحضارة الحديثة الانسانية بوجه عام؟...

سؤال ليس من السهل الاجابة عليه، وبالتالي لا نتوقع أن يجيب عليه اجتماع وزراء، أو مؤتمر مفكرين، ولكن الاجابة قد تأتى إذا طرحنا أولا السؤال على الذهن العربى العام، وإذا نجحنا فى أن نجعله يشغل بال كل القيادات فى بلادنا.. بالمعنى الواسع للقيادات.. أى القيادات السياسية والفكرية والعلمية والفنية.

وهو سؤال حاولنا أن نطرحه فى مجلة «العربى» فى أعداد كثيرة.. من زوايا مختلفة.. اقتصادية أو اجتماعية.. ولا بد أن نمضى فى طرحه، والالاحاح عليه، وفتح باب المناقشة فيه...

فمن ناحية، لا شك أن للحضارة الحديثة أمراضها، التى ظهرت فى المجتمعات المتقدمة والتى يبحث فيها أصحابها أنفسهم ويبحثون لها عن علاج. فقيام المدن الضخمة المزدحمة، خلق ظروف الحياة غير الصحية، ونشر أنواعا جديدة من العنف والجريمة، وقيام الصناعات بلا تخطيط جنى على البيئة ولوثها.. وترك وسائل الاعلام لعنصر الريح

أفسح المجال للاباحية ولأشكال عديدة من الانحلال. فمن واجبتنا إذن ألا نبدأ كما بدأوا وننتهي تماما إلى ما انتهوا إليه. إنما علينا أن نعيد من الدروس.

ومن ناحية أخرى. فإن عددا كبيرا من العلماء يطرحون سؤالاً هاماً: هل التنمية المادية كما حدثت في الغرب هي المعنى الوحيد «للتقدم». وهل على دول العالم الثالث أن تسلك نفس الطريق، وتخضع نفسها لنفس الضرورات، حتى تصبح متقدمة، أم أن هناك ترجمات أخرى لمعنى التقدم، وأنماطاً أخرى للحياة؟

مناقشة لن أتوسع فيها هنا. فالمقصود فقط مجرد الإشارة إليها، في مجال الحديث عن كيفية «مواجهة التحديات الحضارية» بأكثر من سلبية تعبير «صد الغزو الحضارى» الذى يوحى بسياسة انغلاق، وبنفسية الحياة في مدينة محاصرة، في حماية أسوار عالية، وهى حتى بهذه السلبية لن تقوى على صد أى غزو حضارى...

وبالمناسبة، منذ سنوات بعيدة، كنت في رحلة إلى اليابان.

والتقيت هناك بشاب صحفى فلسطينى اسمه الأستاذ عمر طه. كانت قد أرسلته جريدة «الأنوار» اللبنانية إلى طوكيو، في مهمة صحفية. ولكن الحياة هناك راقته له. وقال لى إنه قرر البقاء في اليابان. وتزوج فتاة يابانية. وكان لى خلال إقامتى نعم الرفيق، بحكم معرفته - المبدئية في ذلك الوقت - بالبلد، ولغتها، وعاداتها...

ومرت سنوات طويلة...

ومنذ بضعة شهور تلقيت منه رسالة من اليابان، مكتوبة على آلة كاتبة

باللغة العربية، ومعها كتاب إعلامى بالغ الاناقة عن اليابان، مطبوع
باللغة العربية أيضا...

وفى الرسالة يذكرنى بلقائنا القديم فى طوكيو، ثم يقول: «..لقد
أمضيت حتى الآن عشرين سنة فى اليابان بالتمام والكمال. وأعمل حاليا
رئيسا لتحرير دار نشر وطباعة باللغة العربية هى الوحيدة فى اليابان.
والكتاب المرفق واحد من مطبوعاتنا. وقد تستغرب إذا ما علمت أن
منضدى الحروف لدينا لا يعرفون شيئا عن لغتنا. ومع ذلك ليس هناك ما
يعتبر مستحيلا فى دنيا العلم والطباعة بالعقل الالكترونى . فقد حولنا
الساعة إلى أحرف عربية، وكذلك فعلنا بالنسبة للحاسبة الصغيرة
والكبيرة. وأخيرا وليس آخرا بالمبرقة الأولى باللغة العربية.. وإذا أتيت
فسوف تعجبك أمور أهم وأكثر مدعاة للدراسة والتقييم. بل إن
السكرتيرة التى تطبع هذه الرسالة لا تعرف لغتنا العربية! ثم إن الآلة
الكاتبة العربية هذه من صنع يابانى، فتأمل! والله الموفق، مع أطيب
التمنيات ومزيد من النجاح»

مطابع باللغة العربية يعمل عليها عمال يابانيون لا يعرفون اللغة؟
آلة كاتبة عربية تعمل عليها سكرتيرة يابانية لا تعرف اللغة. وهذا
وذاك فى طباعة أنيقة ليس فيها غلطة واحدة؟

أولا: كيف يكون ذلك؟! إننى أعترف أن معلوماتى - أو فسلاقل
خيالى - العلمى المحدود لم يفهم من هذه السطور شيئا. وقد وجدت
أن خيالى هذا يستوعب هبوط مركبة فضائية على المريخ ولا يستوعب
قيام عمال يابانيين بطباعة كتب بلغة عربية لا يعرفونها! وإننى لأتمنى
على الأستاذ عمر طه أن يرسل لى وللقرءاء مزيدا من الشرح للعملية. أو

فليفعل ذلك أحد مهندسي الطباعة عندنا الذين أعتقد أن فيهم بالتاكيد
من يعرف شيئا عن ذلك !

ثانيا: ماذا أبقى العلم الحديث للإنسان؟

إذا كانت مراكز العلم والتكنولوجيا المتقدمة في العالم، قد سيطرت
- وتزداد سيطرة - على سكان هذا العالم في ثيابهم وطعامهم،
والاذاعات التي يسمعون، والأفلام التي يرون، وسيطرت على ما يركبونه
من سيارات أو طائرات، وما يستخدمونه من أجهزة اتصال، أو سلاح،
وحتى إنتاج المواد الغذائية. في أي أرض، وفي أي طقس... فقد كان
باقيا لكل شعب من خصوصياته شيء أساسي على الأقل، هو: لغته
القومية !

فالكتاب العربي مثلا لابد أن يطبع في بلد عربي، أو إذا طبع في بلد
أجنبي فبأيدي عربية، أو أيد درس أصحابها اللغة العربية. المهم، أن
أصحاب أي لغة تظل لهم ميزة على غيرهم ولو في هذا المجال.

ولكن، ما هو ذا العلم يقتحم حتى هذه الخصوصية ويطوعها له. أي
صار ممكنا أن نجد بلدا أجنبيا يتفوق علينا ويسبقنا في طباعة مؤلفاتنا،
وأفكارنا، وتراثنا، ويصدرها إلينا، دون أن يكون في حاجة إلى أن يعرف
شيئا عن لغتنا. !

أليس هذا وحده كافيا لأن نشعرنا «بصدمة حضارية» عنيفة؟ أليس
كافيا لأن نشعرنا بالعصر الذي نعيش فيه؟ ويتفاهة ما نضيع فيه وقتنا،
ومواهبنا، وأموالنا؟

دفاع عن بعض القيم القديمة في عالم يسوده العنف والخوف !

● أحيانا يحتاج الأمر إلى الدفاع عن بعض القيم القديمة.

وربما كان اسم «القيم القديمة» اسما غير دقيق. وربما كان من الأصح أن نسميها «القيم الثابتة».

ذلك أن هناك قيما اجتماعية يطويها النسيان، أو يقهرها التطور، بعد أن تكون الظروف التي أنشأتها قد تغيرت، وإلا ما كان هناك تغير ولا تطور ولا تقدم...

فالعصبية للقبيلة مثلا قيمة كانت تعد فضيلة وقت أن كانت المجتمعات وحدتها الكبرى هي القبيلة. ولأن هذه العصبية للقبيلة كانت ضرورية لحفظ حياة القبيلة. ولكن حين يزول هذا الوضع تصبح هذه العصبية عيبا في المجتمع وعقبة في طريق نموه، حين تحل الدول والمدن الكبيرة وأنواع العمل الجديدة محل ما كان سائدا من قبل.

والتباهي بالأصل وحفظ الأنساب أيضا، كان فضيلة، وكان ضرورة معا، قبل أن تحل قيمة العمل محل قيمة الأصل. وقبل أن تحل السجلات والأضابير محل حفظ الأنساب في الذاكرة وبالتواتر.

والذين يدافعون عن كل قيمة اجتماعية قديمة، ولمجرد أنها قديمة، لمجرد أن هذا ما وجدنا آباءنا عليه، يتخذون موقفا متزمنا غير منطقي وغير قابل حتى للتطبيق، لأن الحياة دائما في تغير وتطور وتجديد.

كذلك فإن الذين يلتقطون كل بدعة جديدة، ويتعلقون بساذيالها، أو يركبون موجتها، لمجرد أن يقال عنهم إنهم عصريون، هم بدورهم يتخذون موقفا خاطئا وغير منطقي. ذلك أن الحياة بكل تعقيداتها والخضم الهائل الذي لا قرار ولا ثبات له، كثيرا ما تقذف إلى سطحها بالزبد الذي لا يلبث أن يذهب جفاء. وكثيرا ما تكون بعض الفلسفات، أو العادات، أو القيم التي تشيع في مرحلة ما، مجرد مرض من أمراض التطور. لأن كل حضارة لها أمراضها، وكل تطور له مشاكله.

الموقف السليم هنا ليس رفض التطور، انقواء لمرض أو داء قد يصاحبه... وليس في الاحتفاء بالمرض، وعدم إدراك أنه عرض.

إنما الموقف السليم هو أن نمضي في ركب التطور، ونقبل مخاطره، ولكن بعقول واضحة، تعامل التطور على أنه تطور، وتبين الداء، وتعامله على أنه مرض يجب مقاومته، أو التقليل من مخاطره قدر الامكان.

فتحرر المرأة مثلا، وتعليمها، ونزولها ساحة العمل إذا شامت.. مسألة حسمها التطور، وكان لابد أن ينتج عن هذا اهتزازات اجتماعية معينة، ومشاكل تأتي معها، ولكن الحل ليس في النكوص إلى الوراء. ولا هو في الاستسلام للجوانب السلبية. إنما هو في محاولة القبض على زمام التطور، بحيث يكون إيجابيا وصحيا قدر الامكان.

أسوق هذا الكلام متأثرا برحلات سريعة قمت بها إلى عدد من البلدان والدول الصناعية والمتقدمة، وعائدا بالذاكرة إلى رحلات سابقة قديمة إلى هذه البلاد ذاتها، أو مثلها...

فمنذ سنة ١٩٦٠ تقريبا، تعرضت الدول المتقدمة لهجمات عنيفة من جهات شتى وعلى مستويات مختلفة، حتى وصلت إلى الحالة التي نراها

سائدة الآن بشكل مرعب... من انتشار العنف، وطفغان الجريمة، ومن إباحية تكاد لا تعرف حدودا. ويراهما بعض الناس جزءا من التقدم والحضارة، لمجرد وجودها في عواصم العالم الكبرى، غير مدركين أن هذه أعراض لأمراض، وأنها فترات عرفتتها حضارات كثيرة. بعضها قضت عليه هذه الأمراض، وبعضها تمكن من مقاومتها والتغلب عليها وتجاوزها.

وضرورة هذا الحديث، هي أننا سائرون بشكل أو بآخر للأخذ بكثير من أشكال التطور التي سبقتنا إليها مجتمعات أخرى. وأن بعض شبابنا يقبل على هذه الأعراض على أنها عصرية لا على أنها أمراض.

في أمريكا مثلا تزايدت جرائم العنف حتى كادت المدن الكبرى تخلو من سكانها، فقد هرب السكان الأغنياء أو القادرون بوجه عام من قلب المدن الكبرى، إلى ضواحيها البعيدة. وأدى هذا إلى ثورة سكانية. فبعد أن كانت المدينة الكبيرة هي مطمح الساكن، أو رمز القادر، صارت سكنى الضواحي هي هذا الرمز، وحين نقرأ عن إفلاس أقوى مدينة في العالم مثل نيويورك. فالسبب هو أن أهم دافعى الضرائب هجروها.

وكانت معظم التحليلات تقول: إن ظاهرة العنف هي ظاهرة أمريكية بحتة. فقد ولدت أمريكا بالعنف على أساس إفناء شعب آخر هو الهنود الحمر، طبقا لقانون الغابة الأول وهو أن البقاء للأقوى، ثم استعباد شعب ثان وهو الزنوج عبر قرون طويلة. وأن حياتها الاقتصادية التي نشأت بلا قيود كان حظ الانسان فيها يتحدد بسرعة إطلاق مسدسه. واتخذت المنافسة التجارية والاقتصادية نفس الطبيعة. وكما تضخمتم المؤسسات هناك تضخمتم الجريمة، فظهر ما صار يسمى بالجريمة

المنظمة. ابتداء من عصابات المافيا الشهيرة. إلى حلقات الاجرام التي تشترك فيها أحيانا أسماء كبيرة.

ثم إن هذا العنف انتقل إلى ميدان السياسة بشكل مخيف. ففي حياة جيل واحد قتل رئيس أمريكي هو جون كنيدي. وقتل مرشح للرئاسة هو روبرت كنيدي. وأصيب مرشح آخر للرئاسة بالشلل بسبب إطلاق النار عليه هو جون ولاس. وقتل زعيم حركة الزنوج وهو مارتين لوتر كنج. وأخرج رئيس جمهورية هو ريتشارد نيكسون لأنه حاول التستر على جريمة. ودخل السجن وزير العدل في عهده لاشتراكه في نفس الجريمة مع أبرز رجال الرئيس في البيت الأبيض.

وقيل في تفسير هذه المرحلة الدامية في حياة أمريكا: إن سببها هو حرب فيتنام. حين تخطى منطق التدمير الأمريكي للبلد الصغير الفقير، منطق الحرب المألوف بين أكفاء، ولأسباب واضحة، تبرر للانسان أن يموت في سبيل بلده، بينما كان الأمريكي العادي لا يجد مبررا لأن يموت في غابات فيتنام، ولا يجد كذلك مبررا لاستخدام أقوى أداة حربية في العالم لتدمير شعب فقير، بسيط، يلبس أبسط الثياب ويأكل أقل الطعام ولكن له إرادة من فولاذ.

ولكن الكثير جدا من هذه المظاهر انتقل إلى أوروبا.. سواء في مجالات العنف العادي أو العنف السياسي والاجتماعي...

فقد رأينا في فرنسا مثلا انفجارا عنيفا هائلا سنة ١٩٦٨، في أوج مجد ديغول، وياتت البلاد على شفا حرب أهلية لبضعة أيام.

ثم بدأت فرنسا تعرف جرائم القتل في الشوارع للشخصيات السياسية. ثم تتكشف الأمور عن فضائح مالية في الدوائر العليا...

وعرفت فرنسا الجريمة المنظمة. التي تتصدى بأرقى وسائل العلم
لعمليات كبيرة، كسرقة بنوك بأكملها.

كذلك رأينا في ألمانيا النشاط العنيف لجماعة «بادر - ماينهوف».
وظهور حركات فوضوية أكثر مما كان يبدو على السطح، سلاحها الخطف
والسلاح وإلقاء القنابل.

وإيطاليا صارت من أهم مسارح العنف في العالم. جرائم القتل
الغامضة. خطف الأغنياء طلباً للقدية الضخمة. التنسف والاضراب
والمواجهات الحادة مع السلطة.

وإلقاء القنابل في شوارع لندن صار أمراً عادياً.

والأنواع الفردية الشاذة من العنف صارت تشغل الصحف كل يوم.
فالرجل الذي سمى نفسه «ابن سام». وقتل ثمانى فتيات في بضعة شهور
بنفس الطريقة، حكم على مدينة نيويورك كلها بالرعب شهوراً طويلة.

هذه القضية، قضية انتشار العنف والجريمة في شتى البيئات
والمستويات، وعصابات الشباب التي تستخدم العنف ابتداءً من معارك
الشوارع ضد بعضها البعض إلى هجماتها بالقنابل أو الرصاص، وكل
مظاهر إفساد الحياة العامة على أصحابها.. في الحداث، أو دور
السينما... هذه القضية بدأت تحدث رد فعل معاكس، وتبحث عن
تفسيرات شتى..

مثلاً، اتهم ناس كثيرون رجلاً واحداً هو «دكتور سبوك». ودكتور
سبوك طبيب أطفال أمريكي عجوز، أصدر في شبابه كتاباً عن طرق
العناية بالطفل وتنشئته. وترجم الكتاب إلى أكثر من ثلاثين لغة. وقيل
إنه خلال العشرين سنة الماضية كان أكثر الكتب توزيعاً في العالم كله،

بعد الكتب المقدسة. وكان كتابا ثوريا، اعتبرته كل أم دليلا لها. وفلسفته العامة تقوم على حرية الطفل وعدم استخدام الحدود والقيود معه، حتى سن الشباب..

وقيل إن هذا الجيل الساخط الثائر المدمر هو تربية دكتور سبوك، وطالب المربون والأهل بالعودة إلى الأسلوب القديم من ضرورة الحزم مع الأبناء والبنات في سن الطفولة والصبا. والعودة إلى عقوبة الضرب وغيرها في المدارس. حتى ينشأ الشاب وهو يعرف أن هناك المقبول وغير المقبول. والجائز وغير الجائز.

وقد تنصل دكتور سبوك من هذه التهمة. ويرغم أنه في شيخوخته ظل ثائرا، وقاد مظاهرات ضد حرب فيتنام في أمريكا. وحوكم أمام القضاء وحكم عليه وهو على وشك السبعين، إلا أنه تبرأ من الجيل الذي قيل إنه رباه. وعدل عن بعض آرائه وتمسك بغيرها.

وقد اتخذت من دكتور سبوك رمزا على الجانب التريوى للقضية.

وشيء من هذا فعله الفيلسوف الألماني الأصل، الأمريكي الجنسية حاليا، هريبرت ماركوز، حين وجد أن اضطرابات الشباب وعنفها غير المفهوم، تنسب إلى كتبه وتعاليمه.

ولأن فرنسا «الديكارتية» هي بلد الفلسفة والتحليل... فقد شكل رئيسها فاليري جيسكار ديستان لجنة واسعة، تضم كل الاتجاهات والتخصصات لدراسة ظاهرة العنف.

وقضت اللجنة ستة عشر شهرا تدرس وتبحث، ثم خرجت بتقرير من سبعمئة صفحة.

على أن أهم ما في التقرير أنه أرجع انتشار ظاهرة العنف، حتى في العلاقات الانسانية، إلى التوتر النفسى الذى يخلقه أمران:

الأول: هو تضخم حجم المدن الكبيرة وازدحامها

والثانى: هو المجتمع الاستهلاكى الفاحش الذى يتزايد كل يوم...

وفي إنجلترا، تلتقى معظم التحليلات عند نقطة أساسية، هى: أن الطبقة المتوسطة في المجتمع، التى هى قوام الاستقرار والقيم الثابتة فيه، قد استسلمت لهجمات فئات أخرى اجتماعية أكثر عددا، وأكثر صخباً، فكان ما نراه الآن من عنف، ومن إباحية وانحلال...

ورغم أن هذه الأسباب الثلاثة، ليست فى رأينا هى كل شىء، إلا أنها هامة وصحيحة، ولا بد من الوقوف عندها قليلاً...

مأساة المدن الكبيرة:

إن تعريف المدينة منذ القدم هو أنها المكان الذى يسكنه الناس، لأن مكان كسب رزقهم يقع فيه..

وعندما كانت الزراعة هى الغالبة، كانت الناس تسكن القرى الصغيرة المتباعدة، حيث يعرف الناس بعضهم البعض، الأمر الذى يعتبر فى حد ذاته وازعاً كافياً للفرد، لما يلحق باسمه واسم أسرته من جراء أى تصرف غير مقبول. وكانت المدن للتجارة، ولمقر الحكم والسلطة.

ولكن مع ظهور الصناعة، وتضخمها، وتجمع مئات الآلاف فى مراكز الإنتاج، بدأ ظهور المدن الكبيرة وتفاقم عدد السكان، فصار عدد سكان طوكيو مثلاً ١٢ مليوناً، وفى حدود الثمانية ملايين ساكن توجد لندن

وباريس والقاهرة. وفوق تكس السلطة، وتضخم البيروقراطية، ويريق حياة المدن، صارت ظاهرة الزحف على المدن الكبرى ظاهرة عالمية.

وفي المدن الكبرى لابد أن يوجد من الناس أنواع وأخلاق. ولابد أن يجر التزاحم على الرزق إلى التدافع بالمناكب. ولابد من تجاور الغنى والفقر تجاورا مباشرا ويتجاوز العلم والجهل بنفس الطريقة. ولابد أن تلهث الخدمات وراء تزايد البشر فلا تكفى حاجة الجميع. وتضيع هوية الفرد في هذه الغابة البشرية.

ولذلك اقترحت اللجنة الفرنسية مثلا أنه يجب أن يراعى في المستقبل أن لا يزيد عدد سكان أى مدينة عن مائتى ألف نسمة. وهو رقم اقترحه قبل ذلك كثير من علماء الاجتماع أو التخطيط. صحيح أن مثل هذا الوضع ليس الأكثر وفرا من الناحية الاقتصادية وتكاليف الخدمات وغيرها. ولكن القائلين بهذا الرأي يرون أن الثمن الاقتصادي لا يقاسن أبدا بالحياة الصحية والنفسية والسعيدة للإنسان. وأنه حتى العائد الاقتصادي بالنسبة للمجتمع كله، أكبر على المدى البعيد، لو أخذ التخطيط للمستقبل بهذا الاتجاه.

ورقم ٢٠٠,٠٠٠ يمكن أن يرتفع إلى نصف مليون، بل إلى مليون. ولكن المؤكد أن أى زيادة فوق ذلك سوف تجلب معها كل شرور المدن الكبيرة، أو الحياة الحديثة، سمها كيفما تشاء.

المجتمع الاستهلاكي:

وجد الانسان ليسعد. وجزء من سعادته ونجاحه أن يستهلك. ولكن استهلاك الانسان ظل آلاف السنين متشابها. في الطعام. في الثياب. في أساليب الترفيه. فالانسان حيوان مستهلك، ومختار ومجدد لما يستهلك.

ولكن ما يسمى الآن بالمجتمع الاستهلاكي أو بمجتمع الوفرة، يقصد به شيء آخر تماما. إنه تلك الأدوات الانتاجية الضخمة، التي تمطر الفرد كل يوم بآلاف السلع الجديدة. إنها الفرق بين ما يجده المرء في دكان البقال الصغير، وما يجده في «السوبر ماركت» من آلاف الأصناف والأنواع، بكميات هائلة، وبطريقة جذابة في العرض تصعب مقاومتها.

وإذا ذكر «السوبر ماركت» في مجال الاستهلاك، فلأنه المكان الذي تشتري منه ما تريد، وما لا تريد أيضا.. بفعل تأثير مشهد العرض، والتكديس، والاقبال والوفرة.

والمجتمع الاستهلاكي يقوم على هذه العناصر كلها. إنه مجتمع الشراء والاستغناء. كل سلعة تحل محلها بعد قليل سلعة أحدث، ترغبك على إلقاء ما لديك وشراء هذا الجديد. ونظرة إلى التلفزيون في المجتمعات الاستهلاكية تؤكد هذا المعنى، فالشاشة بكل إغراءات فنون العرض، تقترح عليك عشرات الأصناف من كل نوع. من السيارة إلى معجون الأسنان.

والقاعدة المعروفة هي أن ظهور سلعة جديدة يشعرك بنقص جديد. لم يكن في بلد ما، مثلا، تلفزيون، ثم ظهر التلفزيون، وصار طبعاً عند بعض الناس، وبالتالي فالآخرون يشعرون بحاجة جديدة، بأن شيئاً جديداً ينقصهم وهو التلفزيون. ثم يظهر التلفزيون الملون، فيتكرر الشعور بحاجة جديدة، إلى إلقاء الجهاز القديم وشراء جهاز جديد.

هكذا يلهث الإنسان دائماً لملاحقة مجتمع قائم على هذا المنطق. وهذا يجعل الفرد أو رب الأسرة دائماً تحت ضغط مستمر، عليه أن يعمل أكثر. أو يكسب أكثر، أو يفعل أى شيء أكثر، لكيلا تخذله موارده في هذا السباق الرهيب المحيط به.

ثم إن وجوه الاستهلاك هذه صارت بحكم وجود وسائل الاعلام الحديثة، مقروءة ومرئية ومتحركة أمام الجميع. ووجوه تمتع القادرين معروضة على الناس جميعا..

وجاء هذا كله في عصر انتشار الديمقراطية الهائل. ولا أقصد هنا الديمقراطية كنظام سياسى بتفسيراته المختلفة. ولكن أقصدها بمعنى انتشار الشعور العام لدى كل الناس بالمساواة، وبحقهم في نيل قسط معقول مما تقدمه الحياة. وقد أصبحت الحياة تقدم إغراءات لا آخر لها.

وتولد هذه الأمور كلها ضغوطا على الشباب أكثر من سواهم. وليس الكل سواء في الموارد. ولكن الكل سواء في التطلع. فهو إما أن يحاول أن يحصل على ما يراه بطريق منحرف. وإما أن يعادى هذا الذى يراه لأنه غير قادر على الاستمتاع به.

من هنا جاز القول حقا أن المجتمع الاستهلاكى سبب من أسباب انتشار العنف في الدرجة الأولى لأنه خلق قيما أخرى صار الفرد فيها يقاس مقداره بما يملك من سيارة أو يرتدى من ثياب أو يجارى من موضات وتقاليع. وفي الدرجة الثانية، لأنه حيث يتكدر هذا كله في المدينة الكبيرة، ويتكدر الناس في نفس المدينة بنجاحهم وفشلهم وشرائهم أو تعجلهم أو نقمتهم.

البعض يرتكب العنف ليكدر على هؤلاء الآخرين صفو حياتهم. والبعض يرتكب الجريمة ليحصل على أى مال سريع يحصل بواسطته على ما يريد، ويطفئ به بعض شهوات نفسه التى يثيرها كل شيء، والبعض يفلسف الأمر، فتتكون الجماعات السرية التى لا ترى سبيلا لها وسط هذا الخضم الهائل إلا العنف.

قيم الطبقة المتوسطة :

وقد لا يقبل القراء منى أن أقول لهم إننى شخصيا أعترف بوجود شيء اسمه قيم الطبقة المتوسطة. وأنها مهما كانت عيوبها فهي بسوجه عام العمود الفقري لكل مجتمع مستقر مهما كان نظامه أو كانت ظروفه.

فالشرائح العليا من المجتمع في البلاد التي نتحدث عنها أو غيرها، تجد من الترف والراحة والرفاهية ما يفكك تحفظها وما يعطيها إحساسا باللامبالاة، تضعف معه كثير من القيم.

والشرائح المسحوقة كثيرا ما تصل إلى نفس النتيجة من باب آخر تماما. باب اليأس من تحسن حالتها. وبالتالي عدم الاستعداد نفسيا لبذل الجهد أو وضع القيد أو رسم الهدف الذي يستحق العناء.

أما الطبقة المتوسطة. تلك الطبقة الغامضة المبهمة. التي فيها يحتدم الطموح وخوف الفشل. ورغبة التقدم وعدم التراجع. والتي بالتالي تتغير يوميا بمن يصعدون منها ويطلقون فوقها ومن يسقطون من شباكها ويتخلفون عنها.

هذه الطبقة عادة هي أكثر الفئات رغبة في التعلم. وفي العمل. وفي الاحتفاظ بحسن السمعة. حتى ولو التظاهر بالسلوك الحسن...

هذه القيم، هوجمت بالفعل هجوما شديدا ساحقا في العشرين سنة الماضية من شتى الاتجاهات.

بدأت دعواتها صحيحة ولكن كثيرا منها انتهى إلى انحراف، تحت تأثير الشعور العام برغبة التغيير في العالم... ونتيجة للمجتمع الاستهلاكي الذي يتحول كل شيء بين يديه إلى تجارة.

السينما والتلفزيون تحولت من أعمال فن وأدب إلى تجارة إرضاء، ظلت تنحدر حتى وصلت أحيانا إلى أفلام الفسق الكامل.

حرية المرأة ومساواتها بالرجل انتهت إلى مجلات العري وديكاكين الجنس.

الجريمة ذاتها صارت تقدم في صورة جذابة في شتى وسائل الاعلام طلبا للجمهور الأكبر...

وأطلق أبناء الطبقة المتوسطة ذاتهم شعورهم فصفقوا لهم. وناموا في الشوارع فصفقوا لهم. وهربوا من بيوتهم فصفقوا لهم. وظهروا على خشبة المسرح وشاشة السينما عراة تماما فصفقوا لهم. ومن وجد منهم أن هذا العالم صار شاذًا أو مجنونًا، احترقوا العنف السياسي القردى، أولئك الذين لا صبر لهم على العمل المنظم الطويل الآن لتغيير المجتمع تغييرا حقيقيا.

ووجد هذا كله من الكتاب والفنيين من اعتبروا المرض تطورا وعالما جديدا. ولم يكونوا في الواقع إلا تجارا يكسبون عن طريق الريح السريع، بأسلوب هو جريمة وإن كان لا يعد هناك جريمة.

فلست أصدق — مثلا — أن كاتبنا وناقدا إنجليزيا جادا ومتميزا مثل «كينيث تينان»، يقدم وينتج مسرحية «أوه كلكتا!» التي وقف فيها كل الممثلين عراة لأول مرة، ولا أصدق دوافعه الفكرية والفنية التي ساقها لبدء هذه الموجة التي جلبت له الملايين. إنها دوافع تجارية لا فكرية. جاءت في طقسها العام المناسب.

على أننا برغم كل شيء، لا نستطيع أن نضع الشباب وحده في قفص

الاتهام، بل إن الشباب بحكم التطور لابد أن يكون أكثر ذكاء وكفاءة وقدرة من الجيل الذى سبقه.

ولكن أى عالم صنعه له الجيل الذى سبقه فى تلك البلاد التى نتحدث عنها؟

ترك له عالما من القيم المادية والاستهلاكية المحضة. عالما من الحروب القذرة. عالما صارت فيه كلمة السياسة سيئة السمعة.

هذا الشاب عاش أواخر الحروب الاستعمارية القديمة ورأى عقمها وعدم عدالتها ولا جدواها. فهو ليس ابن العصر الفيكتورى الذى كانت المسابقة فيه فى الاستعمار وراء البحار شرفا ومجدا. انكشف هذا حتى فى بلاده وصار أمرا ممجوجا..

وقد سمعت حرب فيتنام وحدها - وهى حرب ذات صفات خاصة - جو العالم ما يقرب من عشرين عاما. رأى شباب أمريكا زملاءهم يموتون فى بلاد بعيدة دون ثمن ولا نهاية. ورأوا قوتهم الساحقة تنوء بكلكلها على شعب أشبه بالنمل إذا قيس بأمريكا. ولكنه يقاوم حافيا عاريا تقريبا أقوى قوة عسكرية فى التاريخ وسمع الشباب الأمريكى بعض جنسرالاته يقولون عن القصف الجوى المركز «سنعيدهم إلى العصر الحجري».

ورأى الشباب الأمريكى ومعهم شباب الدول الصناعية المتقدمة سلسلة تجديد شباب أمريكا فى مجال من المجالات. اغتيالات مشبوهة، لكل من حاول اغتيال جون كنىدى رئيس الدولة. ثم اغتيال المتهم بقتله لى هارفى اوزوالد على شاشة التليفزيون. ثم اغتيال مارتن لوثر كنج زعيم حركة مساواة السود بالبيض.

ثم اغتيال روبرت كنيدى. وأيا كانت الحقيقة، فليس مألوفاً أن يظل الشك يساور المواطن الأمريكى فى حقيقة هذه الاغتيالات وفى أنه قد يكون وراءها قوى أكبر بل وأجهزة رسمية. ذلك أن هذا الشك المستمر حتى الآن سواء كان مبرراً أو غير مبرر، فهو ينطوى على دلالة نفسية خطيرة لدى الرأى العام. والشباب منهم بالذات.

ثم إن تلك السنوات كانت سنوات الكشف عن نشاطات المضابرات الأمريكية وغيرها فى هذا العالم المتقدم. ابتداء من اعتراف كنيدى بأن محاولة غزو كوبا من خليج الخنازير كانت أمريكية، الأمر الذى تلتته سلسلة اعترافات وكشف أسرار مذهلة. ضرب بيت سيوكارنو بالقنابل. محاولات دس السم لكاسترو. اغتيال لومومبا.

الانقلابات المطبوخة الدموية والتي كان آخرها فى تشيلى

وأخيراً كانت تلك السنوات سنوات الكشف عن الفساد فى الأماكن العالمية. إبتداء من ووترجيت التى كشفت عن فكرة استخدام العلم الحديث فى مطاردة وإدانة وتزوير التهم لأى مواطن، وانتهاء إلى الرشوة. رشوة نائب رئيس الجمهورية فى مكتبه وإدانتته بذلك. رشوة رئيس وزراء دولة كاليابان وزوج ملكة دولة مثل هولندا. وأحزاب بأسرها فى أوروبا.

لقد انتشرت فى فترة ما أفلام جيمس بوند والجريمة الراقية. ولكن الحقائق جاءت ففاقت الخيال. فإذا كان جانب العنف تآثر أصحابه بأسباب سبق ذكرها، فلا شك أن جر الاجرام والعنف على هذا المستوى أثار ألقا من ذوى الضمائر. لقد وجدوا أن هذا العالم غير عادل. وأن القيم المعلن عنها غير حقيقية وكان طبيعياً أن يكون رد الفعل عند الكثيرين منهم هو العنف. والعمل بسداجة على تدمير

هذا المجتمع أو تهديده وإقلاق مضجعه.

أسوق هذا الحديث، عن بلاد العالم الصناعي المتقدم، بلاد المدن المتضخمة والقيم المتضائلة والاستهلاك الوفير والتناحر المادي. أسوقه لأن معظم العالم النامي يسير في اتجاه هذا النمط. وبالتالي فقد يكون من الخير أن نتنبه لبعض شروبه من الآن...

حضارات تزدهر ثم تهوى .. وكيف نحدد خطواتنا؟

■ هذا الموضوع، كان دائما - ولا يزال - يحيرني كثيرا.. ويثير اهتمامي في محاولة فهمه والبحث عن أسبابه..

وقد يبدو الموضوع، للوهلة الأولى، فلسفيا مجردا، ولكنه ليس كذلك. وهو إذا كان قد أرهق كثيرين من المفكرين، فما ذلك إلا لأنه موضوع حيوى خطير يتصل بفهم الانسان لحياته، وماضيه وحاضره ومستقبله، وهل هناك أهم من هذه الأسئلة في تأثيرها على كل مجتمع؟

الموضوع ببساطة، هو أننا عندما نستعرض تاريخ الانسانية، وننأمل الحضارات التى قام أقامها الانسان - بدرجات متفاوتة - في مختلف أنحاء الدنيا، نستطيع أن نفهم ببساطة ظاهرة نشوء الحضارات وقيامها وثباتها لسنوات طويلة...

أى أن النمو والتقدم في حياة أى مجتمع، أمر طبيعى، ومفهوم...

ولكن السؤال اللغز هو: لماذا يحدث العكس؟ ما الذى يجعل مجتمعا يصل بمقاييس عصره إلى قمة الحضارة، ثم يبدأ بعد ذلك في الهبوط والاضمحلال؟ - أى ما الذى يجعل الحضارات تذبل ويجف فيها ماء الحياة بعد ازدهارها؟ ما الذى يجعل نظاما متكاملا للحكم، وسطوة واسعة للدولة، وازدهارا كبيرا للعلوم والفنون والقيم السائدة.. ما الذى يجعل هذا كله ينهار، ويتهاوى، فتحل الفوضى محل النظام والجهل بعد العلم،

وقيمة التخلّف والتأخّر محل قيم التقدّم والاستنارة والعمل والعرفان؟

ظاهرة قيام الحضارات لا تثير الدهشة...

ولكن ظاهرة انهيارها وانحلالها هي الأمر الذي يبدو غريبا.

وأهمية دراسة هذه الظاهرة واضحة. فمنها نأخذ العبرة في النظر والتصرف في كثير من أمور حياتنا. وهي نظرة شاملة لا بد أن نتأملها من حين لآخر، في عصر مزدهم مضطرب يغرقنا يسوميا في التفاصيل المتلاحقة.

طبعاً، هناك حضارات نشأت ثم لم يكتب لها النمو الثاني، فلم تلبث أن اندثرت بسرعة.. كحضارة الأزتيك في أمريكا الجنوبية، وبعض الحضارات في إفريقيا.. لظروف كثيرة لم تساعد على نموها وانتشارها بالدرجة الكافية...

وهناك أيضاً حضارات اندثرت تحت وطأة ضربات خارجية من قوى وتجمعات بشرية أقوى ولو بالمعنى الحربي فقط. وإن كانت حتى هذه الحضارات التي تهاوت إنما مهد لانهارها ضعفها الداخلي، وإن كانت أكثر حضارة ورقياً، أكثر مما تسبب فيه عدوها الخارجي. فالمغول والتتار دمروا دولا أرقى ولكنها أضعف في البنية العسكرية.

وهنا قد يحسن التنبيه إلى أن كلمة حضارة تعني أكثر من مجرد القوة المادية والعسكرية. فهي مجموعة من القيم المستقرة التي يشمل ازدهارها وعطاؤها كل شيء من مجالات الحرب والسلاح إلى مجالات التنظيم والانتاج والفكر والارتقاء بالحياة الإنسانية نوعاً وكماً على السواء. فالتتار مثلاً كانوا قوة تدميرية ولكنهم لم يؤسسوا ما يسمى حضارة. فلم يتركوا وراءهم للإنسانية شيئاً يضاف إلى تراثها لا في

الهندسة والعمران ولا في نظم الحكم ولا في الفكر والفن.
على أن السؤال هو عن الحضارات الجديدة بهذا الاسم. والتي شملت
عددا كبيرا من الناس ومساحة شاسعة من الأرض، وبلغت في كل
المجالات شأوا عظيما..

حضارة الفراعنة في مصر القديمة (اندثرت قبل الفتح العربي بل وقبل
الغزو الروماني بكثير).. حضارة الصين العظيمة.. حضارة روما التي
حكمت العالم المعروف وقتها تقريبا قرونا طويلة.. الحضارة العربية
الاسلامية الشامخة..

لماذا حدث الانهيار؟..

السؤال مطروح الآن، وبشدة، في أماكن كثيرة من العالم، لأن هناك
من المفكرين من يرون أن الحضارة الغربية الراهنة – والتي تحكم
العالم ويقلدها ويتطلع إليها الجميع – قد دخلت مرحلة الانهيار..

وهم في هذا المجال يشيرون إلى أشياء كثيرة منها انتشار القيم
المادية واختفاء الدين وانحلال الأخلاق، الاضطرابات الاجتماعية
والفضائح المالية الكبرى وانتشار الأسلحة الذرية وبالتالي احتمال قيام
حرب ذرية تؤخر الانسانية ألف سنة.. إلى آخره.

وأحب أن أسجل هنا للقارئ العربي عدة أمور. الأمر الأول إنني
لست من المتينين لهذا الرأي بسهولة. والأمر الثاني إنه حتى إذا كانت
حضارة هذا العصر التي ولدت في أوروبا قد دخلت مرحلة الانهيار فهذه
مرحلة تستغرق في العادة قرونا، وقد تقترب بشهوة إلى البطش بالغير.
والأمر الثالث أن بعض العرب يوعى أو يلا وعى يستسهلون الأمر ويرون
مستقبلنا في عوامل انحلال الحضارة السائدة وانهيارها وهو تفكير

سلبي، غير صحيح، ويحطم حماستنا اللازمة للجهد الذي يجب أن نبذله في التقدم..

ولكن الأمر، على أي حال، يحتاج إلى التأمل..

وكان أول من تنبأ تنبؤاً قاطعاً بانتهاء الغرب، الفيلسوف الألماني العظيم «أوزوالد شبنجلر»، وأعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة، معززا رأيه بنظرية في التاريخ تقول إن التاريخ الانساني ليس خطا مستقيما إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة من النمو والانحلال، وإن كل حضارة هي أشبه بإنسان.. يولد وينمو وينضج، ثم يشيخ ويذبل ويموت. ثم تبدأ دورة حضارة أخرى في مكان آخر من العالم وهكذا..

ويلغ من تعصب شبنجلر لفكرته، أنه كان يرى الخطر آتيا من الشعوب السمرء والملونة، وهاجم ففتح أبواب جامعات أوروبا لأبناء هذه الشعوب، لأنهم بذلك يتعلمون لب الحضارة الغربية ليدمروها في المستقبل، بعد أن يكونوا قد نقلوها إلى بلادهم!

وجاء بعده فيلسوف آخر في علم التاريخ، هو ارنولد توينبي الذي مات منذ مدة. وقد آمن في الأساس بفكرة شبنجلر في أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت. ولكنه قال ان هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب في رأيه أن الحضارة الراهنة تعلمت التاريخ وعرفت الخطر فهي سوف تتمكن من أن تتجنب تكراره.

ولنتأمل مثلا دولة انجلترا، ليس فقط لأن مشاكلها تشبه مشاكل كثير غيرها من البلاد المتقدمة — على درجات مختلفة — ولكن لأنها أيضا أول دولة صناعية في العصر الحديث. وأقدم دولة في النظام السياسي الديمقراطي الذي يضرب به المثل في الاستقرار، ولأنها حتى عهد زوال

الامبراطوريات كانت أكبر امبراطورية عرفها التاريخ، ولأن شعبها فوق ذلك تميز خلال هذا كله ويفضل هذا كله بصفات اشتهر بها في الانضباط، والاعتدال والقيام بالواجب وحب المغامرة وتحمل الازمات والحروب..

مظاهر كثيرة نراها على السطح: التضخم. البطالة. الصراع الاجتماعي الحاد بين نقابات العمال وبين الحكومات، حتى صارت السلطة ليست مقصورة على البرلمان ومحصورة فيه، بل صارت النقابات طرفا آخر، يرغم الحكومات على سياسات غير ما يقررها مجموع الشعب «في الانتخابات». واهتزاز نظام الحزبين العريق الذي ميزها عن سائر أوروبا بحيث صارا متقاربين أو صارت كل حكومة هي في الواقع حكومة أغلبية. وضربت انجلترا رقما قياسيا في التضخم من جهة وفي هبوط الاسترليني وتزعزعه ونزوله عن عرشه من جهة أخرى. وتميزت بأكبر عدد من الاضرابات في العالم، وبالتالي تخلف انتاجها الذي تعيش عليه وسبقها دول أخرى كثيرة.

أكثر من ذلك إن هذه الازمات كلها، التي أنقذتها من الافلاس أحيانا بنوك أوروبا وأمريكا مجتمعة بقروض جعلتها من أكثر الدول استئدانة.. دفعت إلى السطح فجأة نزعات انفصالية، وأحييت معارك حسمت منذ مئات السنين، فعاد الكاثوليك يحاربون البروتستانت في شمال أيرلندا، ووجدت اسكتلندا أن البترول ظهر في بحارها فظهرت فيها حركة انفصالية قوية، والنزعات المتطرفة في ويلز لاهياء اللغة المحلية والشخصية المحلية التي كان أصحابها يعتبرون مجانيين، صار لها وجود ونواب في البرلمان.. «فالمملكة المتحدة» مهددة بأن تعود ممالك غير متحدة..

وعندما تقاوم اضراب عمال مناجم الفحم - الذى أدى إلى إسقاط حكومة المحافظين - ظهرت في إنجلترا معقل الديمقراطية - منظمات أهلية شبه حربية، يقودها جنرالات سابقون، استعدادا للمواجهة مع النقابات، وللاستيلاء على المرافق العامة بالقوة إذا دعت الحاجة، ونفذ العمال إضرابا شاملا أوقف عجلة الحياة تماما في البلاد.

تمزقات عنيفة جدا وحادة، في مجتمع عرف بخبرته في تخطي أزماته، بدأت تهدد نسيج الشعب البريطانى ذاته. فظهر زعماء متطرفون مثل «اينوك بويل» يدعو إلى طرد كل غير الانجليز من إنجلترا، في حين أن الانجليز صاروا يستنكفون القيام بأعمال يدوية كثيرة لا بد منها ولا يقبل بها إلا المهاجرون الأفارقة والآسيويون، وظهر زعيم آخر مثل «كيث جوزيف» يدعو إلى حل عنصرى على الشعب الانجليزى نفسه حين قال إن المشكلة هي أن نسبة التناسل بين الطبقات الفقيرة الانجليزية تفوق نسبة التناسل في الطبقات الأعلى، وهذا يهدد بالهبوط «بنوعية الشعب الانجليزى»!

وفي نفس الوقت انتزعت لندن من عواصم أخرى الأولوية في ميدان الاباحية الأخلاقية.. ففيها ظهرت أول مسرحيات للعرافة تماما، وفيها سمح تحت الضغط باستخدام الألفاظ النابية في الاذاعة والتلفزيون، وصارت لندن بوجه عام عاصمة اللهو سابقة بذلك باريس وغيرها.

وامتلأت الثقافة الانجليزية بالسخرية من تاريخ إنجلترا الامبراطورى، وانتشرت المسرحيات التى تسخر من رموزها المقدسة مثل كيتشنر وغيره، وجوهر الحملة أن أهداف المجتمع في الماضى، المجد والأولوية والتفوق والتفوذ، أهداف سخيفة، إنما الهدف الوحيد الجدير بالانسان هو: اللذة! ومن أقصر وأسهل طريق.

وهنا في الحقيقة مريبط الفرس، كما يقولون...

ويتفق أهل الرأي في كل مجال، أن كل الأمراض الاقتصادية وغير الاقتصادية تكمن في أشياء أعمق وأهم.

أولها أن الشعب الانجليزي صار يستهلك أكثر مما ينتج، وبالتالي فلا بد له أن يستدين، غير حاسب أى حساب للغد..

وثانيها أن الفرد صار يطالب بحقوقه في كل متع الحياة ولو كان سبيله إلى ذلك الامتناع عن قيامه بواجباته..

وثالثها أنه في حيرة من هويته، هل هو مع السكومنولث وما وراء البحار؟ أم أنه جزء من أوروبا التي كان يزدريها، ولا بد أن يتنازل عن جزء من حريته لها؟ أم الأسهل من هذا وذاك أن يستسلم للتبعية الأمريكية ويصبح أشبه بولاية من ولاياتها؟

والتنبؤات في هذا المجال قديمة..

فمنذ ما يقرب من مائتي سنة قال نابليون إن أوروبا شاخت. وإن القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكرا: أمريكا بشبابها الطاغى، وروسيا (القيصرية في ذلك الوقت) بذلها الشديد الذي لابد أن يتفجر عن شيء جديد قوى!

وقبل خمسين سنة نجد في إحدى مسرحيات برناردشو مشهدا يدخل فيه السفير الأمريكي مبتهاجا على ملكة انجلترا يعلنها بخبر مثير: أن أمريكا قررت انهاء انفصالها عن انجلترا والعودة إلى الولاء للتاج.. وحين تبدى الملكة دهشتها يرد السفير قائلا: إن هذا سيتم في مقابل أمر بسيط هو أن تنتقل الملكة - والتاج - إلى أمريكا!

والمعنى واضح في أنه يشير إلى دخول إنجلترا في فلك أمريكا وتبعيتها لها..

المهم.. نعود إلى التشخيص الأصلي وهو أن الشعب الانجليزي، عبر التطور، انهارت مجموعة القيم والمثل التي كانت توجه حياته، ولم تحل محلها - بعد - مجموعة قيم ومثل أخرى مشكلة العصر الراهن.

وسادت فلسفة اللذة، تلك الفلسفة «الرواقية» المسدونة من أيام الاغريق، واللذة في المجتمع الانجليزي لم تعد كما كانت، لم تعد في العمل، أو الكسب، أو الفتح، أو الاستكشاف، بل لذة الاستمتاع بكل ما يتيح الحياة الحديثة من سلع استهلاكية ووسائل ترفيه، وعلاقات حرة خالية من كل ضوابط اجتماعية.

وفي هذه الأشياء ما يمس مجتمعات متحضرة كثيرة، وفي تقديري أن سيادة القيم العادية سيادة مطلقة واعتبار عنصر التحضر الوحيد هو إعادة - من مادية القوة المسلحة إلى مادية الكسب واقتناء السلع إلى مادية غلبة الذات الحسية على سائر أنواع المتع الانسانية والاجتماعية والذهنية.. بل واقتران فكرة الحضارة بالمادة فقط، في تقديري أن هذه العلة هي جذر الجذور في اختلال دورة الحياة في شجرة الحضارة، ويوادر ذبول فروعها وأغصانها، وتساقط بعض أوراقها..

ولهذه الظاهرة التي تزداد طغيانا كل يوم، أمثال في نهايات حضارات سابقة..

وننظر إلى مجتمع آخر صناعي، يعتبر بالمقاييس المادية ناجحا جدا، بل أنجح نموذج معاصر، وهو اليابان..

هناك توجد مشاكل إنجلترا الاقتصادية بهذا الشكل

وهناك مجتمع ظل متخلفا، تقليديا، مغلقا، إلى ما يقرب من مائة سنة، ثم صار خلال قرن واحد في المقدمة، ويضرب به المثل في النجاح والكفاءة..

ولكن من أعجب ما قرأته أخيرا تقرير لجريدة «الايـزيرفر» الانجليزية من اليابان، يتحدث عن ظاهرة انتشرت في اليابان، وهى وأد الأطفال الرضع بأيدي أمهاتهم!

ويقول التقرير إن الدولة اكتشفت مائتى حالة على الأقل أقدمت فيها الأمهات — وكلهن شابات متزوجات — على قتل أطفالهن قبل أن يتموا سنة واحدة من العمر، وإن علماء النفس والاجتماع في اليابان في حالة ذعر وحيرة إزاء هذه الظاهرة!

وقد عرفت بعض المجتمعات، في عصور سحيقة، ظاهرة وأد الأطفال.. ففى بعض القبائل العربية — في الجاهلية وقبل الاسلام — كان يتم وأد البنات، أى دفنهن أحياء حتى الموت، لأن البنت كانت تقترن بالمسئولية وعدم الكسب واحتمال العار، حتى جاء الاسلام فحرم السوأد تحريما قاطعا بنص قرآنى صريح..

وفى اليونان القديمة، كانوا يضعون الأطفال عرايا على سفوح الجبال، ليموت الضعيف ولا يعيش إلا القوى.

وكان الفقر أحيانا هو السبب . ففى أيام انحطاط الصين وانتشار البؤس والفيضانات والمجاعات وجدت ظاهرة وأد الأطفال أو بيعهم لاسر غنية تتكفل لهم بالرزق..

ومع أن الجريدة تقول إن عادة وأد الأطفال الرضع وجدت على نطاق

ضيق في تاريخ اليابان القديم، إلا أن هذه السظاهرة جديدة تماما. فالـيابان الحديثة التي نعرفها اليوم ليس فيها مشكلة الفقر الذي يدفع الأم إلى قتل طفلها، ثم إن معظم الأمهات شابات، وعلى درجة من التعليم وأكثرهن يعملن إلى جانب الزوج ويشاركن في المجتمع..

والغريب أنني أذكر عندما زرت اليابان، أنني كتبت أنها البلد الوحيد في العالم الذي نجح فيه تحديد النسل. فليست هناك موانع دينية تقف في طريق أى تشريع. وبالتالي استخدمت هناك كل الوسائل ابتداء من إباحة الاجهاض وانتهاء بالتعقيم المطلق ضد الانجاب.

ولكن التفسير الذى يعطيه الاجتماعيون لهذه الظاهرة – مهما كانت قلتها – أن المرأة الحديثة صارت مشدودة إلى قيم المجتمع الراهن من رفاهية مادية وحرية واستمتاع أنانى بالحياة إلى أقصى الحدود، لدرجة تجعل بعضهم يقدمن هذه الأشياء على عاطفة الأمومة الأزلية الخالدة، بأهميتها البالغة في بناء الأسرة والحياة والمجتمع.

.. مرة أخرى، نموذج صارخ على طغيان المعيار المادى والاستمتاع الشخصى المباشر على أى شىء آخر.

هل هو النموذج الوحيد

وهذا كله يطرح على الانسانية سؤالاً، لعله أهم الاسئلة الفكرية اليوم :

هل النموذج الحضارى الذى نراه الآن هو النموذج الوحيد الذى كتب على الانسانية أن تقتفى أثره وتقلده حتى ولو قادها إلى الهلاك؟ أم أن هناك نماذج أخرى وقيما أخرى يمكن البحث عنها؟

وهذا سؤال يهمنى، نحن العرب بالذات.. لأننا ورثة حضارة كبرى
ولأننا مؤهلون لأن نلعب دوراً آخر عظيماً، ولأننا في مرحلة انتقال، ولا بد
أن نشارك في النقاش العالمى الدائر حولنا.
ولكن هذا سؤال، قد يحتاج إلى حديث آخر..

العالم كله ضد.. الوحدة العربية!

● عندما تفضل الاخوة المسئولون عن تنظيم الموسم الدبلوماسية السنوى في دولة الامارات بدعوتى لالقاء محاضرة افتتاح الموسم.. اختاروا لى موضوعا، غاية في الصعوبة وغاية في السهولة.. وهو موضوع الوحدة العربية..

وأعترف بأننى لم انتبه إلى المأزق، من أول وهلة، الوحدة العربية، لقد طال شوقى إلى الاستماع إلى هذه الكلمة، لقد شعرت وشعر غيرى، أن هذه الدعوة التى نشأنا عليها. قد نسيها الناس، وطمسها كثبان الأيام.

المأزق من ناحية في أن عنوان الوحدة العربية في حد ذاته واسع جدا. متشعب جدا. لا يمكن الاحاطة به في محاضرة، ولا في كتاب، فالخوض في الحديث، تحت هذا العنوان الواسع، كالقبول بالسباحة في بحر لا قرار له ولا ساحل يحده، ولا مرفأ نرسو فيه.

والمأزق من ناحية أخرى، هذا الشعور الذى تحدثت عنه. ألم تخمد الجذوة تحت وطأة الأحداث؟ ألم تتبدد أعظم فكرة في أخطر سكرة؟ ألم يمل الناس من الحديث عن شيء لا يتحقق؟ ألم يتعب سكان السفينة التائهة من طول انتظار الوصول إلى مرفأ، أى مرفأ

ما هو الجديد الذى يمكن أن يقال، لا يعرفه الناس، عن الوحدة العربية؟

ما هي الحجج الجديدة التي يمكن أن تساعد للاقناع والناس مقتنعة كل الاقتناع، وقد ينقصها أي شيء إلا الاقتناع بهذه القضية بالذات؟...

لا أظن أن المواطن العربي، في أي مكان، في حاجة إلى معرفة أو إلى اقتناع وفهم، بل إن الشيء الوحيد الذي لا يفهمه المواطن العربي في قضية الوحدة العربية، هو: لماذا لم تتحقق هذه الوحدة بعد؟.. والسؤال الوحيد لديه هو: ماذا ننتظر؟ ما الذي يجعل الاقليمية قادرة على البقاء على قيد الحياة، سواء بين الأقطار العربية المختلفة أو أحيانا داخل القطر العربي الواحد. من الذي يعرقل الاتحاد والاندماج هنا في دولة الاتحاد، نحن أم غيرنا؟ من الذي يجعل الاخوة يقتتلون في لبنان، نحن أم غيرنا؟ من الذي يوجد خلافات على الحدود بين أقطار عربية.. أحيانا على أمتار قليلة.. نحن أم غيرنا؟ أين هذا مما كان يملا قلوبنا من إيمان قديم، بأنه يكفي أن ينسحب الاستعمار، ويرفع يده الغليظة عنا، حتى تتحقق الوحدة، متوالية متعاقبة، جارية في سبيلها أي عقبة حقيقية أو مصطنعة؟

تلك في تقديري، هي الأسئلة التي قد تطوف بعقل المواطن العربي أو تؤرق ضميره، حول قضية الوحدة العربية.

الوحدة العربية تجاوزت مرحلة التعريف.. وتجاوزت مرحلة التبشير...

من أجل هذا، كان لا بد أن أحاول أن أختار بندا واحدا من البنود التي تندرج تحت عنوان «الوحدة العربية» أو أن أحدد عنوان الحديث بعض الشيء، وقد خطر لي أن يكون «الوحدة العربية إزاء العالم».

خطر لي هذا العنوان «الوحدة العربية إزاء العالم»، لأن لدى قضية

أريد أن أقولها تحت هذا العنوان. قضية لعلنا نعرفها ولكننا أحيانا ننساها، قضية لعلها ترد على بعض هذه التساؤلات التي ذكرت أنها تطوف بعقل المواطن العربي، وتزعج ضميره...

أريد أن أقول في بساطة وصراحة وإيجاز: إن العالم كله ضد الوحدة العربية !!

نعم!.. العالم كله ضد الوحدة العربية. أقول هذه دون أدنى رغبة في الاثارة أو المبالغة أو إعطاء أنفسنا أهمية أكثر مما يجب. وأبادر أيضا فأسجل أنني لست من الذين يحبون أن يروا الأشباح والمؤامرات وراء فشل يصيب قومهم. ولست من الذين يستسهلون الحياة بتعليق المسؤولية على أقرب شماعة كالاستعمار أو خلافه. كلا.

إنما أقول بكل مسئولية وعقلانية. وأقوله وأنا مؤمن في نفس السوقت أن كون العالم كله ضد الوحدة العربية ليس معناه أنها مطلب مستحيل. ولذلك ربما كانت الصيغة الأكثر توازنا واكتمالا أن أقول: العالم كله ضد الوحدة العربية. ولكن هذا لا يمنع العرب — لو أرادوا — من تحقيق وحدتهم.

وإذا كنت أركز، على نقطة واحدة، وهي معارضة العالم بوجه عام لقضية الوحدة العربية، فإنما أحاول أن أوضح بذلك أن الوحدة العربية أخطر وأهم بكثير جدا مما يظن البعض. فهي ليست كلمات جميلة، ولا هدفا سهلا، ولا تتحقق باتفاقات هزيلة، ولا بقبالات بين رؤساء الدول، وإنما هي تحتاج إلى نضال، وصبر، وعمل، ودهاء، وعيون مفتوحة على كل مناورة خارجية، وكل شرك منصوب.



ولكن، لماذا؟...

لماذا يكون العالم كله ضد تحقيق أمنية عزيزة على أمة من الأمم،
كألمة العربية؟...

لا يمكن طبعاً، في هذا الحديث، إلا أن نقف عندما يمكن أن نسميه
الأسباب الرئيسية، إذ لا يتسع المجال لأن ندخل في كل التفاصيل...

وأول نقطة تستوقفنا هنا، هي أن السياسة الدولية بوجه عام، وعلى
مر العصور، كانت تكره قيام الكيانات الضخمة الكبيرة، فما قام منها
إنما قام إما بحد السيف، وإما لتوافر ظروف مساعدة كثيرة.

ينسبون إلى كيسنجر أنه صاحب سياسة إقامة الاستقرار في العالم
على أساس من «التوازن الدولي». ويقول آخرون إن كيسنجر لم يكن في
هذا إلا تلميذاً للسياسة النمساوية «ميتزنخ» الذي برز في الإمبراطورية
النمساوية عقب حروب نابليون، والذي حقق أطول مدة من السلام في
أوروبا التي كانت تتحارب باستمرار، عن طريق «التوازن الدولي».

ولكن قبل كيسنجر، وقبل ميتزنخ، كان معروفاً أن إنجلترا، كانت أحد
أسس سياستها الخارجية دائماً، هي إقامة نوع من التوازن الدولي
خصوصاً في أوروبا الغربية منها. كانت سياسة إنجلترا وما تزال أن
لا تقوم في أوروبا دولة مهيمنة على بقية القارة، بأي نوع من السيطرة،
لأن في نمو مثل هذه القوة ما يهدد مصالحها في أهم منطقة بالنسبة لها.
نابليون لم يطلب معاداة إنجلترا، هتلر لم يطلب معاداة إنجلترا، ولكن
إنجلترا كانت دائماً إذا بدت قوة صاعدة جمعت الآخرين في تحالف،
لحصر هذه القوة، وإعادتها إلى حجمها. ولا تذهب إنجلترا إلى الحرب
وحدها أبداً، وحين تقرأ تاريخ أي حرب، ونجد طرفاً من المحاربين

يسمى «الحلفاء» فلا بد أن نجد فيه إنجلترا. تلك كانت فلسفتها التى حكمت بها العالم أكثر مما حكمت بأسطولها. حين كانت الامبراطورية العثمانية توشك أن تهزم روسيا القيصرية كما فى حروب القرم وغيرها، كانت تصنع تحالفا من سائر قوى أوروبا يقف مع روسيا ضد الامبراطورية العثمانية. وحين أوشك محمد على الكبير الزاحف من مصر إلى الشام أن يهدد الامبراطورية العثمانية، جمعت تحالفا آخر وفيه روسيا ضد محمد على لابقاء التوازن بينه وبين الخليفة العثمانى. وفى وجه نابليون جمعت روسيا والنمسا وألمانيا. وفى وجه غليوم الثانى سنة ١٩١٤ ثم هتلر سنة ١٩٣٩ جمعت روسيا وفرنسا وأمريكا وسائر أوروبا، فهى لم تحارب مثلا سنة ١٩٣٩ لأن هتلر هاجم بولندا. بل لأنه بعد أن ابتلع النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا ثم بولندا صار تركه خطرا يهدد بتحول ألمانيا إلى تلك القوة الكبرى التى تهدد التوازن المحسوب.

وعادة، القوى الكبرى فى أى عصر، هى المستفيدة من الوضع الدولى القائم، هى التى يهتمها إبقاء التوازن كما هو.. وهى التى تعارض قيام قوى كبرى جديدة إلى جانبها..

والقوى الكبرى تعبير لن استخدمه هنا بالمعنى العسكرى فحسب. ولكن بالمعنى الاقتصادى أيضا، الذى هو الهدف المهم فى الحقيقة، ومحور الصراعات الدولية عبر معظم العصور.

وما هى سياسة المعاهدات والتحالفات منذ قديم الأزل؟ إنها إما معاهدة بين طرفين قويين، تمنع الصراع بينهما، حتى لا يستفيد من تناحرهما طرف ثالث، أو تحالف بين دولتين أو أكثر لاحتواء أو انقضاء خطر قوة أخرى تشكل تهديدا مشتركا بالنسبة لأطراف التحالف. وإذا كنت ضريت مثلا سريعا موجزا بإنجلترا، فلأنها كانت الدولة

الاقوى والأعرق والأمهر سياسيا في العالم، خلال الأربعة قرون الماضية تقريبا. فهي النموذج الأكبر، وإن كان قد حل محلها غيرها. في عالم اليوم.

وليس هناك ما هو أكثر فعالية في الحيلولة دون قيام قوة جديدة كبيرة، أو في تدميرها، من عملية تقسيمها أو تفكيكها. وهنا أيضا نعرض لأسلوب تعرفه السياسة الدولية جيدا.

فالولايات المتحدة الأمريكية، القوة الكبرى في عالم اليوم. قامت بمساعدة ظروف كثيرة، أبسطها بعدها البعيد عن أوروبا في عصر لم يكن العلم فيه قد تقدم بعد، بل إنها قامت في غفلة عن العالم القوي، في وقتها أوروبا كانت مشغولة بحروبها وثوراتها، وأحدا لا يتوقع أن تتحول تلك الأرض الغضاء إلى الكيان الضخم. حتى أن الولايات الاثنى عشرة التي بدأت في أمريكا كانت أحيانا تشتري ولاية بأكملها من فرنسا أو من غيرها بما يساوي ٢ أو ٣ ملايين دولار.

القوى الكبرى الثانية، روسيا القيصرية، وخصوصا عندما بدأت تتحول إلى الاتحاد السوفيتي، جرت هجمات انجليزية وأمريكية وبولندية كثيرة في محاولة لتفكيكها خلال فوضى الثورة وضعفها.

والنموذج المائل أمامنا ألمانيا. فالشعب الألماني هو أكبر الشعوب عددا في قلب أوروبا. وله صفات عريقة في القوة والانتظام جعلته دائما قابلا للتفوق ماديا وصناعيا وعسكريا. لذلك ظلت كل دول أوروبا الكبيرة المحيطة تمنع ألمانيا من التوحد وتجعلها دائما دويلات وإمارات صغيرة، حتى وحدها بسمارك كما نعرف بمزيج من القوة والدهاء. ولما تكرّر خطر ألمانيا مرتين في الحربين الأولى والثانية، كان الحل الذي اتفق

عليه الجميع ، شرقا وغربا، هو تقسيم ألمانيا. وحتى الآن ربما كانت أمريكا وحدها التي لا تعارض توحيد ألمانيا لأن خطرها سيكون موجها إلى روسيا. وسيؤثر على وضع كل المعسكر الشرقي في شرق أوروبا، ولكن فيما عدا أمريكا فإن كل دول أوروبا بلا استثناء، شرقية وغربية، تريد أن تبقى ألمانيا مقسمة إلى دولتين. فألمانيا في الواقع بشعبها الكبير، المتقدم، القوى، أو لأنها كذلك، لم تعش دولة موحدة أكثر من حوالي سبعين سنة فقط!

مثل آخر يستحق أن يكون موضع دراسات عديدة وما زالت كثير من أسرارها مطوية وهو انهيار الامبراطورية العثمانية.

لا نملك في هذا المجال، إلا أن نتحدث عن خطوط عريضة جدا. ولكنها تكفي لأنها تتصل بسياق حديثنا...

كانت الامبراطورية العثمانية مكروهة بغير شك من دول ذلك العصر وامبراطورياته القوية، روسيا القيصرية. امبراطورية النمسا. فرنسا. انجلترا، وكان يكفي لكراهيتها إنها كانت تجسد المد الاسلامي. وتدمير بيزنطة نهائيا. واحتلالها لمناطق يعتبرها الآخرون أولى بهم، خصوصا البلقان كله، حتى قلب أوروبا. وإنها من ناحية أخرى تشغل بقعة بالغة الأهمية، هي نقطة الوصل بين الشرق والغرب. خصوصا بعد أن انفتحت مستعمرات الشرق لصناعة الغرب وتجارته.

كانوا لا يكفون عن التآمر ضدها. والعمل على وضععتها وتخريبها من الداخل. والحصول على امتيازات في قلبها هنا وهناك. وبث الفتن الدينية والعنصرية في أرجائها. وفي بعض المذكرات القديمة وخطابات قناصل تلك الدول الكثير والرهيب، مما يشير إلى ذلك.

وفي نفس الوقت، كانوا إذا وجدوا أن الامبراطورية العثمانية، مهددة بحركة تجديدية من داخلها، يسارعون إلى الوقوف إلى جانب الباب العالي. ويساهمون في توطيد سيطرته. لماذا؟ كانوا يريدون أن تبقى الامبراطورية كما سموها رجل أوروبا المريض، وكانوا يريدون للرجل المريض الموت ولكن في الساعة التي تناسبهم والظروف المواتية لهم، حتى يقتسموها هم، فلا تستعيد صحتها أو تسترد شبابها مع حجمها الضخم الكبير. هكذا تحالفت أوروبا كلها مثلاً ضد محمد علي الكبير الذي كان يمثل قوة فتية نامية في إهاب الامبراطورية العجوز، وهكذا تحالفت نفس الدول على خداع الثورة العربية بعد ذلك في الحرب العالمية الأولى، موهمة لها أنها ستحقق أملها في استقلال المشرق العربي موحداء، بينما كانوا قد وقعوا بالفعل معاهدة سايكس بيكو لتقسيم المشرق العربي إلى دول وتفاهموا بالفعل مع الحركة الصهيونية لاعطائها فلسطين. وهذا ما كان.

إذن فالذي نستخلصه من هذه الأمثلة... أن هناك حقيقتين قديمتين جديدتين، من حقائق السياسة الدولية، وهما مقاومة ظهور أي قوة جديدة من قبل القوى القائمة لأنها تترك التوازن القائم، وتقلل من فعالية القوى القديمة، وإن التقسيم أو الإبقاء على عوامل الانقسام أحد أهم الأسلحة التي تستخدم لتحقيق هذا الغرض في كل زمان ومكان.

.. فإذا كانت هذه من القواعد الأساسية في لعبة الأمم.. فلست أدري لماذا نعتبرها غير موجودة بالنسبة لنا، ولماذا لا نتوقع أن يكون مجرد احتمال قيام قوة عربية كبرى فيه ما يثير مقاومة الآخرين؟ خصوصاً وأن الأمر في حالتنا أشد. أي أنه فوق هذه القواعد العامة للعبة السياسية الدولية، هناك أشياء خاصة بنا تجعلنا يجب أن نتوقع مقاومة

أشد، وما هو سوف أصل إليه بعد قليل.

ففى حدود القواعد العامة أيضا للعبة الأمم، ما يجب علينا أن
نفصله ونستوضحه قليلا...

فنحن نقول العالم ضد الوحدة العربية بوجه عام. ولكن العالم يتكون
من دول ومعسكرات، وهى دول يمكن تقسيمها أو تصنيفها تصنيفات
مختلفة. وكل نوع أو صنف منها قد يكون له رد فعل مختلف.

فمن ناحية القوة، بكل معانى القوة عسكرية واقتصادية وعلمية
وعددية، نجد عندنا:

أولا - دولتان كبيرتان. هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد
السوفيتى. مثل هاتين الدولتين لا يمكن أن نتصور أن تتقبل إحداهما
ببساطة فكرة قيام دولة أو كيان أو كتلة قوية متراصة مترابطة ممتدة من
المحيط إلى الخليج. وهنا نأتى إلى بعض تلك الصفات الخاصة بالوحدة
العربية والتي تجعل القبول بها أصعب. فهذه الرقعة ليست فى أى مكان
من الأرض. ليست فى أمريكا الجنوبية أو فى استراليا، إنها فى قلب
العالم. تشرف على الخليج، والمحيط الهندى، وتحكم البحر الأحمر كله،
ولها نصف شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتطل شواطئها على المحيط
الأطلسى، والأمر الجديد أنه صار لديها أكبر وأهم مخزون عالمى لأهم
سلعة استراتيجية فى العالم وهى البترول. أليس التعامل مع هذه الدول
فرادى أسهل مائة مرة من التعامل معها ككل واحد؟..

إذا أرادت روسيا طريقا إلى البحار الدافئة فهى لا بد أن تفكر فيها،
وإذا أرادت أمريكا أن تحمى طرق تجارتها الدولية وتجارة معسكر الغرب
والشرىان الذى يمد إسرائيل بالحياة فلا بد أن تفكر فيها. وبالنسبة

للطرفين فالتفكير في هذا الكيان موحدًا هو بالتأكيد فكرة مرعبة وكابوس مزعج.

وبعد الدولتين الكبيرتين تأتي الدول الصناعية المتقدمة في أوروبا أو كندا أو اليابان، وهي ليست بعيدة عن تلك الدولتين الكبيرتين وبالتالي ليست بعيدة عن ردود فعلهما، فضلًا عن أسباب خاصة بأوروبا بالذات، سوف أعرض لها بعد قليل.

ثم هناك الدول النامية، وقد تكون مقاومتها للفكرة أقل أو هي غير قادرة على مقاومتها وإن كان يمكن أن نتصور أنها لا تتحسّس لها.

ثم الدول الأشد فقرًا، وهي بتد جديد في جدول الدول دخل القاموس الدولي، ولكنها لا تختلف كثيرًا عن المجموعة السابقة.

تقسيم أو تصنيف آخر، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول مجاورة وقريبة منا، ودول بعيدة عنا، هنا أيضًا ربما نجد دول أمريكا الجنوبية لا يزعجها كثيرًا قيام وحدة عربية في أي صورة من الصور. أما الدول المجاورة للحدود العربية أو التي تشترك مع الدول العربية في بحار واحدة، فهي بالغريزة وبالطبيعة، شأن كل دول العالم لا تحب تعاظم قوة الجار القريب ولا ترتاح مستقبلًا إليها. فهي لابد أن تكون في صف المقاومين لها، ما أمكنها ذلك.

تقسيم ثالث، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول ترى أن رسالتها في خدمة نفسها ومصالحها فحسب. ودول ترى أن لها فوق ذلك رسالة عالمية، وضعها كدولة كبرى دورًا آخر في نشر المذهب الماركسي الذي ترى أنه النظام المناسب لعالم الغد. والغرب يرى أن لديه رسالة يسميها الحضارة الغربية المسيحية، بكل مقوماتها التي نعرفها، ومعظم

الأحزاب في أوروبا الغربية اسمها Christian Democratic هذا هو الاسم الذي تطلقه الكتب على مجموعة القيم التي ارتبطت بقيام الحضارة الغربية ونشوتها. وفي هذا المجال، يرى الاثنان، أن العالم العربي يخلق لهما مشكلة. فهو ليس أرضا عارية من حضارة متكاملة سابقة، وعالمية الرسالة أيضا، وهي الحضارة العربية الإسلامية، ومن الطبيعي أن ينظرا إلينا في القليل نظرة تنافس أو عدم ارتياح، لأن أي بلد له حضارة شرقية لا بد أن تؤثر في نمط تقبله حتى للدعوات الجديدة. فالماركسية مثلا، بنت الحضارة الغربية، لم تنقلب إلى لون جديد، منافس، مختلف، حاد في اختلافه، إلا في الصين، لأنها بدورها كيان ضخم ذو حضارة شديدة الخصوصية، ولا أحد يعرف إلى أين ستنتهي التجربة هناك، ولكن أحدا لم يكن يتصور أن مشكلة روسيا العظمى سوف تكون مع الصين!

تقسيم رابع، يمكن أن نصنف به الدول، إلى دول لها معنا سابق تاريخ واحتكاك، ودول ليس لها معنا مثل هذا التاريخ.

فهناك، مثلا الدول الأفريقية، أو بالتحديد الحزام الأفريقي الذي يلي الشمال العربي الأفريقي مباشرة. هنا نجد منطقة مختلطة، مناطق مسلمة ومناطق مسيحية ومناطق وثنية. مناطق يجري في عروق أهلها الدم العربي بوضوح، ومناطق زنجية خالصة، فتلك كانت نقطة الالتقاء ومعبر الهجرة والتجارة والتعامل أيام المد العربي. وفي تلك المناطق يوجد حب للعرب، أول من نقلوا لهم تاريخا أنوار الحضارة، وفيه كراهية مصدرها ما يقال عن تجارة الرقيق، وهي نقطة حاول الاستعمار الأوروبي أن يغذيها هناك حتى يقيم حاجزا بيننا وبينهم. وإن كانت مساعدة العرب لحركات التحرر الأفريقي في القرن العشرين قد أزالَت الكثير من أثر تلك التركة، إلا أن بعضها قائم.

وهناك جار آخر، ذو أهمية خاصة، هو جارنا الشمالى، الذى يفصل بيننا وبينه البحر الأبيض المتوسط أو بالأحرى يجمع بيننا وبينه البحر الأبيض، وهو أوروبا.

ولا أريد أن أعيد هنا ما كتبته فى مجلة «العربى» - عدد أغسطس ١٩٧٦ تحت عنوان «نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة».. من استعراض شامل للحروب الصليبية، كمواجهة بين حضارات استمرت قرونا، وتركت أثارا عميقة لدى الجانبين...

ولكن العبرة العامة، أن «أوروبا قوية» كانت تحب أن ترى دائما عالما عربيا ضعيفا. لأن عالما عربيا موحدًا كان يعنى إضعاف أوروبا. والظروف السياسية والاقتصادية تغيرت بالطبع. ولكن السرواسب لا تموت بسهولة. وقد يهمل الأوروبيون بترونا. ولكن قد تزعجهم وحسدتنا على وجه اليقين.

.. وبعد، فإننى أقول هذا كله لا لبث اليأس من قضية الوحدة العربية، ولكن لكى أنبه العرب جميعا إلى أننا حين نفكر فى الوحدة، بأى شكل وعلى أى مستوى، فنحن نفكر فى مشروع من أخطر مشروعات التاريخ كله! وعلى هذا المستوى يجب أن يكون التفكير فيه.. والعمل من أجله.

١٩٨٤ / ١٨٧٠	رقم الإيداع
٩٧٧-٠٢-٠٧٣٩-٤	الترقيم الدولي
ISBN	

٢ / ٨٣ / ٦٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

شريعة السلطة

لقد حاولت جهدى ، أن تكون موضوعات هذا الكتاب تلك التى تتصل بقضايا مازالت تعيش معنا ، ولعلها ستعيش معنا طويلا ، لأنها متعلقة بالأفكار والمبادئ والملامح الأساسية ، والتى لم يتوصل المجتمع العربى فيها إلى صيغة مرضية للمواطن العربى إلى الآن . والتى ستبقى محل جدل حتى يجتاز عالمنا « مرحلة الانتقال » التى يمر بها ..

أحمد بهاء الدين

To: www.al-mostafa.com